

محركات الأفكار

تنقيبٌ في الجذور ورصدٌ للمنابع



د. عبدالرحمن بن ناصر الريس

محركات الأفكار

تنقيبٌ في الجذور ورصدٌ للمنابع



محركات الأفكار

تنقيبٌ في الجذور ورصدٌ للمنابع

د. عبد الرحمن بن ناصر الريس



محركات الأفكار

تنقيبٌ في الجذور ورصدٌ للمنابع

د. عبد الرحمن بن ناصر الريس

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية - الخبر
eyadmousa@gmail.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة

إلى والدي العزيز.. أدام الله علي دعواته المباركة

إلى والدتي الكريمة.. أدام الله علي فضلها ورعايتها

إلى زوجتي الحبيبة.. أدام الله علي حبها وقربها

إلى أخي المرحوم عمر.. أدام الله عليك الرحمة والمغفرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ما يزيد عن عشر سنوات كانت الأجواء الفكرية في أوج سخونتها، وكان الفضاء الفكري العربي حينها مُتخماً بالخطابات الفكرية المتعددة والمتباينة، **فمن خطابٍ** امتهن أعناق الأدلة الشرعية تحت ضغط القيم الحضارية الغربية، **إلى خطابٍ آخر** يسيل لعابه قبل قلمه على الوارد الغربي أياً كان حامله يرتدي بدلة مهرجٍ أو بدلة رسمية جذابة، **إلى خطابٍ حداثي** كشر عن أنيابه الحادة متهجماً على التراث الإسلامي، **إلى خطابات أُخرى يعج بها المشهد**، وكأي طالب متطلع للمعرفة والعلم دفعتني ـ آنذاك ـ سخونة وحرارة هذه الأجواء الفكرية إلى مطالعة هذه الاتجاهات والنظر لأفكارها في الكتب المبثوثة في العالم العربي والمقالات المنشورة على الشبكة والمواقع العنكبوتية.

ولا أكتم القارئ سراً إن قلت أني كنت في قمة الحماس والهمة المعرفية في تتبع أفكار هذه الاتجاهات والسعي وراء أطروحاتها بكامل تفاصيلها وأحداثها، وقراءة العشرات من الملفات التي كانت تدور حول: (**الحرية بين أشواقها وأشواكها، والردة والحدود التي تحرج الخطاب الحضاري، والديمقراطية وكل ما يدور في فلكها من سيادة الشريعة وتطبيق حكمها، ومشاريع النهضة والمحاولات والتساؤلات النهضوية، وقضايا الأخلاقيات التي كانت بضاعة تقتات عليها بعض الخطابات الفكرية**) وغيرها الكثير من الملفات والأطروحات الفكرية التي كانت مبثوثة في الفضاء الفكري والثقافي المحلي والعربي.

وفي سياق هذه النشوة الفكرية قد يتجلى للمرء أمر كان قد غفل عنه في بداية حاله؛ إذ تجلى بعد برهة من الزمن أن بعضاً من تلك الأفكار التي أخذت من الوقت الكثير ومن الجهد وفرته، أساسُها ومنبعُها ومحركُها أمرٌ

وحالٌ هو أبعد ما يكون عن الفكرة ذاتها التي أخذت من الجهود العلمية والفكرية في المناولة والردود والمناقشة والتوضيح والبيان والحوار والحجة والبرهان وغيرها من الآثار لأي فكرة باقعة تُثار في فضاء محتدمٍ وممتلئ بالأفكار والآراء والاتجاهات والمدارس المختلفة.

من ذلك الوقت دار في خلدي أن ليس كل فكرة في الفضاء العربي المعاصر هي فكرةٌ قائمة بذاتها وأن صاحبها تلبس بالموضوعية العلمية التي تحمله على الانتصار لها، وإنما هناك ثمة دوافع ومحركات تقف خلف هذه الأفكار والآراء.

ومن ذلك الحين وأنا أعتبر مسألة **(محركات الأفكار)** من الأهمية بمكان في هرم المنهجية العلمية لقارئ أفكار الاتجاهات وآراء المذاهب والنحل، ومن ذلك الحين حملت على عاتقي همة التأصيل لهذه الفكرة التي تبحث في القبليات والبواعث والدوافع والمحركات التي تنشأ عنها الأفكار والآراء والمواقف الفكرية، واليوم بعد مرور تلك السنوات أقدم للقارئ الكريم عصارة الجهد ومبلغ الهمة، وهي هذه المادة التي كانت في الأصل بحث لنيل درجة الدكتوراه بعنوان **(دوافع الأفكار وآثارها الثقافية) في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. فالحمد لله على بلوغ المرام.**

وفي ذلك فإن الناظر بعين البصيرة في الفضاء الفكري المعاصر، والباحث المطلع على سير الأفكار في الأمم والشعوب السالفة، يُثير مدارك عقله هذا الكم والكيف من الأفكار الذي يبعثه للبحث في أساسها وينبوعها ومصدرها في أعماق العقل البشري ومحركاته في مكامن النفس البشرية، فمثلاً: يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ الله في محاولة للتنقيب عن الدافع الحقيقي لعابد الصنم بقوله: «**وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى**»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين، تأليف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ). الناشر: دار المعرفة ـ بيروت. طبعة سنة: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. (١/ ١٢٧).

وهنا نجح الإمام الغزالي في رصد أهم الدوافع التي شكلت اعتناق الفكرة العقدية عبادة الأصنام وهي **ميل النفس إلى المألوفات**.

ولأن البحث في جذور الأفكار والتنقيب عن أصول الاختيارات العقلية في عمومه بحثٌ شيق تتوق له نفس الباحث ويتطلع السائر في ثناياه إلى جمع ما يسعه وما يقع بين يدي معرفته من الدوافع والعوامل والمؤثرات التي أنتجت الفكرة يوم أن تجسدت في عقل قائلها؛ كان لزاما على قارئ الأفكار تقديم نتائج هذا التطلّع.

فقد اعتمدت في تقرير الشواهد والنماذج من التاريخ الإنساني والإسلامي على أحد المسالك:

- أن أعتمد على قول وتصريح صاحب الفكرة في تحديده لدافعه من قناعته أو تصريحه بهذه الفكرة.
- أن أعتمد على التحليل القائم على الاستدلال والربط بين أقوال وتصريحات صاحب الفكرة والأخذ بالمقتضيات والقرائن.
- أن أعتمد على تقرير أو شهادة من رواية أهل العلم وعلماء السلف المعتبرين في بيان دوافع الأفكار.
- أن أعتمد على تحليل صحيح سبقني إليه أحد من المعاصرين في الأفكار المعاصرة، وفي التاريخ لأهل العلم وعلماء السلف المعتبرين.

أقدم هذا البحث لكل قارئ سابرٍ للأفكار، أن يُعطي لمحرك الفكرة اعتباراً في حكمه وفحصه، وأسأل الله أن يكون هذا الجهد لبنة في بناء التصور للخطابات الفكرية وروادها لأهمية هذه المحركات وحقيقة تأثيرها.

وأحسب أني بذلت وسعي في طلب مظان الدراسة وتأصيل المحركات وتحرير وقائعها وشواهدها، وأسأل الله بمنه وفضله أن أضع بين يدي القارئ شيئًا يزيد من وعيه وفكره وعلمه، وأسأله ﷻ أن يجعل من هذا البحث علماً يُنتفع به بعد الممات، وأشكر كل من ساهم في هذا الجهد من مراجعة علمية

من أساتذة فضلاء وأصدقاءٍ أوفياء أكن لهم كل تقدير ومحبة وامتنان، وأقارب شاركوني الفكرة والصياغة، جزاهم الله جميعاً كل خير.

وختاماً: فهذا جهد المقل، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه.

المحركات النفسية

المحرك الأول: الهوى.

المحرك الثاني: الكبر والحسد.

المحرك الثالث: العواطف والمشاعر.

المحرك الرابع: الفتور والكسل.

المحرك الخامس: الوازع الإيماني.

المحرك الأول

الهوى

«من تتبع مناظرات الفرق الإسلامية وما تحتج به كل فرقة منها، وترد ما يخالفها من الأدلة أو تتأوله عرف ما للهوى من عظمة السلطان، على أن كثيراً من أولئك المتأولين التأويلات التي لا يشك البريء من الهوى في بطلانها هم ممن ثبتت معرفته وأمانته وأنه لا يتعمد الباطل، ولكن الهوى أعماه وأصمه فقاتل الحق وهو يظن أنه يقاتل عن الحق»

الإمام المعلمي

المقصود من محرك الهوى

المراد والمقصود من كون الهوى محركاً للمرء في اعتناقه لأفكاره، **أن تكون الفكرة أساسها حاجةً في نفس المرء ودواخله؛ حيث تكون هذه الفكرة تشبع هذه الحاجة النفسانية فيه**، وبذلك تكون القناعة بالفكرة ليس لذاتها حقاً كانت أو باطلاً اقتربت من الأول أو ابتعدت عنه، بقدر أنها أشبعت حاجة في دواخل قلبه ونفسه، وهذا المحرك هو أصل المحركات النفسية النابعة من الإنسان، فالهوى بوابة المحركات وأساس البواعث الشخصية، وكل ما يلي من محركات ناتج عن استجابة للهوى وخضوع له، فهو المظلة الجامعة لبقية المحركات.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله: «**والأهواء هي إرادات النفس بغير علم، فكل من فعل ما تريده نفسه بغير علم يُبين أنه مصلحة فهو متبع هواه، والعلم بالذي هو مصلحة العبد عند الله في الآخرة هو العلم الذي جاءت به الرسل**»[1].

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥/ ٣٣٠).

وللنوازع النفسية وخوالج الهوى حضورٌ في عالم الأفكار والمعتقدات لا يمكن إهماله وإبطاله، ويكاد من الصعب على الفاحص للحالة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي أن يتجاهل أو يقلل من تأثير الهوى على الأفكار والمعتقدات والآراء.

ولذلك توّج الإمام ابن الجوزي كتابه (ذم الهوى) والذي هو منارة في هذا الباب وكتابه (صولة العقل على الهوى)، بحضور محرك الهوى في مضمار الأفكار والآراء وأنه أساسُ أفكارٍ إن لم يُردع الهوى قبلها أنتجها وكانت ثمرته، قال رحمه الله: «**أن النفس مجبولة على حب الهوى....، فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة، ومتى لم تُزجر عن الهوى هجم عليها الفكر في طلب ما شغفت به، فاستأنست بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأماني العجيبة..**»[1].

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق الخلاف العقدي والمذهبي في المسائل الشرعية وكون أن الهوى يصيب أحدهم حتى يخرج بأفكار ومعتقدات أبعد ما تكون نتائجها عن الحق والصواب لولا توغل تأثير محرك الهوى في العقول والأفئدة، بقوله رحمه الله: «**وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة، إذ كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وأنه على السنة، فإن أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نسب إليهم، لا يقصدون أن تكون كلمة الله في العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيء القصد، ليس له علم ولا حسن قصد فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمد الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير مولاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله**»[2].

---

(١) كتاب ذم الهوى، للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي، (٥٩٧هـ)، تحقيق: أيمن البحيري، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية. ص١٦.

(٢) منهاج السنة (١/ ٢٥٥).

وأسند رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر مصدرَ ضلال الطوائف البدعية حيث يقول: «كما يجري مثل ذلك لأهل الأهواء، كالفلاة في بعض المشايخ، وبعض أهل البيت، وبعض العلماء وبعض الملوك، **وبعض القبائل وبعض المذاهب، وبعض الطرائق، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم**»[1].

وفرق بعضهم بين الهوى والشهوة في مناط التأثير، فقال: أن «**الفرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة والمدلول، فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة بنيل اللذة**»[2].

تأثير محرك الهوى في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

يمكن توضيح علاقة التأثير والحضور أكثر بين الهوى والحالة العلمية والفكرية على الصعيد العام من ناحية، وعلى الصعيد الخاص للأفكار والآراء والمعتقدات الشخصية من ناحية أخرى، من خلال ما يلي:

١ ـ أن لهوى النفس حضور في التركيب الإنساني لا ينفك عنه كل البشر، فإذا كان عدم انفكاكه عن المرء في ذاته فما بال الشأن العام في الأفكار والمعتقدات، ولذلك كان يُختبر صدقُ الرجلِ في فكرته بمعتقدِه الذي يخالف هواه أياً كانت صحة هذا المعتقد من فساده، وارتباط هوى النفس في آدمية الإنسان من المعلوم من الخلق بالضرورة.

ولذلك عرف بعضهم الهوى بأنه: «**جوهر النفس، لأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق من تراب، فكان الهوى هو عنصره الذي فيه جوهريته الترابية، فكانت تلك الترابية متشعبة في النفس...، فسمي هوى لأنه تهوى به النفس، والنفس تهوى بالقلب،**

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ابن تيمية الحراني الدمشقي (٧٢٨هـ). تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد. الناشر: دار العاصمة ـ السعودية. الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. (٣/١٧٨).

(٢) أدب الدنيا والدين ص٣٣.

والقلب يهوى بالأركان إلى العقل، والعقل يهوى بجميع الجسد»[1].

وكان حضور هذا المحرك في الفضاءات السجالية ومعارك الأفكار وساحات الخلاف حتى على أهل العلم والتقوى قويًا، مما يؤكد ارتباط الهوى بآدمية الإنسان، وبموطن امتحان الشارع له في ذلك، وقد تقرر فلسفياً أن الإنسان في طبيعته ميالٌ لهواه، وأن انقياده للأهواء جزء لا يتجزأ من آدميته[2].

ومنه ما أقره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول: «**ومما يتعلق بهذا الباب أن يُعلمَ أن الرجل العظيم في العلم والدين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوعٌ من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوعٌ من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين، ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تُعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، وكلا هذين الطرفين فاسد، والخوارج والروافض وغيرهم من ذوي الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا»**[3].

٢ ـ محصول التجربة السجالية العلمية وتقرير أصحابها في أن الهوى له حضور في الآراء والأفكار وعموم الحالة العلمية، وهو أبرز الموضحات في هذه العلاقة والتأثير، فالقارئ لما سطره ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي والشاطبي وغيرهم ـ رحمهم الله ـ في ثنائية العلم والهوى يدرك مدى تأثير هذا المحرك وحضوره في المشهد العلمي والمسائل المعرفية والإدراكية.

---

(١) أدب النفس، تأليف: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (٣٢٠هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، الناشر: الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ص١١٤ وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، تأليف: يوسف بطرس كرم (١٩٥٩م)، الناشر: مكتبة الدراسات الفلسفية ـ لبنان. الطبعة الخامسة. ص٣٠٩.

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥٤٣/٤).

ومن ذلك ما قاله الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «**رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من الغيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول، فبحثت عن سبب ذلك فوجدته من شيئين: أحدهما: العادة، والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه قد يغلب فلا يترك سمعاً ولا بصراً..**»[1].

ويقول في موطن آخر عن نتيجة استغراق الهوى في الحالة العلمية وفي الأفكار والآراء: «**ثم تأملت العلماء، فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى، ويستخدمه، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه، ويقبل على ما ينهاه**»[2].

ولذلك خرج شيخ الإسلام ابن تيمية بنتيجة بعد إدراكه حال السجال العلمي ومدى تأثير الهوى وحضوره فيه فيقول أن: «**اتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**»[3].

وفي موضع آخر يبين شيخ الإسلام مدى تأثير الهوى على الحالة العلمية العامة وأن محرك الهوى يخلق فضاءات فكرية وعلمية قائمة على هذا الأساس والشأن وأنه أبعد ما يكون الأمر متعلق بذات الفكرة وصحتها أو المعتقد وصلاحيته أو المنهج وصوابيته أو أن يكون الدليل الشرعي له علاقة بالمعيار العلمي.

يقول رحمه الله: «**ولهذا تجد قوماً كثيرين يُحبون قوماً ويبغضون قوماً لأجل أهواء لا يعرفون معناها ولا دليلها، بل يُوالون على إطلاقها أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ وسلف الأمة ومن غير أن يكونوا**

---

(١) صيد الخاطر ص١٩٣ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص٧٠.

(٣) الاستقامة، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ، (٢/ ٢٢٣).

هم يعقلون معناها ولا يعرفون لازمها ومُقتضاها. وسبب هذا إطلاق أقوال ليست منصوصة وجعلها مذاهب يُدعى إليها ويُوالي ويُعادي عليها»[١].

ومن ذلك نشأ الخلاف العلمي الذي منبعه الهوى لا أقل ولا أكثر من ذلك وإن تدثرَ أصحابُه بالدليل الشرعي والحجة الشرعية في المسائل والقضايا.

وهذا ما دفع الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ **أن يبوّب فصلاً في الموافقات عن حقيقة الخلاف العلمي الناشئ عن الهوى الخفي**، وأن أقوال أصحابها في الخلافات العلمية غير معتبر وغير معتد به، ومن شدة تأثير الهالة العلمية والطلاء المعرفي على حالة الهوى في الأقوال والآراء أورد رَحِمَهُ اللَّهُ سؤالاً منهجياً في عدم اعتبار هذه الأقوال وقد راجت في الكتب ونقلها العلماء حيث يقول مستفهماً: «**فإن قيل: هذا مشكل، فإن العلماء قد اعتدوا بها في الخلاف الشرعي، ونقلوا أقوالهم في علمي الأصول، وفرعوا عليها الفروع، واعتبروهم في الإجماع والاختلاف، وهذا هو الاعتداد بأقوالهم**»[٢].

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بأكثر من وجه، منها: عدم التسليم بالاعتبار، وإنما كان الايراد للتحذير من الأقوال المبتدعة، ومنها: أنه قول معتبر من جهة غير هذه الجهة أي الهوى وأصحابه وكونهم شاركوا أهل الحق بالأخذ بهذا الرأي والقول[٣].

والحاصل أن هذا التدقيق الشاطبي للخلاف العلمي والفحص المنهجي الذي أجراه للحالة السجالية ينبئ عن تغللٍ لمحرك الهوى في الفضاء العلمي الشرعي من الصعب تجاوزه وعدم اعتبار حضوره وتأثيره.

٣ ـ أن القارئ الفاحص للسجالات العلمية في التراث الإسلامي بين الطوائف الحقة من أهل السنة والجماعة وبين الطوائف المبتدعة يدرك أنّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٣).

(٢) الموافقات (٥/ ٢٢١).

(٣) انظر: المرجع السابق (٥/ ٢٢٢).

للهوى حضوراً في تلك السجالات رغم أنها في إطار المسائل العقدية والمنهجية والقضايا الفكرية.

حيث إن عبارة (**أهل الأهواء**) منتشرة في كتب العقيدة انتشاراً واسعاً وذلك لقوة تأثير المحرك في الحالة العلمية، فكم ذكر أهل العلم الطائفة العقدية ثم وصموها بأنها من أهل الأهواء ومن تبعهم.

كأن يقال ـ على سبيل المثال ـ «**وذهبت المعتزلة ومن تبعهم من أهل الأهواء..**»[1] ويكون ذلك في سياق عقدي علمي لا علاقة لحظوظ الشهوة فيها إلا عن طريق الهوى وسطوته على علم وعقل صاحبه.

وفي سياق ذكر الطوائف العقدية والعقلية يكون ذكر أصحاب الهوى، فيقال مثلاً: «**كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء..**»[2].

وقد قرر هذه التسمية التراثية شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق الطوائف العقدية وتدثرها بالقوالب العلمية عن حقيقة محرك الهوى في النفوس فقال: «**ولهذا كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ويذمونهم بذلك ويأمرون بألا يغتر بهم ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج أو العبادة والأحوال**»[3].

وكشف الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سبب هذه التسمية وهذا الإطلاق في سياقات العلم لأنهم «**قدّموا أهواءهم على الشرع، ولذلك سموا في بعض الأحاديث وفي إشارة القرآن (أهل الأهواء) وذلك لغلبة الهوى على عقولهم واشتهاره**

---

(١) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تأليف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي، الملقب: بإمام الحرمين (٤٧٨هـ)، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: عالم الكتب ـ لبنان. الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص١١٠.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ، (٣/ ١٣٧).

(٣) الاستقامة (١/ ٢٥٤).

فيهم، لأن التسمية بالمشتق إنما تطلق إطلاق اللقب إذا غلب ما اشتُقت منه على المسمى بها»[1].

فالمتتبع للسجالات العقائدية والمجادلات العقلية في التاريخ الإسلامي يدرك حجم تأثير وحضور الهوى في الفكر والآراء.

وهذه نتيجة وصل إليها سابر النحل والملل وعارف حججها الإمام عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] حيث قال: «**من تتبع مناظرات الفرق الإسلامية وما تحتج به كل فرقة منها، وترد ما يخالفها من الأدلة أو تتأوله عرف ما للهوى من عظمة السلطان، على أن كثيراً من أولئك المتأولين التأويلات التي لا يشك البريء من الهوى في بطلانها هم ممن ثبتت معرفته وأمانته وأنه لا يتعمد الباطل، ولكن الهوى أعماه وأصمه فقاتل الحق وهو يظن أنه يقاتل عن الحق**»[3].

٤ ـ امتحان أهل العقول والأفهام بدواعي الأهواء وتأثيرها، حيث إن أهل الأفهام وأصحاب الفكر والعقل جعلوا من هوى أنفسهم عدواً لدوداً في هذا المضمار العقلي، وجعلوا من الهوى لصاحبه كأنهما على فرسي رهان في مطاوعة أحدهما للآخر وتأثيره فيه وتطويع سجاياه عليه.

فكم أُمتدحَ صاحب عقلٍ بأنه صفا من دواعي هواه، وكم تغنى بعضهم بحقر هوى نفسه أمام تعزيز معتقده وفكره، وكل ذلك نذير صلة لا تنفك بين الهوى وحضوره في ميادين الفكر والمعتقدات.

---

(١) الاعتصام (١/ ٢٥٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي، نسبته إلى بني المعلم من بلاد عتمة باليمن، ولد ونشأ فيها وتردد إلى بلاد الحجرية (وراء تعز) وتعلم بها، سافر إلى جازان في إمارة محمد الإدريسي، وسافر إلى الهند، ثم عاد إلى مكة وعين أميناً لمكتبة الحرم المكي إلى أن شوهد فيها منكباً على بعض الكتب وقد فارق الحياة، ودفن في مكة، وله من التصانيف (طليعة التنكيل ـ والأنوار الكاشفة ـ وكتاب العبادة ـ وكتاب الإكمال) وغيرها ولد ١٣١٣هـ وتوفي في ١٣٨٦هـ. (الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٢).

(٣) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، اعتنى به: مجموعة من الباحثين. إشراف: د. علي بن محمد العمران. الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ. (٢/ ٢٤).

«فلما كان الهوى غالباً وإلى سبيل المهالك مورداً جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً يُلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفي. ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذُ أحكام الهوى عليه»[1].

وقد جعل بعضهم من الهوى آفة العقل ومصابه، ولذلك قيل: **«وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا»**[2].

ينقل هذه الثنائية بين الهوى والعقل ببراعة في تسلل الهوى إلى ميدان العقول والأفهام الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول في وصف هذه المعركة: **«ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن ممحركته»**[3].

ولحسن وعي الإمام الغزالي في هذه المسألة واستحضار امتحان النفوس المؤمنة في العبادات وأحكامها وحضور الهوى وحظوظ النفس فيها، وتحقق معاني العبودية للمسلم في اعتبار الهوى وتجاوزه، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفريق بين الأحكام التي يُمتحن بها ميل النفوس من عدمه بقوله: «فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٠.

(٢) الاستذكار، تأليف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (٤٦٣هـ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م. (٢/ ٣٦٤).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٧).

إليه ميلاً ما فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد. . .، **وإذا اقتضت حكمة الله ﷻ ربط الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد**»[1].

من شواهد محرك (الهوى) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

وشواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي كثيرة ومتعددة، لكن حسب الباحث المحقق أن يتحقق من مظهر وتداعي حضور الهوى في المجال الفكري من عدمه.

يقول الشاطبي رحمه الله عن الحكم على الأفعال والآراء والأفكار وأن أساسها الهوى: «**أنها راجعة في المعرفة بها إلى كل أحد في خاصة نفسه، إلا أن يكون عليها دليل خارجي**»[2].

وعلى هذا الدليل الخارجي وقرائنه عمد السابرون للأفكار السائرون في فحص الآراء وتقويم السلوك الفكري عليه.

ومن ذلك ما وقع من خلاف في مسألة أصولية تخص علم الحديث وهي مسألة (**الاحتجاج بخبر الآحاد**) وما وضعه العلماء من شروط لاعتباره والاحتجاج به، فهذه المسألة كان فيها حضور حظوظ النفس بين وواضح، وهو منزلق للأفئدة وممتحنٌ للقلوب والأنفس، فعدم قبول خبر الآحاد في مسائل التشريع والأحكام ليس بذاته من قبيل الهوى وإنما الغرض منه أو مبتغى القائل فيه، ويحصل ذلك حين لا يكون هناك اطراد في الأخذ بالقول الأصولي في عدم اعتبار خبر الواحد في فروع الأحكام والعقائد.

وقد برع الإمام الموفق ابن القيم رحمه الله في كتابه الصواعق المرسلة في بيان جملة من الآراء والطوائف تجاه هذه المسألة حتى بين أن من الطوائف

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٦).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٢٣٥).

من «**ردت أخبار الصحابة كلهم إلا ما كان من أخبار أهل البيت وشيعتهم خاصةً، وهذا مذهب الرافضة، فلم يقبل هؤلاء قول أبي بكر وعمر وعثمان،**

وطائفة... ردت أخبار المُقتتلين يوم الجمل وصفين، وقبلت خبر غيرهم قالوا: لأنه قد فسق إحدى الطائفتين وهي غير معينة فلا يقبل خبرها ويُقبل خبر غيرها...،

وطائفة.. ردوه إذا كان الراوي له من الصحابة غير فقيه بزعمهم وقبلوه إذا كان فقيهاً، وبمثل ذلك ردوا رواية أبي هريرة إذا خالفت آراءهم، قالوا: لم يكن فقيهاً، وقد أفتى في زمن عمر بن الخطاب وأقره على الفتوى، واستعمله نائباً على البحرين وغيرها، ومن تلاميذه عبد الله بن عباس وغيره من الصحابة، وسعيد بن المسيب وغيره من التابعين،

قال البخاري: روى العلم عنه ثمان مائة ما بين صاحب وتابع، وكان من أعلم الصحابة بالحديث وأحفظهم له، وكان قارئاً للقرآن، وكان عربياً، والعربية طبعه، وكان الصحابة يرجعون إلى روايته ويعملون بها، نعم كان فقهه نوعاً آخر غير الخواطر والآراء»[1].

واسترسل رَحِمَهُ اللهُ في بيان من رد خبر الآحاد من الطوائف البدعية وكون أصل خلافهم ليس الجانب العلمي، وأن اطرادهم في هذا الأمر والاختيار العلمي إنما هو من قبيل الهوى وما تميل إليه نفوسهم من اعتبار قبول هذا الحديث المروي من الواحد أو رده وعدم قبوله.

ولذلك كانت هذه المسألة في التراث الإسلامي مزلقاً للنفوس، ومناط لتصحيح القلوب وإلجامها، وكون عدم الاطراد فيها ليس أمارة علمية وإنما هو دليل اتهام أو بطلان.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (٧٧٤هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة ـ مصر. الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ ـ ٢٠٠١م. ص٦٠٥ ـ ٦٠٧.

حتى إن الشيخ عبد الرحمن المعلمي رَحِمَهُ اللهُ رسم طرائق محاكمة النفس في هذه المسألة وبين حسن سير المسلم في محاولة فصل هواه في سياق مسألة خبر الواحد، وعدم فحص رؤيته تجاهها.

فيقول: «**فحقك إن أردت الله والدار الآخرة أن تقوم للحق على نفسك، فتتدبر حجة الأشاعرة، فإذا وجدتها ليست بالقاطعة فرضتَ مسألة أخرى قد ذهب إليها الأشاعرة وخالفهم غيرهم، وليست حجة الأشاعرة بالقاطعة، ولكنهم احتجوا بحديث، فنظرت في رواية ذلك الحديث، فإذا هو من رواية ذلك الرجل أو مثله، ثم وازن بين حاليك: حالك وأنت تنظر في حال ذلك الرجل بسبب روايته الحديث المخالف للأشاعرة، وحالك وأنت تنظر في حاله أو في حال نظيره بسبب روايته للحديث الموافق للأشاعرة. فإذا وجدت نفسك تميل إلى توهينه في الأولى وتثبيته في الثانية، فاعلم أن لهوى نفسك تأثيراً عليك، فاعرفه وجاهد نفسك، فإن لم تستطع فعلى الأقل ينبغي أن تكف نفسك عن الكلام في مثل ذلك**»[1].

فشاهد الحال العلمي في الواقع التراثي الإسلامي أن مسألة (**قبول خبر الآحاد والاشتراط فيه**) لها حظها في حضور محرك الهوى وأغراض النفوس وتطلعاتها في الجانب العلمي والخلاف الظاهر الفكري والعقدي.

---

(١) آثار الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (١٩/ ١٣٨).

الاعتبار الشرعي لمحرك الهوى

إن المتتبع للنصوص الشرعية من كتاب وسنة يدرك حجم التأكيد على أهمية معالجة الهوى وكيفية التعامل معه، واعتباره في التأثير على الجانب العبادي والإيماني من جهة والجانب العقدي والفكري من جهة أخرى، ويمكن أن أبين هذا التناول الشرعي وكيف اعتبرت الشريعة الإسلامية الهوى محركاً للمرء في الجانب العقدي والفكري فيما يلي:

١ ـ **الوصف الشرعي لبعض الآراء العقدية بالأهواء**، في إشارة إلى تأثير وحضور محرك الهوى حتى أصبحت تسمية الرأي والخلاف العقدي بأنه هوى في ذاته، وذلك أن المحرك طغى على ذات الفكرة والمعتقد حتى أصبح يسمى باسمه، كما بين الله سبحانه وتعالى في وصف اليهود والنصارى لعقائدهم أنها أهواء، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٠].

فالخلاف بين اليهود والنصارى وبين الرسول ﷺ خلافٌ عقائدي ومنهجي في المقام الأول غير أن الله عز وجل وصف ذلك المعتقد المحرف والفكر المخالف للفكرة الإسلامية أنها من الهوى بل الهوى ذاته، وأن ليس للرأي والعقل والفكر شيء من ذلك وإنما هو حصاد النفوس لأهوائها.

والشواهد القرآنية في وصف الآراء العقدية والأفكار المخالفة للفكرة الإسلامية بالهوى كثيرة ومتكررة منها قوله تعالى في سياق مفاصلة بين الحق والباطل في المنهجية وأساس الحكم والتحكيم والتشريع، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٤٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «**ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمون أهل الأهواء وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ**»[1].

٢ ـ التحذير الشرعي المتكرر في السياقات العلمية والعقدية من اتباع المرء هواه، حيث إنه جاءت الآيات الكريمة في أكثر من موضع للتحذير من الهوى ليس ذلك في سياق الوعظ والحذر من الشهوات وإنما في سياق عقائدي، بأن يكون التحذير من هوى المرء في السياق العقدي، أو أن يحذر من أهواء المخالف له في جانب الخلاف العقائدي والديني.

من ذلك قوله تعالى ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشّورىٰ: ١٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «**فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه، وأن يستقيم في نفسه، كما أمره، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق**»[2] وكذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجَاثيَة: ١٨].

والآيات القرآنية لذم الهوى في السياق العقائدي متكرر وملحوظ، إشارة إلى أن حضور محرك الهوى في الجانب العقدي ومدى تأثيره على الأفكار والآراء أمرٌ لا يستهان به في الرؤية الشرعية، ولذلك كان التغلب عليه نوع من

(١) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٢٢٥).

(٢) بدائع التفسير (٤/ ١١٥).

أنواع الجهاد بل أفضله، وهو مصداق حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «**أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه**»[1].

٣ ـ جعل الشريعة الإسلامية الهوى أمام الحق في المقارنة والتأثير، حيث بينت الآيات الكريمة والسنة المطهرة أن أناساً يردون الحق لتلبية أهوائهم، لذلك كان أيقونة للضلال أمام الحق، وفي ذلك ما ذكره الله تعالى بحق رسوله ﷺ وفي سياق تصديقه وبيان فضله على الأمة وبني البشر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النّجم: ١ ـ ٤]، «أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض إن هو إلا وحي يوحى أي إنما يقول ما أُمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان»[2].

وكذلك على صعيد التحكيم الشرعي والحق والباطل وحكم الإسلام أمام حكم الجاهلية، جاء الهوى في معسكر الباطل والجاهلية أمام معسكر الحق وما جاء به رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المَائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

«**فأخبر ﷻ أنه ليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى الذي يضل عن سبيله وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول هي قضايا الهوى وأحكام الجاهلية وإن سماها أربابها بالقواطع العقلية والبراهين اليقينية كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقا**»[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٤٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (١٠٩٩)، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٨هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٤١١).

(٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد =

ولذلك وصف الله حقيقة آرائهم لرسوله ﷺ فقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القَصَص: ٥٠]، وأمام ثنائية الحق أو الهوى تقف الوصية الربانية لنبي الله داوود في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦]، يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فحَصَرَ الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى**، وعزلَ العقل مجرداً إذ لا يُمكن في العادة إلا ذلك»[(١)].

٤ ـ اعتبار الشريعة الإسلامية للهوى كونه صنماً يُعبد من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ إن استحضار هذا التصور في العقلية الإسلامية بحد ذاته اعتبارٌ لقوة تأثيره في المعتقدات والآراء والأفكار.

فالمعاني المصاحبة لتنصيب الصنم من الاستعباد وطقوس العبودية تجاه ما يُعبد، كل ذلك تكريس ذهني في سطوة الهوى على العقل وقوة تأثيره وحضوره في المسائل العقدية والقضايا العقلية وميادين الأفكار.

قال عبد الله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**الهوى إلهٌ يُعبد من دون الله. ثم تلا قوله تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثيَة: ٢٣]»[(٢)]، «فصاحب الهوى يأمره هواه ويدعوه فيتبعه كما تتبع حركات الجوارح إرادة القلب ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [المَائدة: ٧٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القَصَص: ٥٠] وهذا يعم الهوى في الدين كالنصارى وأهل البدع في المقال والقدر، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء: من الرافضة والخوارج **وهذا الهوى موجود في كثير من الفقراء والفقهاء إلا من عصمه الله**»[(٣)].

= شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. الناشر: دار العاصمة ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ. (٣/١٠٤٦).

(١) الاعتصام للشاطبي (١/٦٨).

(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٩.

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٣٢).

ولذلك كانت معاني الاتباع والانصياع في سياق العبودية متحققة في العقلية الشرعية لمن كان الهوى محركا له في أفكاره ومواقفه العلمية وآرائه العقدية، فاتباع الهوى كأن يكون صنماً أو غيره من المعاني المركبة يجعل من إدراك حجم تأثيرها ومدى سطوتها على صاحبها.

وقد برع الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام حين صاغ الإجابة عن كيف يهيمن الهوى على المبتدع في الدين والإسلام، وبيّن قوة انصياع العقل والرأي للهوى في حال تمكنه من صاحبه، حيث يقول واصفاً المبتدع: «**فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضل في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة، لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله. وهذا هو الفرق بين المبتدع وغيره، لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع**، ومن شأن الأدلة أنها جارية على كلام العرب، ومن شأن كلامها الاحتراز فيه بالظواهر، فقلما تجد فيه نصاً لا يحتمل حسبما قرره من تقدم في عير هذا العلم. . .، فإذا غلب الهوى أمكن انقياد ألفاظ الأدلة إلى ما أراد منها. **والدليل على ذلك أنك لا تجد مُبتدعاً ممن يُنسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي، فيُنزله على ما وافق عقله وشهوته، وهو أمرٌ ثابتٌ في الحكمة الأزلية التي لا مرد لها**»[١]

(١) الاعتصام (١/ ٢٣٥).

المحرك الثاني

الكبر والحسد

«الحسد خلق ذميم، ومع الأسف أنه أكثر من يوجد بين العلماء وطلبة العلم، ويوجد بين التجار فيحسد بعضهم البعض...، ولكن مع الأسف أنه بين العلماء أشد وبين طلبة العلم أشد مع أنه كان الأولى والأجدر أن يكون أهل العلم أبعد الناس عن الحسد وأقرب الناس إلى كمال الأخلاق»

الشيخ ابن عثيمين

أولاً: الكبر

المراد والمقصود من (**محرك الكِبر**) هو: **العظمة والزهو والعلو البشري الذي يدفع الإنسان إلى القناعة بالفكرة أو الفكرة المضادة. إذ إنّ بعضاً ممن رفض الأفكار واستنكرها هو في حقيقته كِبرٌ استقر في دواخله فأنتج هذا الرأي المخالف وهذا الموقف الرافض المعاند**، وليس شيئاً متعلقاً بالفكرة وتفاصيلها سواءً كانت علمية أو غيرها ـ كما ستأتي شواهد ذلك ـ.

قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعرَاف: ١٤٦] أي: «**أنهم يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه لا تكون إلا لله خاصة، لأن الله ﷻ هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله وذلك الذي يستحق أن يُقال له المتكبر، وليس لأحد أن يتكبر، لأن الناس في الحقوق سواء، فليس لأحد ما ليس لغيره.**

وقيل: إنّ يتكبرون هنا من الكِبَرِ لا من الكِبْرِ، أي يتفضلون ويرون أنهم أفضل الخلق...، **فالكِبْرُ: حالةٌ يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه أكبر من غيره، وأعظم الكِبْر التكبر على الله بالامتناع عن قبول**

الحق»[1]، «وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام، وإلى غيره بعين الاحتقار والذل»[2].

فالكِبْرُ حالة تعتري الإنسان لتحول بينه وبين الأفكار والآراء والمعتقدات، وتكون هذه الحالة كذلك مثار للأفكار في عقلية المستكبر عن الآراء المقابلة له، فهذه الحالة تكون محركاً لنشوء الأفكار في عقليته وبدون هذه الحالة قد لا يكون لهذه الأفكار وجود وحضور في عقلية صاحبها فضلاً عن وجودها في الفضاء الفكري العام.

تأثير داء الكبر في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

المتأمل في حالة الكبر التي تطفو على مزاجية الإنسان وشخصيته يدرك وغولها في معامل العقل وتأثيرها على الأفكار وبنائها من أكثر من وجه، ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

١ ـ أن الحالة القلبية للمستكبر لا يستقيم أمرها مع الحال والشأن الفكري والعلمي والموضوعي، فالعقل إن طغى عليه حالة قلبية ومزاجية يعلوها الكبر والاستعلاء تصبح أبعد ما تكون عن المبتغى العلمي والغاية الفكرية، فلا يجتمع كبرٌ وعلم وفكر وحوار ومعرفة، فيُحرم حينها المستكبر المعرفةَ والعلمَ وثمرتَهما، «**فإن العلم حربٌ للمتعالي كما أن السيل حرب للمكان العالي**»[3].

ـ فعلى سبيل المثال ـ في المناظرة العلمية إذا أقبل عليها أحد الأطراف وهو يحمل في قلبه هذا المحمل من الكبر تتحول الغاية العلمية والفكرية من ذلك إلى غاية الإذلال المعرفي ونشوة الغلبة العقلية ولا تسأل حينها عن الموضوعية العلمية أو الأهداف الفكرية السامية.

---

(١) تاج العروس (٨/١٤ وما بعدها).

(٢) بداية الهداية، تأليف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ) تحقيق وتعليق: د. محمد زينهم محمد عزب، الناشر: مكتبة مدبولي ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ص٦٠.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٦٢٦).

يقول الغزالي رحمه الله **في مقاربة مخيفة بين الآفات الواقعة في الأجواء العلمية وبين شارب الخمر الذي يؤول حاله إلى القتل والزنا!: «اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذي خير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة»**(١).

وعلى غرار هذه المقاربات المخيفة ـ والتي بيّن علماء الإسلام عظم أثرها في أجواء الفضاء العلمي والفكري وعلى قلب العالم والعابد ـ، مقاربةٌ جاء بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: أن **«معصية الكِبر والعجب والرياء أعظم من معصية شرب الخمر، فالشارب الخاشع الخائف من ربه أقرب إلى رحمة ربه من الصائم المتكبر المعجب المرائي، فمن ظن أن الطاعة صور الأعمال فهو جاهل»**(٢).

إلى أن أوضح شيخ الإسلام أن من آفات المنشغلين في الواقع العلمي وآفة العلم هي الكِبر دون سواها، وأنه تغيب حقيقة العلم في حضور الكبر فلا يجتمع حالهما في نطاق زمان ولا مكان، يقول رحمه الله: **«وكثير من المنتسبين إلى العلم يُبتلى بالكبر كما يبتلى كثير من أهل العبادة بالشرك، ولهذا فإن آفة**

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٥).

(٢) الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق. تأليف: تقي الدين أبوة العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ. ص٦٥.

العلم الكبر وآفة العبادة الرياء وهؤلاء يحرمون حقيقة العلم كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]»[١].

٢ ـ النظرة الفوقية للأفكار التي تفضي إلى تجاهلها وتصاغرها، حيث تُحرم عقلية المستكبر من صحة النظر في الأفكار وفحصها، ويحرم من الاستنباط والمثاقفة، فيكون بذلك النقص والاكتفاء والانكفاء على ذاته، حيث إن احتقار الأشياء والأفكار وازدراءها جزءٌ لا يتجزأ من حال المستكبر.

وكما هو معلوم أن عالم الأفكار لا يمكن أن يعيش المرء فيه وهذه الحالة تعلوه، إذ هو فضاءٌ يستدعي المثاقفة والاستفادة من الآخر واعتبار رأيه، وحمله على أحسن حال وإعطاءه حجمه المناسب له، وهذا يتنافى تماماً مع حال المستكبر الذي أخلّ بميزان الأفكار ومعيار اعتبار حضورها وأهميتها فضلاً عن اعتبار قبولها أو رفضها.

وصفَ أفعال وتصرفات المستكبر في أجواء الفضاء الفكري والعلمي أبو حامد الغزالي بقوله عنه: أنه «إنْ حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً»[٢].

ولذلك صنف الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلاً بقوله: «**فصلٌ: الكبر والحسد يغطيان نور العقل**»[٣].

يقول الرازي في سياق حال المستكبر وفوقيته على الآراء من حوله: **«ومن بلايا العجب أنه يؤدي إلى النقص في الأمر الذي يقع بع العجب، لأن المعجب لا يروم التزيد ولا الاقتناء والاقتباس من غيره في الباب الذي منه**

---

(١) الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق. ص٢٠٧.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤).

(٣) صيد الخاطر، تأليف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، إشراف: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم ـ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م. ص٣٢٣.

يُعجب بنفسه، لأن المعجب بفرسه لا يروم أن يستبدل به ما هو أفره منه لأنه لا يرى أن فرساً أفره منه، والمعجب بعمله لا يتزيد منه لأنه لا يرى أن فيه مزيداً. ومن لم يستزد من شيءٍ ما نقص لا محالة وتخلف عن رتبة نظرائه وأمثاله»[1].

٣ ـ الاضطراب والتخبط النفسي للمستكبر، وذلك لأن المستكبر يكون في حال أقرب إلى الداء النفسي منه إلى الحال الطبيعي، فيتم التعامل معه في الأجواء العلمية والفكرية من هذا التصور والتعامل.

فإن الأفكار التي تنشأ من حالة نفسية لإشباع رغبة داخلية أو تخفيف لحالةٍ مستعصية هي أفكارٌ ـ وإن كانت ذات طابع علمي ـ لا يمكن أن يتم التعامل معها على أنها أفكارٌ نشأت من حالة صحية، سواءً في مناقشتها ومعالجتها أو في تطويرها وتهذيبها فضلاً عن رفضها وإبطالها.

والمتأمل لحال أصحاب الأفكار المعارضة لما جاءت به الرسل على مر الأمم والعصور يجد أنهم أقرب إلى إصابتهم بالمرض والداء النفسي في قلوبهم من أنه حال آخر، فالعلل التي احتجوا بها أو اشتراطات إيمانهم واتباعِهم ـ مثلا كإنزال الملائكة وغيرها ـ هي لا تخرج من أشخاص سليمي الحال والأمر، والحجج هي أقوى الأمارات والعلامات على حال وشأن صاحبها.

«ومن هذا الباب إنكار الكفار لبعثة الرسل، كانوا تارةً يكتفون بجعل البشرية علةً للإنكار كما ترى في سورة هود وإبراهيم والإسراء والمؤمنين ويس والقمر والتغابن، وتارة يصرحون بما في أنفسهم من الكبر واستثقالهم تفضيل الرسل على أنفسهم باتباعهم إياهم، وعلى هذا بنوا اقتراح نزول الملائكة عليهم مباشرة أو على الرسل مؤيدةً لهم»[2]، فهذا التخبط الاستدلالي امتدادٌ للحالة النفسية التي يعيشها المستكبر في دواخله أمام الأفكار التي يواجهها ويقف أمامها.

---

(١) رسائل فلسفية، تأليف: أبوبكر، محمد بن زكريا الرازي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة. الناشر: الآفاق الجديدة ـ بيروت. الطبعة الخامسة: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. ص٤٧.

(٢) تفسير المنار (٧/ ٢٦٢).

يوضح الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله هذا التخبط النفسي في قلب وعقل المتكبر في أجواء المناظرات وعالم الأفكار فيقول: «ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومنهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض»[1].

ثانياً: الحسد

المراد والمقصود هنا من **(محرك الحسد): هو تولّد الأفكار الناجمة عن تمني زوال ما امتلكه الآخر من النعمة والتفضل، بأن تكون الفكرة في أساسها ومنبع انطلاقتها هو شعور الحاسد تجاه من أمامه أو من هو المراد من هذه الفكرة.**

وقد تكون هذه الأفكار علمية ومتميزة في ظاهرها ويحمل صاحبها كل ما التزم في السياق العلمي من استدلالٍ وتوضيح وتأليف وإرشاد وتبيين؛ لكن ما إن يفتش المرء عن أمارات دواخله إلا أن يجد حسداً في قلب الحسود دفعه إلى ذلك السياق المزعم اتباعه.

يقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «الحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير، مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة، أو على مشاركة الحاسد»[2].

والحقيقة أن الساحة الفكرية والفضاء العلمي لا يمكنها أن تخلو من هذا المحرك المؤثر على الأفكار والأطروحات، لأنه من الأساس لا يخلو منه الإنسان حال انصياعِه لنفسه الأمارة بالسوء.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩).

وبذلك شرح ابن القيم رحمه الله مستقر هذا الأمر في دواخل الإنسان ما لم يأتمر بأمر الله تعالى بتركه والتغلب عليه في إقرار خلاف مقصده، يقول رحمه الله: أن «**الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله، وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن، قال: ما أنساك إخوة يوسف. لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك، وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياءً منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمني زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم**»[1].

فإمكانية حضور هذا الداء القاتل للنفس البشرية في الفضاء الفكري والعلمي ناصعة الوضوح، وعدم تنزيه الساحة من هذا المرض ليس من قبيل إساءة الظن وإنما هو من الاستلزام للحقيقة الإنسانية التي تعتري المهتمين في العلوم الشرعية والإنسانية والطبيعية كما تعتري غيرهم.

ومما لا بد أن يُعلم أن الحسد مرضٌ معدي بين أجهزة الجسم، ينخر في قلب صاحبه حتى يصل لعقله وأفكاره بل إنه يصل إلى جوارحه فلا يرى إلا بتلك الروح الحاسدة ولا يتفوه إلا بتلك اللغة الحسودة، ولا يزال يأكل فيه المرض ويشرب حتى يكون أبعد ما يكون عن العلم والفكر وأهله، فهو كما قال الجاحظ: «**الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو بابٌ غامض، وأمر متعذر، فما ظهر منه فلا يداوى،**

(١) بدائع الفوائد، تأليف: محمد ين أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ) الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان. (٢/ ٢٣٦).

وما بطن منه فمداويه في عناء»[1]، وكما قيل: «الحسد داء الجسد»[2].

تأثير داء الحسد على الفكر والعقل على الصعيد الشخصي للمرء وعلى الصعيد الفضاء الفكري العام:

١ ـ انحراف بوصلة الحاسد من المسألة العلمية إلى الشخص والشيء المحسود، فيصبح الحاسد لا يرى القول قبل قائله، ولا الرأي قبل مبديه، ولا المقالة قبل كاتبها، ولا الدليل والبرهان ـ والذي عليه المعول والسؤال ـ قبل أن يعلم عن حال المستدل والقائم عليه، وخلف هذا الانحراف تتنامى أفكارٌ وتتوالد من العدم العلمي والغياب المنهجي وإن تظاهرت بذلك، بل قد تنشأ الجماعات من الحسد من جراء انحراف بوصلة أشياخها من العلم إلى أشخاصه وحامليه، حتى يصبح أكبر ما يشغلهم من يرتفع بين الناس في علمه وسعة بصيرته، فيذهب الانكباب في الوقت والجهد إلى التنقيب في ذاته دون ما يطرحه من مسائل العلوم، وبعد ذلك لا يعلو في الأفق العلمي سوى المشاحنة والاقتتال الشخصي.

والحقيقة أنه ما قتل أجواء التعلم والتعليم الشرعي في الأمة إلا الحسد بين آحادها، **ف«كلما ظهرت آيات النبوغ في العلم، أو العمل في رجل منها قام الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ويتمنون ما فضله الله به عليهم، وإن لم يكن لهم مثل مواهبه وكسبه، يُبدلون حسناته سيئات، ويبغونه الفتن ويضعون له العثرات، يستكبرون نعمة الله عليه، ويحتقرون نعمته عليهم،** فلا يرونها أهلاً لأن تُدرك ما أدركه، ولكنهم يُصرون بألسنتهم ما استكبروه في قلوبهم وأدمغتهم، ويُعظمون بأقوالهم ما يحقرونه في اعتقادهم، يقولون: ما هو فلان؟ لا يعلم إلا كذا وكذا مما يعلمه الصبيان، وما هي أعماله التي تُذكر

(١) رسائل الجاحظ، تأليف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، الشهير بالجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي ـ القاهرة. سنة الطباعة: ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م. (٣/٣).

(٢) راجع: أدب الدنيا والدين، تأليف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة ـ القاهرة. سنة الطباعة: ١٩٨٦م. ص٢٧٣.

له؟ إنه ليقدر عليها كل الناس، أو إنه يقصد بها السمعة والرياء، أو ظاهرها نفعٌ وباطنها إيذاء، ولكن ما بالهم قد أصبحوا منه في شُغل شاغل؟، ولماذا حملوا أنفسهم عناء الكيد له والمكر به؟ ألم يروا شراً في الأرض يسعون في إزالته إلا عِأْمَهُ الناقص، وعَمَلَهُ النافع الذي يخشون احتمال ضرره، ألا محاسبٌ الحاسدون أنفسهم، فيتبين لهم أنهم يسيئون إليها أكثر مما يسيئون إلى محسوديهم؟ ألا يجدون لأنفسهم مصرفاً عن نار الحسد التي تطلع على أفئدتهم، قبل أن تأكل بقايا الرضا بقضاء الله وقدره، وقسمته الفضل بين خلقه؟»[1].

٢ ـ انتزاع أخلاقيات المثاقفة والتعلم وغياب أخلاق أهل العلم، لأن عرش الحسد لا يستقر بقلب صاحبه إلا على أنقاض أخلاقه وفضائله، فلا يجتمع في قلب المرء حسد وفضيلة أياً كان حاله.

فالحسد يأكل وينهش في صرح الفضائل حتى ينهكها، وما أصدق قول المصطفى ﷺ يوم قال: «**إن الحسد ليأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب**»[2]، فتصوير النهش في الصرح والأكل من الكل صورة واضحة المعالم في الشريعة الإسلامية لطبيعة الحسد وما يفعل بقلب صاحبه، قال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يُثبت ذلك لكم: أفشوا السلام بينكم**»[3]، فالحسود بقدر ما غزا الحسد قلبه ونفسه بقدر ما افتقد من الأخلاق والمحامد.

وصدق القائل يوم قال «**افتقدت الأخلاق فإذا أشدها وبالاً على صاحبها الحسد، فإنه التأذي بما يتجدد من نعمة الله فكلما تلذذ المحسود بنعم الله**

---

(١) تفسير المنار (٥/٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (١٥٧٩٤ باختلاف يسير، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (١٤) واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٠) واللفظ له، وأحمد (١٤١٢).

تعالى تأذى الحاسد وتنغص فهو ضدٌ لفعل الله تعالى ساخط بما قسمه متمنٍ زوال ما منحه خلقه»[1].

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «**الحسد خلق ذميم، ومع الأسف أنه أكثر من يوجد بين العلماء وطلبة العلم، ويوجد بين التجار فيحسد بعضهم البعض...، ولكن مع الأسف أنه بين العلماء أشد وبين طلبة العلم أشد مع أنه كان الأولى والأجدر أن يكون أهل العلم أبعد الناس عن الحسد وأقرب الناس إلى كمال الأخلاق**»[2].

٣ ـ عقوبات الحاسد وخسراتُه ومآلاتُ أمره لا تقوم معها قائمة علمية، ومن أبرزها هو مقت الله عَزَّ وَجَلَّ له ومقت الناس من حوله، فلا يمكن أن يكون الحاسد محبوباً بين الناس فضلاً عن أن يجعل الله له القبول بينهم؛ لأن في ذلك «**ترك الرضا بالقضاء وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند زوال النعمة عن أخيه، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء**»[3].

ومن حسرات ذلك أن يكون فكر الحاسد ينصرف إلى ما في أيدي الناس عما أنتجته أوعية عقولهم من نتاج علمي وفكري، وغيرها من تأثيرات الحسد على حامله وصاحبه مما لا يمكن أن يستقيم الحال العلمي والتنامي الثقافي معه.

صاغها الإمام الرازي في فحص دقيق بقوله: «إن الحسد مما لا لذة فيه، وإن كان فيه منها شيء فإنه أقل كثيراً من سائر الأشياء من اللذات، وهو مضر

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، تأليف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله (٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب ـ بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ. (١٠٣/١).

(٢) كتاب العلم، تأليف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، تحقيق: صلاح الدين محمود، الناشر: مكتبة نور الهدى ـ الرياض. ص٥٦.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، الدارمي البُستي، (٢٥٤هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. ص١٣٣.

بالنفس والجسد. أما بالنفس فلأنه يُذهلها ويُعزب فكرها ويَشغلها حتى لا تفرغ للتصرف فيما يعود نفعه على الجسد وعليها لما يعرض معه للنفس من العوارض الرديئة، مثل طول الحزن والهم والفكر. وأما بالجسد فلأنه يعرض له عند حدوث هذه الأعراض للنفس طول السهر وسوء الاغتذاء، ويُعقب ذلك رداءة اللون وسوء السَحنَة وفساد المزاج. وإذا كان العاقل يزُم بعقله الهوى ـ المقرب إليه الشهوات اللذيذة بعد أن تكون مما يُعقب مضرة ـ فأولى به وأولى أن يجتهد في محو هذا العارض عن نفسه ونسيانه..»[1].

من شواهد محرك (الكبر والحسد) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

إن كان من الشواهد على حضور محرك الكبر والحسد في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، فكل الشواهد والنماذج تأتي بعد رمزية التكبر والكبر والحسد وأصل الضلال في الإنسانية جميعاً (تكبر وحسد إبليس).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **«والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين وهما أعظم الذنوب التي عصى الله أولا فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه، ولهذا كان الكبر ينافي الإسلام كما أن الشرك نافي الإسلام فإن الإسلام هو الاستسلام وحده فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به، ومن لم يستسلم فهو مستكبرٍ كحال فرعون وملئه»**[2].

فالنماذج متعددة ومتنوعة في سياق تكبر أهل الضلال عن الحق، ومنه استكبار مشركي قريش على دعوة رسول الله ﷺ، وشواهد ذلك كثيرة جداً، ومن تأمل أغلب صور الضلال والزيغ وجد أن أصلها يعود إلى الاستكبار في النفوس والعقول[3].

---

(١) رسائل فلسفية ص٥٢.

(٢) جامع الرسائل، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم. الناشر: دار العطاء ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م. (١/ ٢٣٤).

(٣) سأتحدث لاحقاً في الفصل الثاني عن (تحرر العقل والاعتداد به).

وعن الواقع الثقافي المعاصر في العالم العربي، يجد الباحث أثر هذا المحرك على جملة من الأفكار والآراء، فلا ينكر أي فاحص للواقع أن من أعظم الأسقام التي تعتري المثقفين وحملة الفكر هو الاستكبار والنرجسية الفكرية التي تدفع بصاحبها إلى قناعاتٍ وآراء لولا هذا الاستعلاء المعرفي، فـ «**نرجسية المثقفين واحدة من هذه الأمراض التي تفتك بجسم الثقافة العربية، ونعني بها ما تعنيه عبارة النرجسية: حب الذات المرضي، ونحن نعثر في سجل المثقفين العرب على عدد هائل ممن أصابتهم هذه الحالة وتمكنت منهم إلى الحد الذي أضاعت عليهم فيه سبيل وعي ذاتي متوازن، أو طريق الانتماء الإيجابي إلى المجتمع الثقافي. بل تكاد لا تجد إلا نسبة قليلة منهم لم تعرف هذه الحالة المرضية طريقها إليهم!**»[١].

فإذا اعترت المثقف العربي المعاصر هذه الحالة بدأت معها سلسلة من العبث في الأفكار والآراء والنتاج المعرفي والثقافي، ومنها ـ على سبيل المثال ـ: «**إبداء الترفع والعجرفة في العلاقة بأصحاب المقالات الأخرى من المثقفين، والتعاطي معهم بالتجاهل والإنكار، واحتقار ما يصدر عنهم من آراء، أو حسبانها مما دون مستوى الاعتبار**»[٢].

ويمكن أن أذكر أحد أبرز الشواهد والنماذج على تأثير الحسد على منظومة المفاهيم والمعتقدات، هو نموذج (الضلال اليهودي عن عقيدة نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام).

وأعظم وأبرع من تناول هذا النموذج هو الإمام الموفق ابن القيم ـ رحمه الله وطيب الله ثراه ـ حيث يقول: «**وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد؟! فإنه لما رآه قد فُضل عليه ورُفع فوقه، غُص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة. وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى**

---

(١) نهاية الداعية (الممكن والممتنع في أدوار المثقفين)، تأليف: د. عبد الإله بلقزيز، الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر ـ بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق ص٥٨.

ابن مريم، وقد علموا علماً لا شك فيه أنه رسول الله جاء بالبينات، والهدى فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان، وأطبقوا عليه، وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء.

هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تُخالفها ولم يقاتلهم، وإنما أتى بتحليل ما حُرم عليهم تخفيفاً ورحمةً وإحساناً، وجاء مكملاً لشريعة التوراة، ومع هذا فاختاروا الكفر كلهم على الإيمان، فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع، مُبكتاً لهم بقبائحهم، ومُنادياً على فضائحهم، ومُخرجاً لهم من ديارهم، وقد قاتلوه وحاربوه، وهو في ذلك كله ينصر عليهم، ويظفر بهم، ويعلو هو وأصحابه وهم معه دائماً في سفال، فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم؟... وهذا السبب وحده كافٍ في رد الحق»[1].

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أحمد الحاج، الناشر: دار القلم ـ دار الشامية ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م. (٢٤٦/١).

الاعتبار الشرعي لمحرك الكبر والحسد

أولاً: الكبر

إن القارئ لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ يدرك أن الشريعة الإسلامية أولت اهتماما لحال من دفعه تكبره وغروره إلى صياغة أفكاره ورؤاه انطلاقاً من حالته تلك، أولتها ليس من ناحية العذر والمراعاة وإنما من ناحية تشخيص حالته والتصريح بمحركه، ويمكن توضيح ذلك أكثر فيما يلي من اعتبارات الشريعة الإسلامية للمحرك وحضوره في التصورات وتأثيره على المعتقدات:

١ ـ جعلت الشريعة الإسلامية (الكبر) مقابل (الإيمان) إقراراً منها أن من كان محركه الكبر لا يمكن أن يستقر الإيمان في قلبه، ليفضي ذلك إلى حوار يطول وأفكار تتوالد أساسها الكبر لا غيره، فمن كان هذا حاله لا يمكن أن يقتنع بالفكرة الإسلامية وسيظل كذلك ما لم يَـتخلَّ عن تكبره واستكباره ويستسلم لله ورسوله.

ولذلك كانت هذه المقابلة بمثابة ألا يمكن طرح أي محاولة علمية لقناعة المستكبر بما أنزل الله وما جاء به رسوله ﷺ، مقابلة صرح بها النبي ﷺ بقوله: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(١) ما دفع رجلٌ أن سأل النبي ﷺ: «إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً» فقال ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»(٢).

وحيث إنه لا يمكن للمتكبر قبول الحق أو جزء منه، فحقيقة عدم دخوله الجنة هو بمثابة عدم جدوى ونفع القناعة العلمية تجاهه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: «**جعل الكبر مقابلاً للإيمان؛ فإن الكبر يُنافي حقيقة العبودية**»(٣)، وفي شرح الحديث يقول ابن القيم رحمه الله:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩١).

(٢) الحديث السابق.

(٣) العبودية، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، =

«فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال: الكبر بطر الحق وغمص الناس، فبطر الحق: رده، وجحده، والدفع في صدره، كدفع الصائل، وغمص الناس: احتقارهم، وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها»[1].

٢ ـ إقرار الشرع بأن آفة الكبر منشأ لبعض الأفكار والمواقف تجاه الحق، حيث تبين ذلك في أكثر من موطن، فحين توضح الآيات الكريمة حال من انعدمت لديه القابلية للحق ليس لسبب إلا أنه الاعراض والاستكبار عن الحق، ثم إن الشارع الحكيم بين أن الموقف الصحيح من المستكبر حرمانه من أدلة الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

«فأخبر سبحانه أنه قطع مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية، والتي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاء، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له»[2].

ومن ذلك الحرمان حرمان النصح والإقناع النبوي للرجل الذي استكبر أمام التوجيه النبوي، وذلك «**أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، ما منعه إلا الكِبر، قال: فما رفعها إلى فِيهِ**»[3]، فجاء الرد النبوي مناسب لحال الرجل بعد تشخيص أمره

= تحقيق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت. الطبعة السابعة: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م. ص٩٩.

(١) مدارج السالكين (٢/٣١٨).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف ـ الرياض (٢/ ١٧١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢١).

ومحرك رأيه في عدم الاستطاعة أنه الكبر، وهذا الجزاء الشرعي للمستكبر الحرمان من المحاجة والطبع على القلب.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥]، أي: هكذا يطبع الله على كل قلب من جادل في دفع آيات الله وردها بغير حجة، أي: يطبع على كل من تعود التكبر والتجبر على الآيات والرسل»[١]، ومن ذلك قول «إذا كانت خطيئة المرء من الخطأ فلترجه، كآدم، وإذا كانت من الكبر، فلا ترجه كإبليس»[٢].

٣ ـ تكريس الخطاب القرآني أن الكبر هو محرك للظلال ابتداءً من نموذج (إبليس) حتى كفار قريش مروراً بقوم نوح وهود وثمود، فابتداءً من إبليس ـ لعنه الله ـ يوم أن استكبر عن السجود لآدم عليه السلام قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [صٓ: ٧٣ ـ ٧٦] والظلال من بعد ذلك الذي كان محركه الكبر والاستكبار تقريراً من الشرع أن هذا هو المحرك الحقيقي وراء الفكرة المرفوضة وليس غيره سواءً كان هناك معارضة عقلية وعلمية أو لم يكن، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

قال الطبري رحمه الله: «**يقول: وتكبروا؛ فتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة**»[٣]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فُصّلَت: ١٥].

---

(١) تفسير الماتريدي (٩/ ٢٨).

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٥٢٢).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٢).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: «**وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار؛ لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله**»[1]، إلى غير ذلك من الشواهد القرآنية التي أقرت أن محرك المعارضة العقدية للرسل وما جاءت به هو الاستكبار المستقر بقلب المستكبر، الإقرار الشرعي الذي يقتضي اعتبار هذا المحرك من خلال التعامل الصحيح معه، وعدم إهمال التشخيص لحال المعارض في العقائد والآراء.

ثانياً: الحسد

إنه لا يمكن للقارئ والمطلع في سير دعوات رسالات الأنبياء، وما قصه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه العزيز إلا يكاد يخلص إلى نتيجة **أنه ما من نبي أرسل لقومه ووجدهم في حال رفض وممانعة بحضور حسدٍ إلا أبان الله من فوق سبع سماوات حقيقة محركهم وأساس ضلالهم وأصل امتناعهم عن قبول الحق.**

فالشريعة الإسلامية بينت حقيقة حضور هذا المحرك في الإنسان عموماً وفي فضاء المعتقدات والأفكار على وجه الخصوص، وجعلت منه داءً وحيداً صريحاً لبعض الأفكار والمعتقدات التي تبدو من الوهلة الأولى أنها للعلم والجدل وللعقل أقرب منها إلى المحركات المستبطنة في دواخل الإنسان، ويمكن أن أبين حقيقة إقرار هذا الحضور فيما يلي:

١ ـ التقرير والتصريح المباشر في بعض المعارضة العقائدية والفكرية أن أساسها ومحركها: الحسد، من ذلك قول الله تعالى بحق أهل الكتاب: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: ١٠٥]، «هذه الآية رجوعٌ إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود عن الإيمان بالقرآن لما قيل لهم آمنوا بما أنزل الله فقالوا: نؤمن بما أنزل علينا، **أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أُنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل**

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٢٥٦).

على النبي والمسلمين من خير، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله: قل فلم تقتلون أنبياء الله، وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان»[1] وكما أقر ﷻ تصريحاً بعد ذلك بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٠٩].

قال تعالى: حسداً من عند أنفسهم ليبين سبحانه «**أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية، أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس، وفساد الأخلاق، والجمود على الباطل، وإن ظهر لصاحبه الحق**»[2].

وهذا تقرير شرعي لأصل الفكرة المعارضة والرافضة للرسالة المحمدية، **أنه محرك الحسد وليس رأيٌ وعقيدة وخلاف معتبر في الحوار والأخذ بعين الاعتبار، وإنما هو غلٌ في الصدور منهم**، «**وذلك لأنهم طمعوا أن يبعث الرسول ﷺ من بني إسرائيل، على ما بعث سائر الرسل بعد إسرائيل منهم، فلما بعث من غير بني إسرائيل حسدوه، وخالفوا دينه الإسلام**»[3].

فكان السبب والمحرك الأساسي ليس له علاقة بتاتاً في الجانب العقلي أو العلمي أو له علاقة بالدين كله وما يتعلق به من الشبهات أو المحجات التي يتجادل فيها العقلاء والتي تُبنى عليها ميلهم إلى الأقوال والآراء الأصح منها والأقرب إلى قناعتهم، بل كان ذلك «**أنهم أحبوا أن ترتدوا عن دينكم، وتمنيهم ذلك من قِبل شهوتهم لا من قِبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق فكيف يكون تمنيهم من قِبل طلب الحق؟**»[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٥٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٤٦).

(٣) تفسير الماتريدي (٢/ ٣٣٣).

(٤) تفسير الرازي (٣/ ٦٥٢).

وتلك أمارة شرعية عظيمة: أنه في حال انبلاج الحق ونصوعه في مقابل انعدام الحجج والوجوه المعتبرة في طرح الشبهات العقدية مع بقاء القول الفاسد أو المعارض لهذه الحقيقة لابد أن يكون هناك محرك مغاير وبعيد عن السياق الحجاجي والعلمي.

٢ ـ منزلة خطورة داء الحسد في الشريعة الإسلامية، حيث إن هذه الخطورة في الشريعة الإسلامية ليست من باب النهي العام أو التخلق والتحلي بالأخلاق الفاضلة فقط إنما خص فيها التحريم تارةً والتحذير الغليظ تارةً أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفَلَق: ١ ـ ٥].

قال الرازي: «الحسد هو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، ولهذا السبب ختم الله مجامع الشرور الإنسانية بالحسد..، كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة»[(١)].

فخص الله سبحانه من بين الأخلاق الذميمة (الحسد) حيث إنه مجمع الشرور في قلوب الخلائق، ومن خطورة الحسد في الشريعة ما بينه الله تعالى في كتابه العزيز من أن الحسد قد يصل بصاحبه إلى إزهاق النفس البشرية وأن المرء قد يفعل المحظور ويهتك المحرم لإشفاء غليل صدره، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المَائدة: ٢٧ ـ ٢٨]، **ففي الآية تعظيم أمر الحسد، وأنه يحمل الإنسان على أعظم الكبائر، وقد قيل: أثاني الشرور ثالثه الحرص والكبر والحسد فآدم (أولى) من الحرص وإبليس من الكبر وقابيل من الحسد»**[(٢)].

---

(١) تفسير الرازي (١/٢٢٦).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (٤/٣٢٥).

ولذلك حرصت الشريعة الإسلامية على تحريم الحسد وتحريم أي شيء يدفع إليه أو أن يفسر فعلٌ بذلك أو ينصرف ذهن الإنسان لأي فعلٍ أنه من قبيل الحسد، ومن ذلك النهي النبوي حين قال النبي ﷺ: **«لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، ولا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا تسأل المرأة طلاق أُختها لتكتفئ صحفتها ولتنكح، فإنما لها ما كتب الله لها»**(1).

يقول الرازي معلقاً على الحديث: **«والمقصود من كل ذلك المبالغة في المنع من الحسد»**(2)، إذ لا تدع الشريعة ذريعة أو طريقاً أن يتسرب الحسد في دواخل الإنسان ويتنامى فيه حتى يغرقه.

وإن المتتبع للتوجيه الرباني والهدي النبوي يجد في غير موطن هذا المعنى من قطع ما يؤول إلى الحسد بين العباد حتى لا يسري الحسد ويتفاقم إلى أن يتخلق به المرء فيطغى ويرفض الحق والبينات من حوله، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٣٢].

ومن ذلك تحريم أهل العلم التمني الداعي والمفضي إلى الحسد، **«وهذا كله يدل على أن التمني لا يُنهى عنه إذا لم يكن داعية إلى الحسد والتباغض، والتمني المنهي عنه في الآية من هذا القبيل، فيدخل فيه أن يتمنى الرجل حال الآخر من دينٍ أو دنيا على أن يذهب ما عند الآخر، وسواءٌ تمنيت مع ذلك أن يعود إليك أولا، وهذا هو الحسد بعينه، والذي ذمه الله تعالى»**(3).

فضلاً عن الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة في النهي المباشر عن الحسد، كقول رسول الله ﷺ: **«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا،**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٠٨).

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٦٣).

وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[1].

٣ ـ شناعة الحسد أن جعلته الشريعة نموذجاً لسبب الضلال اليهودي، إذ إن الخلق الذميم إذا ارتبط ارتباطاً وثيقاً وأصيلاً بنموذج الضلال والتكذيب في القرآن الكريم لاشك أن ذلك من عظيم خطبه وسوء حال المتلبس فيه، قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النِّسَاء: ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«يُحذر الله تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين»**[2].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٤] «وفي هذا تقريعٌ لليهود إذ أبوا الإسلام مع علمهم بنبوءة رسول الله ﷺ من التوراة والكتب حسداً له، ولبني إسماعيل كما امتنع إبليس من السجود حسداً لآدم وتكبراً عن الحق وقبوله، فاليهود نظراء إبليس في كفرهم وحسدهم وتركهم الانقياد لأمر الله تعالى»[3].

بل أصبح وصف اليهود بالحسد وانطباقهم عليه هو المستحضر في العقلية الشرعية، **يقول ابن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأنه ليس هناك نجاة إلا باتباع محمد ﷺ، فالحجة قائمة على اليهود والنصارى، لما عندهم من العلم السابق، من عهد الأنبياء، وإنما حملهم على الترك الهوى والحسد والبغي، ولا سيما اليهود فإنهم أمة الحسد، وأمة البغي، وأمة الغضب، وأمة العناد»**[4].

٤ ـ لزوم داء الحسد في تكوين الشخصية المنافقة بوصف الشريعة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٤).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٢١٧).

(٤) فتاوى نور على الدرب، تأليف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ)، جمع: د. محمد بن سعد الشويعر، تقديم: عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ. (١/ ٣٠١).

الإسلامية، ومن ذلك قول الله تعالى في وصف المنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ في غزواته أمام المشركين: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٧٢ ـ ٧٣].

قال القرطبي رحمه الله: «**(فإن أصابتكم مصيبة) أي قتل وهزيمة (قال قد أنعم الله علي) يعني بالقعود، وهذا لا يصدر إلا من منافق، لا سيما في ذلك الزمان الكريم...، ولئن أصابكم فضل من الله أي: غنيمة وفتح (ليقولن) هذا المنافق قول نادمٍ حاسد (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً).. على وجه الحسد أو الأسفَ على فوت الغنيمة مع الشكِ في الجزاء من الله**»[١].

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٧).

المحرك الثالث

العواطف والمشاعر

«يقول السيد دي غلاجو: يكفي أن تكون امرأة ما لطيفة وأنيقة لكي تكسب تعاطف هيئة المحلفين»

غوستاف لوبون

المقصود من محرك العواطف والمشاعر

هو ما يحس به المرء تجاه الشيء احساساً لا ينطلق من معطيات أو أساس وإنما هو شعورٌ انطلق مما اعتاد عليه، فينشأ هذا الإحساس والانطباع تجاه الأشياء من حوله.

ففي عالم الأفكار قد يرفض المرء الفكرة أو يقتنع بها فقط بمجرد أنه أحس بشعوره ـ المجرد من الحدس والحدق والنظر ـ أنها تناسب هذا الموقف المقابل، فتكون سجيته وطبيعته وخلقته هي التي تولد هذا الإحساس لا بمؤثر خارجي أو تحقيق هوىً داخلي وإنما هو شعورٌ، وسجية، وتطبع، وعادة.

والمراد والمقصد: **أن يكون أساس انبثاق الأفكار المطروحة هو الإحساس الشخصي للمرء المبني على ما انغرس فيه من السجية والجبلة، وليس انبثاقاً ناتجاً عن عمل عقلي أو حجاجي أو غيرها من محركات الأفكار.**

وهذا المحرك له حضور في السالف العلمي والواقع الفكري من خلال تأثيره على العقل في العموم وعلى الأفكار في وجه الخصوص؛ حيث إنه من أعظم المنزلقات المنهجية عند المهتمين في العلم والفكر هو الفشل في تنحية

العواطف والمشاعر الشخصية عن الأفكار والمسائل العلمية في حال تناولها أو مناقشتها أو الرد على أصحابها.

تأثير العواطف والمشاعر في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

يمكن أن أبين مدى توغل الشعور الناجم عن المشاعر في الأفكار والمعتقدات وحضوره فيما يلي:

١ ـ أن الانفكاك من المشاعر والتنصل من المشاعر أمرٌ يصعب على المرء النجاح فيه، بل إنّ عدم الشعور وانعدام الإحساس هو من قبيل الوصف السلبي للشخص «**فإذا قيل: فلان لا يشعر، فذلك أبلغ في الذم من أنه لا يسمع ولا يبصر، لأن حس اللمس أعم من حس السمع والبصر**»[1].

فالإحساس والمشاعر جزء لا يتجزأ من إنسانية البشر وطبيعة خلقه، لأن المشاعر تنتج من القلب وما يشعر به وعضلة القلب هي أساس الإنسان وبدونها لا يسمى الإنسان كذلك، فحضور المشاعر في نتائج الأفكار شيء جبلي ومعلوم.

ولذلك يقول الإمام الغزالي عن القلب: «هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، هو المخاطب والمعاقب والمطالب»[2].

ومن ذلك التعابير الشرعية في (انشراح الصدر) و(اطمئنان القلب) و(ارتياح الروح) وغيرها من الجمل التي يُشار إليها للمشاعر التي تعتري الإنسان تجاه الأفكار والمعتقدات والتي وإن استطاع البعض إخفاءها يكون أصعب ما عليه تجاوزها في دواخله.

٢ ـ الواقع العملي والحاضر والماضي التاريخي يثبت تأثير المشاعر والطباع في الأفعال والأفكار والمعتقدات، فلا يغيب عن قارئ ومطالع أن التاريخ مليء بوصف أصحاب الآراء أنها استمداد لطبائعهم.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٩٨).

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢.

ومن ذلك جاء الوصف التاريخي لتلك الطباع من الرسول ﷺ حين قال: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**[١] فلفظة المعدن في الحديث تنبئ عن أصل تكويني عميق في الناس وأن هذا المعدن مختلف بين الناس وسيظل كذلك تأثيره على أفكارهم ونواتج أفعالهم.

«ولذلك كان الرسول ﷺ ينظر إلى الناس من أهل الجاهلية، فينتقي خيارهم ويرجو إيمانهم، ليكونوا قوة للإسلام والمسلمين. ومن أمثلة ذلك دعاؤه المشهور الذي قال فيه: اللهم أعز الإسلام بأحب العبدين إليك؛ عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبو جهل). وقد استجاب الله دعاءه في عمر، فكان به نصر الإسلام وقوة المسلمين. وعلى هذا الأساس رفض الرسول ﷺ أن يولي أبا ذر إمارة من الإمارات، إذ عرف فيه جانب الضعف الفطري. وبالاستناد إلى هذا الأساس أيضاً ظهرت عبقرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحسن انتقاء ولاته وعماله وأمراء البلاد أيام خلافته وسلطانه»[٢].

٣ ـ اعتماد بعض المعتقدات والأفكار على أساس مشاعري وعاطفي، حيث إن بعض المعتقدات في القديم والحديث تكون وقود أفكارها المشاعر والأحاسيس التي تمدها بالاستمرارية والمكوث في العقول والأفئدة.

ـ فعلى سبيل المثال ـ صاغ غوستاف لوبون[٣] نموذجاً لتأثير العاطفة على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٥، ٣٤٩٦)، ومسلم (٢٦٣٨)، وأحمد (١٠٩٦٩) باختلاف يسير، والبزار (٩٣٧٤) واللفظ له.

(٢) الأخلاق الإسلامية (١/ ١٨٢).

(٣) غوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١م) طبيب ومؤرخ فرنسي، اهتم بالطب النفسي وأنتج فيه مجموعة من الأبحاث المؤثرة عن سلوك الجماعة والثقافة الشعبية، وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية بخلاف معظم مؤرخي أوروبا، من أبرز كتبه ومؤلفاته: (روح الاجتماع ـ خضارة العرب ـ حضارات الهند ـ سيكولوجيا الجماهير). انظر كتاب (حضارة العرب ـ غوستاف لوبون) ترجمة: عادل زعيتر. الناشر: مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠١٢م.

الأفكار عند محلفي المحكمة الجنائية فقال: «إن المحلفين يتأثرون جداً بالعواطف وقليلاً جداً بالمحاكمات العقلية. كتب أحد المحامين يقول: إنهم لا يستطيعون مقاومة منظر امرأة وهي ترضع ابنها، كما أنهم لا يستطيعون مقاومة منظر موكب اليتامى يمر أمامهم. ويقول السيد دي غلاجو: يكفي أن تكون امرأة ما لطيفة وأنيقة لكي تكسب تعاطف هيئة المحلفين»[١] وذكر حقيقة الأمر بعد ذلك بقوله: **«أهم شيء بالنسبة للمحامي الناجح هو أن يعرف كيف يؤثر على عواطف المحلفين، فهم ككل أنواع الجماهير لا يحاكمون الأمور عقلانياً إلا قليلاً جداً، أو قل إنهم لا يستخدمون إلا الأشكال البدائية من التعقل والمحاكمة العقلية»**[٢].

شواهد محرك (العواطف والمشاعر) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

من شواهد حضور محرك العواطف والمشاعر وتأثيره على الأفكار في التاريخ الإنساني والإسلامي، هو نموذج الخطاب الشيعي والدعوة الشيعية في العالم الإسلامي والعربي.

حيث إن المطالع والمتابع لنشاط التشيع يدرك مدى اعتماد هذا الخطاب في نشر التشيع على العاطفة وتجاوز كل ما يقف في هذا الطريق من مرويات مكذوبة على الصعيد العلمي والتاريخي من جهة ومن واقعية المعتقد على الصعيد العقلي والمنطقي من جهة أخرى.

فانتشار الخرافات العاطفية والتجمعات الطائفية التي تردد الهتافات الوجدانية والمناداة بما يسمى بالثارات، ورفع لافتة القهر واللهج بخطاب المظلومية الدائم والتاريخي الأزلي، كل ذلك وأكثر من الممارسات والمفاهيم التي يدفع بها الخطاب التشيعي تعويلاً منه على المشاعر والأحاسيس والطبع البشري وميل الإنسان إلى المؤازرة للمظلوم سعياً وطمعاً منه إلى تثبيت المعتقد الرافضي في القلوب حتى يصبح جاثماً على حركة العقول والأفهام.

---

(١) سيكولوجية الجماهير، تأليف: غوستاف لوبون. ترجمة: هاشم صالح. الناشر: دار الساقي ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٩١م. ص١٦٩.

(٢) المرجع السابق ص١٦٩.

ومن ذلك توارث الشيعة لأجيالهم في الواقع المعاصر وتعاهدهم في دواخلهم على طغيان شعور الاضطهاد والظلم من واقعة قتل الحسين رضي الله عنه - على سبيل المثال - حيث يرون أنه قتل ظلماً وبغياً، **وأن الشيعة من ذلك الوقت حتى الآن يعانون الظلم والبغي والاضطهاد وأن هذا الظلم لم ولن ينتهي إلا بخروج صاحب الزمان بزعمهم، وكما في أدعيتهم ومجامع دعواتهم يقولون: «اللهم اكشف هذه الغمة عن الأمة بحضوره، وعجّل لنا ظهوره»**[1]، وغيرها من النداءات والأدعية والتقريرات العلمية لدى علمائهم وحوزاتهم في تأكيد هذه المظلومية والتعزيز من هذه الحكاية، لتهييج العواطف والمشاعر وتعليق القلوب بهذا المعتقد.

والمعتقد الشيعي المعاصر جعل من المظلومية مفهوماً في الهرم التصوري العلمي والحركي للمذهب، وكوّن إزاء ذلك إجابات عن تساؤلاتٍ وردوداً على مقالاتٍ حول مرتبة المظلومية في أهداف حركة التشيع ومدى أهمية استحضاره لدى العلماء والحوزات والدعاة في اجتماعاتهم ومآتمهم ومواكبهم[2].

يقول أحد علمائهم مقرراً حقيقة تعاهد التباكي: «**ونحن لا نشك في أن بقاء التشيع واستمراره، وانتشاره بين الطبقات العامة للمجتمع يعود فضله إلى الشعائر الحسينية من تعازٍ، ومواكب، وسوى ذلك مما له أبلغ الأثر في تعميق روح الولاء والمحبة لأهل البيت** عليهم السلام والسخط والنقمة على الظالمين»[3].

فالاعتماد الشيعي وتعاهده المنهجي على التعبئة العاطفية من أهم أولوياته، يحكي أحدهم هذا التعاهد وشعور التعاطف والمظلومية الذي يحمل القضية الضائعة فيقول: «**خلال عشرة محرم نتحول إلى ثوار، رغم أنوفنا، فنترك**

---

(١) أدعية وآداب الحرمين، إعداد: معاونية بعثة قائد الثورة الإسلامية لشؤون التعليم والبحوث، تعريف: د. محمد حسن تبرائيان. الناشر: دار نشر المشعر. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م. ص١٣٤.

(٢) انظر: ردود آية الله نعمت الله صالحي نجف آبادي على المستشرق الألماني (ماربين) في قضية المظلومية، كتاب: الشهيد الخالد الحسين بن علي، ترجمة: د. سعد رستم. الناشر: الانتشار العربي - لبنان - بيروت. ص٢٩٦ - ٣٢٢.

(٣) ومضات من وحي عاشوراء، تأليف: السيد أحمد السيد علوي الغريفي. الناشر: لجنة الغريفي الثقافية. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م. ص٨٦.

بيوتنا، وأهالينا، ونتجمع في مراكز التوجيه والتوعية، في المساجد والتكايا لنستمع إلى الخطباء وهم يتحدثون عن أحداث عاشوراء وكأنها وقعت أمس، فنتفاعل مع هذه الأحداث وكأننا نعيش في يوم عاشوراء.. ترى ماذا تثير فينا ذكرى الحسين؟ وكيف تستدر دموعنا غزاراً، من سرد قصص المآسي التي تعرض لها أهل البيت في كربلاء؟ ما الذي يدفع بالمؤمنين خلال شهري محرم وصفر إلى أن يتركوا الأفراح والأعراس، ويلبسوا السواد مشاركة منهم لأحزان آل محمد؟ وما الذي يجعل الأرض خلال فترة الذكرى، تتحرك باسم الحسين فكأن كل شيء فيها يقول مع القائلين: يا حسين.. يا حسين!؟..، الإمام الحسين قضيتان، قضية حق مضيع، وقضية جسد متقطع، أما قضية الجسد المتقطع فانتهت، ودخل الحسين في جنات الله وهو سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة، **ولكن قضية (الحق المضيع) هي القضية الباقية، ومن هنا فكل محروم يبحث عن سيده، وكل مستضعف يبحث عن مأوى وكل مطرود عن البلاد... ليستلهم منه الدروس ولا يجد أفضل من الامام الحسين معلماً وهادياً ومرشداً، وهنا يكمن السر في حب الناس له..»**[١].

ومن ذلك جاءت مشروعية البكاء والنحيب واللطم وغيرها من الرمزيات التعبدية التي تهيج المشاعر وتستثير كوامن الأحاسيس، والمطلع الفاحص لجميع المذاهب والطوائف في دائرة الإسلام وخارجه لن يجد طائفة ومذهب جعل من التباكي والنحيب والتجمع لإقامة المآتم والتعبد بها محوراً مهماً في هرم أولوياته المفاهيمية مثل المذهب والطائفة الشيعية.

ـ فعلى سبيل المثال ـ الاستغراق في التناول التاريخي والمعرفي والعلمي لفاجعة ومأساة الحسين رضي الله عنه في كربلاء لم يتناولها ويجعلها أيقونة ورمزية أي مذهب كالمذهب الشيعي، وليس ذلك تقليلاً من هذا الحدث بقدر ما هو رصد لحجم الحدث في المذهب الشيعي من عدمه.

---

(١) كتاب عاشوراء، تأليف: السيد هادي المدرسي. الناشر: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٨٥م. ص٦٩ وما بعدها.

ومن أبرز الأمارات والعلامات على حظوة هذه المفاهيم في المذهب الشيعي الحجم المعرفي والعلمي لجملة الكتب في المكتبة الشرعية الشيعية التي تناولت هذه المفاهيم ومنها: (**فاجعة كربلاء في الضمير العالمي الحديث، الحزن على الإمام الحسين عليه السلام ضرورة دينية وسنة مؤكدة، قتيل العبرة في فضيلة البكاء وإقامة العزاء على شهيد العترة، دموع الكحلاء في عشر عاشوراء، بيت الأحزان في ذكر أحوال سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، عليها السلام، الشهيد الخالد الحسين بن علي عليه السلام، رمزية الدم في الشعائر الحسينية**) وغيرها الكثير من المؤلفات الشيعية التي تناولت مفاهيم البكاء والحزن والنوح والمآتم وما يتعلق بما يثير مشاعر المرء وأحاسيسه وارتباط ذلك في متعلقات عقدية وأفكار مذهبية.

ومن كثرة تناول هذه المفاهيم كانت التساؤلات المنهجية لعلماء الشيعية من طلابهم بشأن هذه الظاهرة في الاهتمام ومراميه من ناحية وفي ذات الشعيرة الشيعية المخصصة للحسين رضي الله عنه من ناحية أخرى، ففي إجابات فتاويهم جاء هذا السؤال بهذه الصياغة: «**ثمة سؤال تقليدي متكرر من قبل شريحة كبيرة من المسلمين: لم هذا البكاء المستمر والمتكرر على مر الأيام والليالي على الإمام الحسين عليه السلام، وهل هناك دليل عقلي أو نقلي يدل على جواز واستحباب البكاء والنوح على الامام الحسين عليه السلام، حتى نجد هذا الاهتمام الشديد..**»[(١)].

حيث جاء بعد ذلك الجواب المفصل الطويل إلى أن قال المجيب: «**فمن أكثر البكاء على الإمام الحسين عليه السلام فهو مقتدي بالنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، وممن يرجو الله واليوم الآخر، وبكاء المسلم والمؤمن على الحسين عليه السلام هو حتماً وقطعاً من أبرز مصاديق الذكر الكثير لله تعالى، كما تنص عليه الآية بوضوح، والخيار بيدك..، فهذا الاستمرار الذي يراه المسلم لدى المؤمنين في إقامة**

---

(١) الحزن على الإمام الحسين عليه السلام ضرورة دينية وسنة مؤكدة طبقاً لأسس وقواعد كافة أهل الإسلام، تأليف: الدكتور أحمد الماحوزي. تحرير: الخطيب الحسيني جاسم الدمستاني. الناشر: مكتبة الفكر ـ البحرين. ص١٢.

المآتم والبكاء على الحسين عليه السلام، وهذا الحماس المتجدد كل عام، والحزن العميق الذي لا نهاية له إلى الأبد إن شاء الله ما هو إلا مصداق من مصاديق الاقتداء والسير على خطى النبي صلى الله عليه وآله..»![1].

فالمبدأ الشيعي في التمسك بأهمية العاطفة وحضور تأثيرها على الجانب العقدي والمنهجي والفكري ملحوظ وصريح، حتى إن بعضهم ربط هدف إقامة الشعائر بالغاية النفسية وما يحمله المرء من مشاعر تجاه قضايا المآتم والمظلومية وغيرها، يقول: «**والشعائر غاية تشريعها لأجل أنها معسكر ونادي تدريبي عظيم لسيد الشهداء عليه السلام، تصقل فيه النفوس وتكسر فيها غطرستها، وينمحي عنها جبنها وتتعافى عن الإخلاد والتسافل إلى الأرض..، ومما تقدم يتبين أن إخلاء الشعائر الحسينية من الترويض على الشهادة، والتدريب على التضحية والفداء، هو إخواء لها عن قوام حقيقتها وماهيتها..، فهي أجواء حزن وجزع لشحن النفوس على الخوض في هبوات الفداء والتضحية والاقتحام في قسطل البلايا والاندفاع في غمار الزلازل، وهو تمويه لها عن هوية غايتها الأصلية**»[2].

وشاهد آخر من الشواهد في تأثير المشاعر على الرأي العلمي والفكرة العقائدية، هذا مثال في دقائق الآراء واختيار المسائل، وقبول الرأي من عدمه تجاه الآخرين، **وهو ما أخبر عن نفسه الإمام الذهبي رحمه الله في معجمه حين ذكر شأن أحد القضاة وهو (ابن المجد عبد الله) يقول الذهبي: هو «الإمام العلامة قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفرج محمد بن الإمام الكبير مجد الدين عبد الله بن الحسين الإربلي ثم الدمشقي النحوي المناظر»**[3] يحكي عنه

---

(١) الحزن على الإمام الحسين عليه السلام ضرورة دينية وسنة مؤكدة طبقاً لأسس وقواعد كافة أهل الإسلام، ص١٤ ـ ٢٩.

(٢) رمزية الدم في الشعائر الحسينية، تأليف: السيد رياض الموسوي. الناشر: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ـ إيران ـ طهران. الطبعة الأولى: ٢٠١٨م. (٤/ ٣٤٠ وما بعدها).

(٣) معجم محدثي الذهبي، تأليف: شمس الدين محمد أحمد عثمان الذهبي، تحقيق: د. روحية عبد الرحمن السويفي. الناشر: دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ص١٤٢.

الذهبي بعد ذكر ما كان عليه حاله من الانشغال والدروس والقضاء، وكذلك ما كان يحسنه من السجال ودقائق الدعاوى، إلى أن قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه: «**مات في أول جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وثلاثين وسبعمائة. والله يسامحه المسكين. وكان محسناً لي، فلعلي حابيته،** رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[1].

هذا وهو المؤرخ العالم الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يستطع الإنكار أنه كان يحابيه في الأجواء الفكرية والمعرفية، كون أن «**من العوامل المؤثرة في النفس الإنسانية حيث تتعامل مع من أحسن إليها، وتشعر بعدم قدرتها على الخلاص التام والتجرد المحض في الرأي، بل يظل فيها من الإحساس بالجميل ما يؤثر على قرارها الفقهي أو خيارها الفكري؛ لأن هذه حقيقة الإنسان**»[2].

---

(١) معجم محدثي الذهبي ص١٤٣.

(٢) حجاب الرؤية، تأليف: عبد الله بن رفود السفياني، الناشر: مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى: ٢٠١٣م. ص٢٧.

الاعتبار الشرعي لمحرك العواطف والمشاعر

لقد أولت الشريعة اهتماما لأمر الشعور الشخصي الذي يتشكل من الوهلة الأولى، وجعلت من طبائع المرء وما اعتاد عليه اعتباراً في تقرير الأحكام الشرعية من ناحية، ومن ناحية أخرى في التعامل مع أصحاب الأفكار المعارضة لهذه الأفكار، ويمكن توضيع هذا الاعتبار الشرعي لمحرك العواطف والمشاعر فيما يلي:

١ ـ اهتمام الشريعة الإسلامية ابتداءً في مشاعر الإنسان من حيث اعتبارها في الأحكام الفقهية التفصيلية، ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

ـ **الأحكام الشرعية التي راعت المشاعر الإنسانية**، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ:

• **استحباب التعزية لأهل الميت لتسليتهم**، ومواساتهم، والوقوف معهم لحاجتهم لذلك، وتصبيرهم على هذا الفقد.

• **شرع للمطلقة غير المدخول بها نصف المهر، تطيباً لخاطرها، وجبراً لكسر نفسها**، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٧].

• **إباحة الهجر لأمور الدنيا فيما دون ثلاثة أيام، فإن النفس البشرية بطبيعتها الإنسانية قد تأنف وتحتاج لتلبية رغبتها في البعد والهجر فيما يحصل لها في الحياة وشؤونها**، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، **ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[١]، فإنه عفي عن ما دون الثلاثة الأيام **«لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

في الثلاثة ليذهب ذلك العارض»[1].

• **عموم الأحكام الشرعية المباحة،** فجميع الأحكام المباحة في الشريعة الإسلامية وكل دائرة المباح هي في مجملها مراعاة لطبيعة الإنسان وما جُبل عليه وما يلبي له احتياجاته في الحياة، مثل ما يتعلق في الأكل والشرب واللباس وغير ذلك، قال ﷺ «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة**»[2]

• **عموم الأخلاق الإسلامية المبنية على مراعاة المشاعر، كتوقير الصغير للكبير، وتعظيم شأن الوالدين، وتكرار أهمية البر للأم ثلاث مرات قبل الأب للتأكيد على جانب البر وقيمة الأمومة تجاه الابن، الرحمة على الضعيف، وإيناس وحشة المغتم، وتفريج كربة المنكوب، ونصرة المظلوم، والصدقة للفقير، إكرام الضيف، والإحسان للجار، والمسح على رأس اليتيم، وغيرها من تفاصيل الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي تجعل من المشاعر والأحاسيس حجر الزاوية في الاعتبار والقصد.**

ـ **التعامل الشرعي والأحكام المتعلقة بالمسلم الجديد،** فالمتأمل في الهدي والتعامل النبوي مع المسلمين الجدد في أول الإسلام وبعد اعتزازه ورفع رايته على الخلائق يجد في ثناياه اعتباراً جلياً للمشاعر والأحاسيس وما اعتاد عليه من طبائع يومه وحياته وما سيكون له في حياته المستقبلية في الإسلام.

من ذلك حديث رسول الله ﷺ يوم أن قال لعائشة رضي الله عنها: «**يا عائشة لولا أن قومكِ حديثٌ عدهم بالجاهلية؛ فأخاف أن تنكر قلوبهم...**»[3].

فاعتبار هذا الشأن هو من قبيل معرفة مدى تأثير هذا المحرك في الأفكار والمعتقدات وما ينتج عن استقبال الأفكار المطروحة على صاحب هذا الحال،

---

(1) شرح صحيح مسلم، تأليف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ (١١٧/١٦).

(2) أخرجه النسائي (٢٥٥٩)، وأحمد (٦٦٩٥)، وابن ماجه (٣٦٠٥).

(3) أخرجه البخاري (٧٢٤٣).

وغيرها من الأحكام الشرعية والتعامل النبوي فيما يتعلق بالمسلم الجديد ومراعاة مشاعره تجاه الإسلام.

ـ **النصوص الشرعية في عدم ضياع الأجر**، فالمتأمل في الأدلة الشرعية يجد أن الضمانات المقدمة للعباد في الأحكام الشرعية حاضرة وذلك ليس من مبدأ تشكيك العباد بمقتضى التعبد وما يترتب على الحكم؛ إنما هو من قبيل مراعاة الحالة البشرية في التأكيد على المحصول من العمل الشرعي، وما يلي ذلك من تحفيز النفس المؤمنة، وغيرها من الاعتبارات النفسية.

ـ فعلى سبيل المثال ـ يجد المتعبد محرك الصبر على الطاعة هو في حقيقة دواخله حضر على قدر حضور اليقين بموعود الله في نيل الأجور والثواب، ولذلك جاءت الآيات الكريمة في أكثر من موضع ففي سياق جزاء الشهداء ومثواهم والذي تأنف منه الطباع لأجل إزهاق الأرواح جاءت الآيات مراعية لمشاعر هذه الطباع.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عِمرَان: ١٧١] وفي سياق من خرجوا من ديارهم مع النبي ﷺ لغزوة تبوك قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبَة: ١٢٠].

قال الرازي: «**وأنه لا يُضيع أجر المحسنين، وبأن لذات الدنيا أمورٌ باطلة لا يرضى بالقتل ومتى كان كذلك فارق الإنسان الدنيا على حب الله وبغض الدنيا، وذلك من أعظم سعادات الإنسان، فثبت بما ذكرنا أن الطبع ولو كان يطره القتال من أعداء الله فهو خير كثير وبالضد**»[1].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هُود: ١١٥]، وفي قوله تعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف: ٣٠] وغيرها من الآيات المطمئنة للنفس المؤمنة أن الله ﷻ لا يضيع ثواب هذا العمل مراعاة لمشاعر الباذل والمجاهد والمتصدق والصابر، ولذلك «**سمي الثواب أجراً لوقوعه جزاءً على الأعمال وموعوداً به فأشبه الأجر**»[2].

---

(١) تفسير الرازي (٦/ ٣٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٢).

٢ ـ أولت الشريعة الإسلامية الشعور المستمد من الطبائع؛ حيث جعلته محلاً للاختبار والامتحان، ومدار بعض الأفعال التعبدية، حيث جعل الطبع محل اجتياز في غلبة الصواب عليه، من ذلك قوله تعالى عن ما جُبل عليه الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعَارج: ١٩]، **أي: كذلك خلق وطبع كل إنسان، لكن المؤمن يتكلف إخراج نفسه من ذلك الطبع الذي أنشئ عليه، وطبع إلى غيرها من الطبائع؛ كالبهائم والسباع التي طبعها النفور من الناس بالاستيحاش عنهم، ثم تصير بالرياضة ما تستقر عندهم وتجيبهم عند دعوتهم»**[١].

ولذلك فالمتأمل في تفاصيل بعض العبادات من اشتمالها على تصرفات وأفعال مجردة عن العلة العقلية وعن الميل التطبعي للإنسان يجد حضور الامتحان الايماني وتحقيق غاية العبودية في هذا الفعل حيث يقوم بها العبد مستنداً على انقياده لربه متجاوزاً ما يشعر به من اعتياده للطباع وما ألفه من المعقولات.

ففي الأفعال التعبدية لشعيرة الحج ـ على سبيل المثال ـ «**كترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد...، وإذا اقتضت حكمة الله ﷻ ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق مقتضى الاسترقاق»**[٢].

---

(١) تفسير الماتريدي (١٠/٦٠٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٦٦).

٣ ـ اعتبار الشريعة الإسلامية الطباع والمشاعر من حيث الاستدلال وضرب الأمثلة المتعلقة فيهما، ففي قوله تعالى في تحريم الغيبة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرَات: ١٢] جعل الله سبحان وتعالى لطبع الإنسان وجبلته اعتباراً أن قاس الغيبة على ما تنفر منه المشاعر البشرية في أكل الميت من الخلق.

«**فالنفوس تعاف أكل لحم الإنسان من جهة الطبع فلتكن الغيبة عندكم بمنزلته في الكراهة ولزوم اجتنابه من جهة موجب العقل إذا كانت دواعي العقل أحق بالاتباع من دواعي الطبع ولم يقتصره على ذكر الإنسان الميت حتى جعله أخاه وهذا أبلغ ما يكون في التقبيح والزجر**»[1]، فلو لم تكن للشريعة الإسلامية مراعاة للمشاعر وطبائع الإنسان لما جعلت منها طريقاً لتكريه المحظورات والمحرمات مثل حكم الغيبة بحق المسلم على أخيه المسلم.

٤ ـ تظافر المقاصد الشرعية في التشريعات والأحكام لاعتبار الطباع الإنسانية، ـ فعلى سبيل المثال لا الحصر ـ تنوع العبادات وتفاوت المثوبة والأجور المترتبة على الأعمال هو من قبيل تحقيق المقصد الشرعي في ملاءمة طبع الإنسان.

فالعبادات تسع طباع الناس وما يميلون إليه فالقائم بالليل قد يعسر عليه صيام النفل في النهار، والمنفق للصدقة قد يعجز عن قيام الليل وهكذا في تنوع الطاعات وتعددها.

ومن حكمة الله ﷻ ورحمته بالعباد أن نوّع طرق الوصول إليه سبحانه وحيث إن الغاية هي التعبد ودوام الحال عليها، «**فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره، ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على**

---

(١) أحكام القرآن، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. (٣/ ٥٤٢).

الأوقات... والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملال هو الغالب على الطباع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضاً تختلف»[1].

ومن قبيل ذلك أيضاً المقصد الشرعي من التدرج التشريعي في الأحكام وإقرارها على العباد وخاصة فيما اعتادته طبائع الناس وألِفته، وأوضحُ مثال على ذلك تقرير تحريم الخمر وما حصل من اعتبارٍ للمقصد الشرعي في مراعاة ما ألفه الناس واعتادوا عليه، حتى في أعظم من ذلك كالصدقة والجهاد باعتبار الطبع في بداية الأمر.

ففي أمر مبايعة ثقيف النبي ﷺ أنهم اشترطوا عليه أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فسُمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[2] وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه **أن رسول الله ﷺ قال لرجل (أسلم). قال: أجدني كارهاً. قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»**[3].

وغيرها من النماذج في مراعاة الشريعة الإسلامية للشعور والخواطر والأحاسيس وما اعتاد عليه المرء في حياته وتطبع عليه في يومه، وكما هو معلوم أن منهج التدرج هو منهج شرعي متبع في تقرير الأحكام الشرعية وفي الدعوة إلى الإسلام، وأن اعتبار العواطف والمشاعر مرعي في ذلك التدرج.

والقارئ لوصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن يدرك مدى اعتبار الشريعة لهذا الأمر والشأن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً على اليمن قال: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»**[4].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٤٨).

(٢) رواه أبو داوود (٣٠٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (١١٦٥٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

ومن قبيل ذلك في مراعاة الشريعة للطباع والشعور، أنه أصبح منهجاً شرعياً مكتملاً معتبراً سار عليه الصحابة من بعد الرسول ﷺ؛ **يحكي نسجَ هذا النهج شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله **حيث يقول في سياق الحديث عن أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما:

«فكان النبي ﷺ يجمع بين شدة هذا ولين هذا، فيأمر بما هو العدل، وهما يُطيعانه، فتكون أفعالهما على كمال الاستقامة، فلما قبض الله نبيه، وصار كل منهما خليفة على المسلمين خلافة نبوة، كان من كمال أبي بكر رضي الله عنه أن يولي الشديد ويستعين به ليعتدل أمره، ويخلط الشدة باللين، فإن مُجرد اللين يُفسد، ومجرد الشدة تفسد، ويكون قد قام مقام النبي ﷺ فكان يستعين باستشارة عمر وباستنابة خالد ونحو ذلك، وهذا من كماله الذي صار خليفة رسول الله ﷺ ولهذا اشتد في قتال أهل الردة شدةً برز بها على عمر وغيره، حتى روي أن عمر قال له: يا خليفة رسول الله ﷺ تألَّف الناس. فقال: علام تألّفهم: أعلى حديث مفترى؟ أم على شعرٍ مفتعل؟..، وأما عمر رضي الله عنه فكان شديداً في نفسه، فكان من كماله استعانته باللين ليعتدل أمره، فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيد الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء من أهل الصلاح والزهد، الذين هم أعظم زهداً وعبادة من مثل خالد بن الوليد وأمثاله..»[1].

٥ ـ المواساة الربانية لرسله المنكوبين من أقوامهم، فهذه المساندة الربانية الصريحة في القرآن الكريم لأنبيائه ورسله صلوات الله عليهم كانت أعظم دلالة على مراعاة طبائع الناس وشعور الإنسان تجاه الأفكار والمواقف والتصرفات.

فمن طبيعة الإنسان أن يشعر بشعورٍ سلبي تجاه الجفاء والنكران والتهجير

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تأليف: تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. (١٣٨/٦ وما بعدها).

وغيرها من الأفعال التي من الصعب بل من المحال أن يزعم الإنسان افتقاره منها، **ولنا في قصص الأنبياء ومواساتهم في بلائهم المتعدد خير نموذج ومثال لاعتبار الشرع هذا الطبع والشعور وحضوره في المشهد العقدي والفكري، فمن ذلك ما حصل لرسول الله ﷺ من مواساة وتصبير بعد فراقه بلدته التي ولد وترعرع فيها ونشأ، وأنه أخرج منها ظلماً، فأنزل الله من فوق سبع سماوات المواساة الربانية**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القَصَص: ٨٥].

ولذلك جاءت الوصية الربانية للنبي ﷺ بأن عليه الصبر كما سبقه من قبله، فإنَّ سردَ قصص من سبقه من الأنبياء عليهم السلام أعظمُ مواساةٍ من الله عز وجل لنبيه، وكيف كان تعاملهم مع مصائبِهم وكيف كانت نهاياتهم مع أقوامهم الذين نالوا منهم ونكّلوا بهم، قال تعالى بعد ذلك السرد وما أصاب من قبله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد كان هذا مستحضراً لدى النبي ﷺ وفي مخيلته، فقد رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمدٌ بهذا وجه الله، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فتمعر وجهه، وقال: «رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»»[1].

٦ ـ الاعتبار الشرعي للارتياح النفسي والبعد عن مصادر القلق، ويكمن هذا الاعتبار ليس في أن تكون المشاعر والأحاسيس هي الحكم والفصل في الخير والشر والحق والباطل للإنسان، إنما اعتبرتها الشريعة الإسلامية من قبيل إيقاظ الوازع النفسي والضمير الداخلي للمسلم حال ذنبه أو في حال شكه في حقيقة الأمر الذي حيره.

وفي الحديث يقول ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٩)، ومسلم (١٠٦٢).

طمأنينة وإن الكذب ريبة»[1] «وظاهر هذا الحديث التنبيه على الحس الأخلاقي الموجود في ضمير الإنسان، وهذا الحس الأخلاقي يتمثل في بعض أحواله بالشك والتردد، وحينما يوجد هذا الريب المقلق للنفس فالحكمة تقتضي بالبعد عما يحدث الريب، والأخذ في طريق الذي لا ريب فيه، ما دام يوجد أمام الإنسان طريق فيه طمأنينة وراحة للنفس وأمن»[2].

٧ ـ المنهج الشرعي في استثارة المشاعر والعواطف تجاه القضايا العقدية، فالمتأمل في سرد آيات الترغيب والترهيب يجد أنها تهدف إلى استثارة المشاعر لتكون محفزات للطاعات والعبادات القولية والفعلية، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: ١٠١ ـ ١٠٨].

وأمثلة ذلك في القرآن الكريم كثير، وعلى هذا كان المنهج النبوي في استثارة كوامن الصحابة رضوان الله عليهم والأمة من بعدهم، من ذلك ما حدث في تقسيم رسول الله ﷺ للغنائم بين الصحابة ذلك الحدث الذي يحمل بين طياته كماً لا يستهان به من المشاعر الجياشة من رسول الله ﷺ إلى أصحابه.

ففي الحديث: «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء، فوجد هذا الحي من

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن ماجة (١١٧٨)، وأحمد (١٧٢٣) واللفظ له. وصححه الألباني (٨٠٩٢٥).

(٢) الأخلاق الإسلامية (١/ ٧٧).

الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل سعد بن عبادة: فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك فيها هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: (فأين أنت من ذلك ياسعد؟). قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي! قال ﷺ: (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة). فخرج سعد وجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وحدةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى والله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال ﷺ: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم: أتيناك مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا»[1].

ولهذا كان من أبرز سمات الخطاب القرآني والنبوي أنه كما أولى مراعاة الجانب العقلي والاستدلال المنطقي فهو لم يُهمل الجانب العاطفي والوجداني،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩)، والإمام أحمد (١١٧٣٠) واللفظ له.

ففي «النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيهما حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً...، فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين. ومن المتعة الوجدانية الطيبة لما يُرضي حتى هؤلاء الشعراء المَرحين؟ ذلك رب العالمين. فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان. وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم»[1].

---

(١) النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن ـ. تأليف: د. محمد عبد الله دراز. تحقيق: عبد الحميد الدخاخني. الناشر: جار طيبة للنشر والتوزيع ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م. ص١٤٥.

المحرك الرابع

الفتور والكسل

«واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تنتهب، ولا تخلد إلى كسل، فما فات من فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، وإن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور»

الإمام ابن الجوزي

المقصود من محرك الفتور والكسل

هو أن يقتنع المرء بالفكرة أو تتولد في مخيلته فكرة مضادة لها، وأساس ذلك كله هو كسل ذهنه أو قواه النفسية أو الجسدية في البحث في صحة أو فساد هذه الفكرة، أو مناسبة قبولها، أو رفضها. فيكون أصل الرفض للفكرة أو أساس توليد الفكرة المضادة هو عدم الرغبة في الجهد البحثي أو الذهني أو العقلي ككل، فقد يعتري أحدهم الركون إلى الفكرة ليس لأنه تبين له من خلالها أنها الصواب بقدر ما إن الفكرة المختارة لا تتطلب منه جهداً وبذلاً أكثر.

وحاصل حال هذا المحرك أن صاحبه يفر من المجهود الذي يطاله سواءً كان مصدره في مرحلة البحث عن الفكرة وصحتها ومدى مناسبة الموقف منها، أو في مرحلة ما بعد الاقتناع بالفكرة وحملها ليكون الهروب من المجهود أحد نتائجها وثمارها.

فكم من فكرة بثها صاحبها في العالم الفكري والثقافي وفي الجدال العلمي والفقهي وليس له محرك من ذلك إلا كسله وفتوره عن ما يستلزمه

خلاف فكرته، ـ فعلى سبيل المثال ـ كأن يكرر المرء تقليل أهمية صلاة الجماعة ويحاول جاهداً تضعيف أحاديث صحيحة في ثواب وأجر تلك المنزلة من العبادة، ويظهر من ذلك أن الحال حال علمي وفقهي وفي حقيقة الأمر يكون محرك ذلك كسل صاحب هذه الفكرة عن القيام بجهد المواظبة على الصلوات الخمس اليومية مع الجماعة.

رصد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ **هذا المحرك المنشئ للضلالات البدعية والانحرافات في الفضاء العلمي** حيث قال: «**إنّ من الناس من يكون له شدة، ونشاط، وحدة، واجتهاد عظيم في العبادة، ثم لابد من فتور في ذلك. وهم في الفترة نوعان: من يلزم السنة فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهي عنه، بل يلزم عبادة الله إلى الممات، ومنهم: من يخرج إلى بدعة في دينه، أو فجور في دنياه، حتى يسير إليه الناس، فيقال: هذا كان مجتهداً في الدين ثم صار كذا وكذا، فهذا مما يخاف على بدل عن العبادات الشرعية إلى الزيادات البدعية**»[1].

وكما أن لمحرك الكسل والفتور حضور في الأفعال والأعمال والتصرفات، كان له حضور ملاحظ في فضاء الأفكار والمعتقدات، فكم كان هذا الكسل حارساً لبوابة عقل المرء يردّ كلَّ فكرةٍ تحمل جهداً، وكم كان محركاً للتوقف عن مطالعة الأفكار ومناقشتها ومحاجاتها والاستدلال عليها.

أثار حضورُ هذا المحرك في الواقع العلمي حفيظة الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ **حيث لم يسعه السكوت على توغله وتأثير الكسل في الأفكار العلمية حتى اعتده جناية بحق الإسلام كله،** حيث يقول في سياق أهمية علم الحديث وأهمية معرفة مراد الآيات وصحة الأحاديث المروية عن النبي ﷺ وضعفها: «**ويحتاج الإنسان إلى السفر الطويل والتعب الكثير حتى تعرف ذلك فصنفت الكتب وتقررت السنن وعرف الصحيح من السقيم ولكن غلب على**

---

(١) جامع المسائل، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ـ مكة، الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ، (٥/ ٣٧٥).

المتأخرين الكسل بالمرة عن أن يطالعوا علم الحديث حتى إني رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ في الصحاح لا يجوز أن يكون رسول ﷺ قال هذا ورأيته يحتج في مسألة فيقول دليلنا ما روى بعضهم أن رسول الله قال كذا ويجعل الجواب عن حديث صحيح قد احتج به خصمه أن يقول هذا الحديث لا يعرف وهذا كله جناية على الإسلام»[1].

تأثير محرك الكسل والفتور في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

١ ـ المعلوم من العقل بالضرورة أن الكسل عن طلب الشيء تقصير في نواله، وهذا متحصلٌ في عالم الأفكار والمعتقدات فلم تنل الأفكار الطامحة بالكسل، كما أن لكل فكرة كاسدةٍ مقعدةٍ صاحبٌ كسولٌ مقتنع، وأما الأفكار المُنالة بالنصب والكفاح قد لا تروج كما يروج ضدها.

ولذلك ذكر هذه الآفة الإمام ابن الجوزي رحمه الله في فصل (الفكر يدل على أشرف المقامات) وفي سياق الحث على طلب العلم وتتبع مظانه: **«واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تنتهب، ولا تخلد إلى كسل، فما فات من فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، وإن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور»**[2].

٢ ـ أن الكسل والفتور أحد أهم الأسباب لتعطيل الفكر والنظر، وما يلي ذلك التعطيل من اختلال التوازن في المعايير الفكرية وتشوه المنتج الثقافي والفكري، وثمرة قبول الأفكار أو توليدها، **«وذلك أن النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص على المعاني تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير، وإذا ألفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة قرب هلاكها لأن في عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الخاصة بها»**[3].

---

(١) تلبيس إبليس، تأليف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر ـ لبنان ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م. ص١٠٣.

(٢) صيد الخاطر ص١٧٥.

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تأليف: أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (٤٢١هـ). تحقيق: ابن الخطيب. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية. ص١٨٧.

٣ ـ أن الكسل ينطلي على جميع الخلق ويصيب كل البشر، وكون الإنسان بطبيعة خلقته يعتريه الكسل والخمول، فلابد أن يصيب ذلك ما يخرج عن العمل العقلي للإنسان من الأفكار والمعتقدات، ومن إنسانية المرء وبشريته أن يناله حظاً من ذلك الكسل، **فالنبي ﷺ كان يصيبه ذلك فيما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعبد الله بن قيس: «لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً»**[1].

٤ ـ ثنائية القول والعمل في الفضاء الفكري والعلمي، وعلاقة ذلك بمحرك الكسل والفتور هو أن الكسل الفعلي والعملي مورثٌ للسيلان القولي والجدلي، فحين يكف المرء عن العمل الجسماني قد لا ينفك ـ في الحال ـ عن العمل العقلي.

وكما أن الامتلاء أدعى إلى حيز الفراغ، فكذلك حضور الكسل المفضي للجدل في حال الفراغ الفعلي والعملي، وهذا ما فتئ مشرحي القلوب في تكريسه أن التمكنَ من القلب الفارغ أسرعُ من القلب المليء وعلى هذا فقِس.

ولهذا جاءت التحذيرات الشرعية من ترك الفعل المورث للإسراف بالقول والجدل، منه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢ ـ ٣]، **وما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**[2].

ويحكي ابن القيم رحمه الله صنفَ من استغرق العلم عن العمل وأن عاقبة أمره جهلٌ ونقصٌ وضياعُ حال، فقال: أن منهم «**من فُتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه..، فهذا جهله كان خيراً له وأخف لعذابه من كمله فما زاده العلم إلا وبالاً وعذاباً وهذا لا مطمع**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٠٧)، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٢٤٩)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣) واللفظ له، وابن ماجة (٤٨)، والإمام أحمد (٢٢١٦٤)، حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٥٣).

في صلاحه فإن التائه عن الطريق يُرجى له العود إليها إذا أبصرها فإذا عرفها وحاد عنها عمداً فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٦]»[١].

٥ ـ واقعية تأثير الكسل البشري على الحركة العلمية، حيث إنّ المطلع في تاريخ الأفكار والمعتقدات يجد أن هناك حقباً تاريخيةً كان الكسل والخمول البشري حاضراً في علومها وفنونها ومؤثراً على أصحابها.

فالشيخ في بعض حقب التاريخ الفقهي قد يمتعض من فتور وكسل بعض طلابه وهكذا، والعارف في تاريخ الفقه الإسلامي يدرك حقبة الانتقال من الرواية بالحفظ والنقل إلى الرواية بالكتب والكتابة، وأن الكسل والفتور كان من أبرز الأسباب في التأثير على هذا السياق.

ـ فعلى سبيل المثال ـ كان الصحابة رضوان الله عليهم «**لا يكتبون الأخبار، بل يحفظونها ويروونها عن ظهر القلب ببركة صحبة النبي ﷺ فلما دنا انقراض عصرهم وبَعُد زمان النبوة صارت الكتابة سُنة أي طريقة مُرضية في الكتاب أي في كتاب الله تعالى والحديث، قال إبراهيم النخعي: كانوا يأخذون العلم حفظاً ثم أبيح لهم الكِتاب أي الكتابة لما حدث بهم من الكسل**»[٢].

ولذلك كان هذا المحرك حاضراً في العقلية الشرعية من باب الاستشراف والتخوف من تأثيره على الحالة العلمية ومن ذلك ما رآه ابن عمر وابن مسعود في كراهة كتابة حديث رسول الله ﷺ مخافة الكسل عن حفظ الحديث واعتماد الراوي على الكتابة[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. (١/ ١١٥).

(٢) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، تأليف: عبد العزيز بن أحمد بن محمد علاء الدين البخاري الحنفي (٧٣٠هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي. (٣/ ٥٠).

(٣) انظر: رسوم التحديث في علوم الحديث، تأليف: برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري (٧٣٢هـ)، تحقيق: إبراهيم بن شريف الميلي. الناشر: دار ابن حزم ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٠م. ص١٢٠.

ولأجل هذا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يجاهدون سيراً في طريق العلم، حرصاً أن يكون المرء من أهله وحزبه، مدركون ألا بد من معارضةٍ لمبدأ الكسل والفتور والركون إلى الدعة والراحة، فقد جعلوا نيل العلم مقابلاً لتعب أجسامهم وحصيلةً لترك راحتهم، ولذلك تجد غير واحد من أهل العلم يقر بهذا المبدأ والمنطلق.

ففي صحيح مسلم «**أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: (لا يُستطاع العلم براحة الجسد)**»[1]، فهذه العبارة ليست من كلام رسول الله ﷺ ولكن ذكرها الإمام مسلم رحمه الله **في صحيحه لقاء معرفته بواقع النصب والتعب في طريق العلم وكونه من الصعب أن ينال ما ناله من العلم وتدوينه للحديث وروايته ودرايته والكسل يعلوه والفتور يكسوه.**

يقول القاضي عياض رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: «**فكثير من يسأل عن ذكره هذا الخبر في هذا الموضع وليس منه، ولا هو من حديث رسول الله ﷺ، ولا من شرط الكتاب، فقال لنا بعض شيوخنا: إن مسلماً** رحمه الله **أعجبه ما ذكر في الباب، وعرف مقدار ما تعب في تحصيله وجمعه من ذلك، فأدخل بينها هذا الخبر تنبيهاً على هذا، وأنه لم يحصل ما ذكر إلا بعد مشقة وتعب في الطلب**»[2].

٦ ـ **واقعية تأثير الكسل والفتور على الأفكار والمعتقدات،** ـ وشواهد ذلك سيأتي بيانها ـ حيث أدرك أهل العلم والمهتمون في الشأن الفكري والثقافي أن للكسل حضوراً في صياغة المفاهيم الفكرية في العقلية الشرعية على وجه الخصوص وفي العقلية البشرية على وجه العموم.

ومن ذلك ما أوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من تأثير الكسل على أهم الأفكار، وحجرَ الزاويةَ في الخلاف السلفي الصوفي (الزهد)؛ حيث بيّن

---

(١) صحيح مسلم (٦١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تأليف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (٥٤٤هـ)، تحقيق: د. يحيى إسماعيل. الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ مصر. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م. (٢/٥٧٨).

أنّ من أبرز الأغلاط الحاصلة في هذه المسألة، هو محرك الكسل والفتور والبطالة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«من زهد زُهدَ الكسل والبطالة والراحة لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع؛ فإن العبد إذا كان زاهداً بطّالاً فسدَ أعظم فساد، فهؤلاء لا يُعمرون الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد الله بن مسعود: إني لأكره أن أرى الرجل بطّالاً ليس في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة»**[١].

٧ ـ التحذير العلمي من وضع العلل العقلية والمعرفية الموصلة إلى الكسل السلوكي، فقد حذر جملة من أهل العلم والفكر أن البعض يضع العلل العلمية لأجل التنصل من العمل التعبدي أو المقتضى من هذه العلة.

ـ فعلى سبيل المثال ـ في سياقات التراثية الإسلامية في تعظيم النص الشرعي، جاء أنه من الامتثال للأمر والنهي الصادر عنه عدم تحميل هذا النص علة غائية يكون وضعها مدعاة للكسل ومنتهية إليه، أو أن تكون معينة للواضع لها على الكسل.

يقول ابن القيم في شرح كلام صاحب المنازل[٢] القائل: **أن «التعظيم: معرفة العظمة، مع التذلل لها. وهو على ثلاث درجات. الأولى: تعظيم الأمر والنهي، وهو أن لا يُعارضا بترخص جاف، ولا يُعرضا لتشدد غالٍ. ولا يُحملا على علة توهن الانقياد»**[٣].

وفي كلامٍ بديعٍ ومنزلةٍ جليلةٍ في استعظام مكانةِ النصّ الشرعي عن أن تشوبَه شائبة، يشرح ابن القيم ذلك فيقول: **«وقوله: ولا يُحملا على علةٍ توهن الانقياد يريد: أن لا يَتأول في الأمر والنهي علة تعود عليهما بالإبطال، كما تأوّل بعضهم تحريم الخمر بأنه مُعلل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرض للفساد. فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شُربه...، وقد بلغ هذا بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملةً. وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معللاً بالإسكار. فله أن يشرب منه ما شاء، ما لم يُسكر.**

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/ ١٥١).

(٢) هو شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي (٣٩٦ ـ ٤٨١هـ).

(٣) كتاب منازل السائرين، لعبد الله الأنصاري الهروي (٤٨١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. ص٨١.

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يُعلل الحكم لعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر. فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم. ولهذا كانت طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور»[1].

حتى انتقل ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إلى إيراد الشواهد والأمثلة من أقوامٍ تعللوا بالعلل تجاه الأحكام والأوامر وتعلقوا بها رجاء الضعف والكسل وعدم الانقياد، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وفي بعض الآثار القديمة**: يا بني إسرائيل. لا تقولوا لم أمرَ ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمرَ ربنا؟ وأيضاً فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتى تظهر له علته، لم يكن مُنقاداً للأمر. وأقل درجاته: أن يضعف انقياده له.

وأيضاً فإنه إذا نظر إلى حكم العبادات والتكاليف مثلاً. وجعل العلة فيها هي جمعية القلب، والإقبال يه على الله فقال: أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة، فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد العبارات فعطلها، وترك الانقياد بحمله الأمر على العلة التي أذهبت انقياده»[2] ثم خرج بنتيجة رَحِمَهُ اللَّهُ أفصح بها عن بالغ الأثر لداء التعلل وتعلق الأحكام بالعلل لإيهانها على النفوس، وإسقاطها من تبعات التكاليف، وكيف أن ذلك أصاب أجواء الفكر والعلم، فيقول: «**وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله. فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله، فكم عطلت لله من أمر، وأباحت من نهي، وحرمت من مباح؟ وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها»**[3].

من شواهد محرك (الكسل والفتور) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

من الشواهد ما يطرأ على الساحة الفكرية من شبهات أو أطروحات علمية، فينأى عنها أقوامٌ لاختيار أمر السلامة والركون عن مقارعة أصحابها،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٦٦ وما بعدها).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٦٦).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٤٦٧).

حتى يكون الكسل المعرفي هو الطاغي والمحرك في هذه الساحة، **فالتثاقل عن المجابهة المعرفية وإبطال الشبهات النازلة جهد وجهاد يتثاقل عنه أقوامٌ، وينال وسام هذا الكفاح والبذل أقوامٌ آخرون، صدقوا ما عاهدوا الله عليه.**

وفي التاريخ الإسلامي نماذجٌ للركون نحو الدعة الفكرية والراحة العلمية والعقدية ابتغاءً للسلامة وطلباً للركود وهروباً إلى الراحة.

ومن أبرز من كان الكسل المعرفي والفتور العلمي محركاً له في بعض أفكاره ومواقفه العلمية، هم بعض علماء الصوفية ومريديهم، حيث إنهم جعلوا من عدم البحث وراء الدليل والعلم أساساً لآرائهم، يقول ابن القيم: «**حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق؟**»[1].

ومن قبل ذلك بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ علاقة همةِ وعزمِ هؤلاء المتصوفة بأبواب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقراءة القرآن بأنهم «**قد يكرهون بعض ذلك ويستثقلونه كما هو من نعت المنافقين الذين قال الله فيهم** ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، **وقد يهجرون القرآن الذي ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه منه بل قد يستثقلون سماعه وقراءته لما اعتاضوا عنه من السماع، وقد يقومون ببعض هذه العبادات الشرعية صوراً ورسماً كما يفعله المنافقون لا محبة وحقيقة ووجداً كما يفعله المؤمنون، وأما الجهاد في سبيل الله فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله وقوة المحبة لأولياء الله وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ما لا يوجد فيهم بل يوجد فيهم ضد ذلك..**»[2].

وفي سياق ترك الأوامر الشرعية لبعض المتصوفة بمحرك الفتور والكسل وعدم التحمل لعبء ما يلزمه العلم والعمل من واجبات، كانت الشكاية

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١٢٣).

(٢) الاستقامة لابن تيمية (١/ ٢٦٨).

المنهجية للطريقة الصوفية من مشايخهم قبل غيرهم في حضور تلك التداعيات.

يقول أبو القاسم القشيري[1] في رسالته إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ويشكو ما وصل إليه الحال ممن ينتسب إليهم فيقول: أنه «**حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم سيرتهم وسنتهم اقتداء...، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام**»[2].

يقول محقق الرسالة: «**يقصد أن طريقة الصوفية في الحقيقة قد زالت معالمها من نفوس الكثير بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة ومخالفتهم الشريعة...**، أي: **جعلوا قلة الاهتمام بأحكام الدين أقوى وسيلة يصلون بواسطتها لمقاصدهم الدنيوية**»[3].

هذا ما أوضحه علماء الصوفية عما أحدثه فاسدو الصوفية من بعدهم من جهة، ومن جهة أخرى ازدراء بعضهم لطريقة علماء الأمة في التبحر بعلوم الشريعة، واحتقارهم للفقه وأهله وكونه جزء لا يتجزأ من اختيارهم للطريقة الأسهل والأقل تعباً من غيرها، ومن تتبع ثنائية العلم والحال في مدارج المفاهيم الصوفية علم وأدرك أن مرتبة العلم تأتي متأخرة بعد منزلة الحال والتي لا تستلزم جهد الأول.

ولذلك أشار ابن القيم إلى مزلق الصوفية في هذه الثنائية بقوله: «**فالكامل من يحكم العلم على الحال فيتصرف في حاله بعلمه ويجعل العلم بمنزلة النور**

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشر ابن كعب، أبوالقاسم، شيخ خراسان في عصره، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها، من علماء الصوفية، وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه، ومن كتبه (التيسير في التفسير، ولطائف الإشارات، والرسالة القشيرية). ولد سنة ٣٧٦هـ وتوفي سنة ٤٦٥هـ. (الأعلام للزركلي ٤/ ٥٧).

(٢) الرسالة القشيرية لأبو القاسم القشيري (٤٦٥هـ) تحقيق: العارف بالله عبد الحليم محمود والدكتور: محمود بن الشريف الناشر: مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر ـ القاهرة. سنة الطباعة: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م. ص١٩.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة من كلام المحقق للرسالة.

الذي يميز به الصحيح من الفاسد لا من يقدح في العلم بالحال ويجعل الحال معياراً عليه وميزاناً، فما وافق حاله من العلم قبله وما خالفه رده ونفاه، فهذا أصل الضلال في هذا الباب، بل الواجب تحكيم العلم والرجوع إلى حكمه وبهذا أوصى العارفون من شيوخ الطريق كلهم وحرضوا على العلم أعظم تحريض لعلمهم بما في الحال المجرد عنه من الغوائل والمهالك»[1].

ذكر ذلك ابن القيم في موطن آخر في سياق حديثه عن فناء الصوفية فقال: **«ولهذا عَظُمتْ وصية القوم بالعلم، وحُذروا من السلوك بلا علم، وأُمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه، وعدم القبول منه، لمعرفتهم بمآل أمره، وسوء عاقبته في سيره، وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبةً به الطريق كل مذهب، فهذا فتنته والفتنة به شديدة، وبالله التوفيق»**[2].

ثم سطّر رَحِمَهُ اللهُ وصفاً لحال المتصوفة، وهمسةَ نصح لهم، أن يفارقوا القاعدين المتعلقين بالأحوال المُعطلة عن العمل وحقيقة الإيمان، بقوله رَحِمَهُ اللهُ: **«وإذا جَمعَ هؤلاء التجهم في الأسماء والصفات إلى شهود الحقيقة، والوقوف عندها، فأعاذك الله من تعطيل الرب وشرعه بالكلية، فلا رب يُعبد، ولا شرع يُتبع بالكلية، ومن أراد الوقوف على حقيقة ما ذكرنا فليُسير طرفه بين تلك المعالم، وليقف على تلك المعاهد، وليسأل الأحوال والرسوم والشواهد، فإن لم تُجبه حواراً، أجابته حالاً واعتباراً، وإنما يُصدق بهذا من رافق السالكين، وفارق القاعدين وتبوأ الإيمان، وفارق عوائد أهل الزمان، ولم يرض بقول القائل:**

دع المعالي لا تنهض لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي»[3].

ومن يطلع على السرد التاريخي لنشوء التصوف الروحي في مرحلته

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ١٩٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٧٨).

(٣) المرجع السابق (١/ ١٨٥).

المغالية المعاصرة يجد أنه كان في فترة «**ضاق العالم الإسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوي عليه من ألوان الشر وضروب الظلم، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهله، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي نعيش في رحابها ونكرع من آثامها وشرورها..**»[١].

فحالٌ كهذه أسهمت في الإقبال على التصوف وانتشاره بين المسلمين كطوق نجاة من حال مريع لا يجد المرء فيه إلا هذا السبيل الفاسد، ومن جانب آخر وهو راحة البال والضمير وهدأة النفس لأن ما هم عليه ـ في ادعائهم ـ أمرٌ معتبرٌ شرعاً فضلاً عن أنه من أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى انتشار الفكرة الصوفية القائلة بسقوط التكاليف الشرعية عن أصحاب الولاية، والتي أتاحت للناس فرصة لدعتهم وسكونهم وكسلهم وإتاحة الطريق لهم للتمتع واللهو بغير حد نهي قاطع أو أمر واجب[٢].

ومن الشواهد الفكرية المعاصرة في حضور محرك الكسل والفتور في المعركة الفكرية والعقائدية، ما صرح به أحد قطبي الصراع الفكري والعقدي بين الإسلام والنصرانية المعاصرة، **وهو المبشر المعروف برئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ مقدمه إلى الشرق في أوائل القرن العشرين القسيس الدكتور: صموئيل زويمر[٣]، حيث إنه ربط الكسل والفتور بالصراع الفكري والمعركة الحاصلة بينهم وبين أبناء المسلمين.**

فيقول في أحد المؤتمرات التبشيرية بعد أن شرح أعضاء المؤتمر العقبات

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني، (السلسلة الفلسفية والاجتماعية ـ ٣)، تأليف: الدكتور: توفيق الطويل. الناشر: مكتبة الآداب ـ الجماميز، مطبعة الاعتماد ـ القاهرة. ص١٢٤.

(٢) راجع: المرجع السابق ص١٥٥.

(٣) هو الدكتور المستشرق المنصر صمويل مارينوس زويمر، ولد في ابريل من عام ١٨٦٧م، عائلته من أصول فرنسية، يعد من أشهر الشخصيات البارزة في حركة التنصير، عاش عدداً من السنين في مصر وبعض البلاد الإسلامية، عقد مؤتمرات تنصيرية عديدة في كل من مصر والهند وفلسطين وتولى تحرير مجلة العالم الإسلامي، وله العديد من المؤلفات والكتابات عن الإسلام، توفي في نيويورك عام ١٩٥٢م. (صمويل زويمر حياته وجهوده التنصيرية، تأليف: د. ناصر بن إبراهيم التويم، الناشر: مكتبة العبيكان ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م، ص٧ ـ ٣٥).

التي اعترضت طريق المبشرين، وأنهم يشكون لرئيسهم بأنهم لم يحققوا له أهدافه وما يطمحون إليه، فقال لهم بعد خطبة طويلة يستحثهم فيها ويشحذ هممهم ويبارك لهم جهودهم بقوله: «**إنكم أعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل. ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات**»[1].

فهذه المكانة التبشيرية لدى زويمر أمام هذا الخَطب الصراعي والنازلة الميدانية التبشيرية لم تمنعه من استحضار ما للكسل وحب الراحة من الإيجابية في ميدان المعركة الفكرية والمنهجية بين الإسلام والمسيحية، فلإدراكه أن للكسل والميل للراحة والفتور عن العمل والعلم تأثيراً على ميزان القوة الفكرية ذكر ذلك وأبلغ من انتدبهم بجدوى عملهم وثمرة تبشيرهم.

(١) انظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار. تأليف: عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني الدمشقي (١٤٢٥هـ). الناشر: دار القلم ـ دمشق. الطبعة الثامنة: ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م. (١/١٠٢).

الاعتبار الشرعي لمحرك الكسل والفتور

مما راعته الشريعة الإسلامية من ناحية الاعتبار في الأحكام، ومن ناحية احتمالية أن يكون محركاً للأفكار والمعتقدات فضلاً عن الأفعال والتصرفات هو (محرك الكسل والفتور)، ويمكن أن أبين أبرز هذه الاعتبارات الشرعية لهذا المحرك، وحضوره في الحالة الفكرية والثقافية وعموم ما يطرأ على الإنسان وما ينتجه من أفكار واعتقادات:

١ ـ **أن الشريعة الإسلامية أمرت بالاستعاذة من (الكسل)**، فبمجرد أن يستحضر الباحث الخطاب الشرعي في هذا الأمر وتكرار دعوته لاستعاذة العباد المكلفين بالأحكام الشرعية منه، يدرك بذلك عظم أثره ووقع حضوره في التصرفات والأفكار، ففي الحديث الشريف أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر**...»[١] الحديث.

تكرار ذلك على لسان النبي ﷺ يعد اعتباراً شرعياً مهماً لمحرك الكسل والفتور أن يصيب المؤمن في حياته عموماً وعلى الوجه التعبدي خصوصاً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «**التمس لنا غلاماً من غلمانكم يخدمني. فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والبخل، والجبت، وضلع الدين، وغلبة الرجال**»[٢].

والمتأمل في حرص الشريعة الإسلامية على استعاذة العبد من الكسل يدرك ميزان تأثير هذا المحرك في الأقوال والأفعال، فالكسل والفتور يمنعان العبد «**من أداء حقوق الله، وحقوق نفسه، وأهله، وتضييع النظر في أمر معاده،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٣).

وأمر دنياه، وقد أمر المؤمن بالاجتهاد في العمل، والإجمال في الطلب، ولا يكون عالةً، ولا عيالاً على غيره، ما متع بصحة جوارحه وعقله»[(١)].

٢ ـ جعلت الشريعة الإسلامية من الكسل صفة وسمة للمنافقين، فالخلاف بين أهل الإيمان وأهل النفاق هو خلاف عقائدي، بل إن كثيراً من الخلاف في المسائل العقدية وعموم الأفكار بين المؤمن والمنافق هو في حقيقته تهاون نفسٍ وتثاقل روحٍ من المنافق تجاه التكاليف الشرعية المناطة به كمكلف.

ولذلك أشار الله ﷻ إلى هذا المحرك وحضوره أنه هو حقيقة السبب تجاه أحكامٍ تكليفيةٍ متعددة، وطاعاتٍ متنوعةٍ في الصدقة حيناً وفي الجهاد أحايين أخرى وكذلك في حال الصلاة وغيرها من الاستلزامات الشرعية، وشواهد إقرار هذه الحقيقة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النِّسَاء: ١٤٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال، وأفضلها، وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها»**[(٢)].

ومن ذلك قوله تعالى بحق المنافقين وحالهم في القيام إلى الصلاة والتي تعتبر أصل العقيدة وأساس التوحيد والمعتقد في الإسلام: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التّوبَة: ٥٤].

وكذلك في حال وشأن الجهاد والقتال جاءت فكرة المنافقين وانتقادهم بأن على المسلمين عدم النفرة والقتال في الحر، وأن هذا التوقيت ليس من المصلحة العامة وغير ذلك من الآراء والقائمة الدالة على خواءٍ قلبي عديم التسليم

---

(١) شرح صحيح البخاري، تأليف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض. الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م. (٢/٤٣٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٤٣٨).

والانصياع، لذلك بين القرآن الكريم أن محرك رأيهم الحقيقي هو الرغبة في القعود وتفشي الكسل فيهم ولذلك فرحوا بالمكث والجلوس، قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

٣ ـ الاعتبار الشرعي بأن يكون الكسل محركاً للفكرة المخالفة للحكم الشرعي، وأن يكون علة معتبرة لبعض المسائل الشرعية، فقد جاءت النصوص الشرعية في أكثر من سياق، محذرة من أن يكون كسل المرء محركاً له أمام الحكم الشرعي التكليفي من جهة، ومن جهة أخرى اعتباره في كيفية التعامل معه حال تأثيره على الجانب التعبدي، من ذلك منهجه ﷺ في الاعتدال التعبدي مخافة أن يعتري العبد طبعه البشري في الكسل.

فهذا الاعتبار الشرعي شاهدٌ أنه قد يكون الكسل والفتور محركاً للأفكار والمعتقدات، ومن هذا قوله ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «**عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه**»(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: «**تخلل الفترات للسالكين أمر لابد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم، رجى له أن يعود خيراً مما كان**»(٢).

وكذلك كان تأثير الكسل في علة الأحكام الفاضلة وتفاصيل المسائل الفقهية ـ فعلى سبيل المثال ـ اعتبر الفقهاء الكسل في الحد من قدر قراءة القرآن في صلاة التراويح وذلك أن يقرأ الإمام «**حسب حال القوم من الرغبة والكسل فيقرأ قدر ما لا يُوجب تنفير القوم عن الجماعة؛ لأن تكثير الجماعة أفضل من تطويل القراءة**»(٣).

ففي ذلك اعتبارٌ بأن الكسل قد يكون محركاً لفكرة فقهية علمية وهي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١/١٦)، ومسلم (٧٨٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/١٢٢).

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، تأليف: أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (٥٨٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. (١/٢٨٩).

تقرير أفضلية التقليل في القراءة على تكثيرها والإطالة بها، ومن ذلك الاعتبار الشرعي ما جاء في الحديث «**ليُصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليقد**»[1].

ويتضح الأمر بصورة جلية في باب الأخذ بالعزائم أو الأخذ بالرخص الشرعية يقول الشاطبي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق الأخذ بالرخص الشرعية: «**الناس في هذا الميدان على ضربين: ضربٌ يحصل له بسبب إدخال نفسه في العمل تلك المشقة الزائدة على المعتاد، فتؤثر فيه أو في غيره فساداً، أو تحدث له ضجراً ومللاً، وقعوداً عن النشاط إلى ذلك العمل، كما هو الغالب في المكلفين، فمثل هذا لا ينبغي أن يرتكب من الأعمال ما فيه ذلك بل يترخص فيه بحسب ما شُرع له في الترخص، إن كان مما لا يجوز تركه، أو يتركه إن كان مما له تركه**»[3].

٤ ـ خطاب الترغيب والترهيب في الشريعة الإسلامية لمعالجة محرك الكسل المُورِث للأفكار المخالفة، قال الرازي: «**أن الخلق جُبلوا على الكسل والغفلة والتواني والملالة فهو يُورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات حتى إنه كلما عرضَ لهم كسلٌ أو فتور نشّطهم للطاعة ورغبهم فيها**»[4].

ومن جنس ذلك في الأحكام الشرعية ما جاء الثواب فيما يترتب عليه من امتحان المرء بترك الراحة والكسل، كما في نصوص ثواب وأجور الصبر على الطاعة والمثوبة بقدر ذلك الصبر، كما في ثواب العمرة ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**أجرك على قدر نصبك**»[5].

وكذلك ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ للتعب الذي يناله المجاهد في سبيله حتى العطش والنصب والجوع يؤجر عليها سعيا في سبيله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٢) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية، له مؤلفات عديدة منها: (الموافقات في أصول الفقه، والافادات والاشادات، والاعتصام..) وغيرها من المؤلفات المنتشرة توفي سنة (٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨م). انظر: الأعلام للزركلي (١/ ٧٥).

(٣) الموافقات، تأليف: إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الناشر: دار ابن عفان. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. (٢/ ٢٣٩).

(٤) تفسير الرازي (٩/ ٤١٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١).

يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

وكذلك زيادة ثواب المتعَب في تلاوة القرآن عن الذي لا يجد تعباً فيه كما في قول رسول الله ﷺ «**الماهر بالقرآن مه السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران**» وفي رواية «**والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران**»[١].

فورود هذا ترغيبٌ في مقاضاة الأجر والثواب للتعب والنصب والجهد الذي يناله المرء من تطبيق وطلب التكاليف الشرعية، مما يعني مراعاةُ أن للكسل تأثيراً على العلم والعمل دفعتها الشريعة لأمر وحال المكلف بورود نيل الثواب وعدم إضاعة الجهد والبذل وما قام به المكلف من طرد للكسل والفتور.

٥ ـ ورود محرك الكسل في صيغ المبايعة الشرعية لرسول الله ﷺ، فالقارئ للأحاديث التي روت لنا أحداث بيعات الصحابة المتفرقة وأقوامهم نجد استحضار النبي ﷺ لمحرك الكسل في سياق بيعة عقائدية ودينية تحمل أفكاراً مغايرة لمعتقدات المبايعين السابقة، تضميناً منه ﷺ لهذا الاستحضار في أمر المبايعة، بأن الكسل قد يعتري فضاء الأفكار والمعتقدات فيؤثر فيها، وعلى ذلك جاءت المبايعة بثقلها على اشتراط تجاوز هذا المحرك، ففي بيعة العقبة الثانية جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «**يا رسول الله علام نُبايعك؟ قال: تُبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت يثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا نبايعه**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٦٥٣) واللفظ له، والبراز في مجمع الزوائد (٦/٤٩)، وابن حبان (٦٢٧٤). وصححه الأرناؤوط في تخريج المسند (١٤٦٥٣).

المحرك الخامس

الوازع الإيماني

«قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلبٍ مال إلى حب شيءٍ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله»

الإمام الغزالي

المقصود من الوازع الإيماني

أصل هذا المحرك: هو **حاجة النفس للإيمان والتدين، وهو أصل الفطرة؛ فإشباع جوعة الروح وظمأ المكنون اليقيني للإنسان فيما يتعلق بالتصورات الغيبية والماورائية، أو ما يتعلق بنهاية البشرية والمستقبل الغائب، أو فيما يتعلق في جزئيات نواميس الحياة وتفاصيلها، تعتبر محركٌ معتبر لجملة من الأفكار والآراء.**

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن: «**كل طائفة من بني آدم لا بد لهم من دين يجمعهم إذ لا غنى لبعضهم عن بعض وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرته فلا بد من اجتماعهم وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم مثل طلب نزول المطر وذلك محبتهم له وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم وذلك بغضهم له فصار ولا بد أن يشتركوا في محبة شيء عام وبغض شيء عام وهذا هو دينهم المشترك العام**»(١).

---

(١) قاعدة في المحبة، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة. الطبعة الأولى. ص٣٥.

فثنائية الإنسان والتدين لا يمكن فصلهما إذا عبّرنا عن المفهوم الشامل، بل إن الباحثين في التاريخ الإنساني أسهموا بحثاً ودراسةً وتنقيباً عما أسموه بـ **(الظاهرة الدينية)** لدى الإنسان وكونها أحد أهم السمات الأساسية للإنسان العاقل (Homo Sapien)، والتي تعبر عن المحاولات الإنسانية للبحث عن الدين المناسب لها كان سماوياً، أو غيره أو حجراً أو هواءً أو بصورته، الحديث المتشكل بالقانون البشري[1].

في سياق هذه القراءة الفلسفية لمحرك الوازع الإيماني وتأثيره في فضاء الأفكار والبحث في جذور الظاهرة الدينية لدى الإنسان، **يمكن أن أذكر أهم العوامل لتشكل احتياج الإنسان للدين**، وذلك من خلال ما يلي:

١ ـ أن الحياة الإنسانية لا تستقيم بشكلها الصحيح في ظل غياب منظومة تنظم سلوك الإنسان في مسيرته المعيشية، أي من الصعب على الإنسان أن يعيش بطريقة تتطابق مع الحيوان في تفاصيلها، فبقدر غياب التهذيب السلوكي بقدر ما اقترب الإنسان من هذا التطابق، فالإنسان الحق يؤدي مهمته الإنسانية، أو يفني عمره محاولاً تحقيقها، «هذه المهمة دائماً هي شيءٌ يتجاوز البعد البيولوجي المجرد، فالحيوانات تحيا أيضاً، ولكي يكون المرء إنساناً ينبغي أن يكون لديه شيءٌ ما أرقى من الحياة البيولوجية فقط. **ليست القضية كيف يعيش المرءُ، بل لماذا يعيش**»[2].

يقول المفكر الرئيس علي عزت بيجوفيتش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا يستطيع الإنسان أن يحيا بدون مُثُل عليا، على الأقل لن يستطيع أن يحيا كإنسان.**»[3].

---

(١) راجع: كتاب الأصنام، تأليف: هشام بن محمد السائب الكلبي. تحقيق: أحمد زكي باشا. الناشر: دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥م. وكتاب ديانات الأرواح الوثنية في أفريقيا السوداء، تأليف: ج. س. فرويليش. ترجمة: يوسف شلب الشام. الناشر: دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر ـ اللاذقية. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

(٢) هروبي إلى الحرية، تأليف: علي عزت بيجوفيتش. نقله إلى العربية: محمد عبد الرؤوف. الناشر: مدارات للأبحاث والنشر ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م. ص٤١.

(٣) هروبي إلى الحرية لعلي عزت بيجوفيتش، ص٩٤.

ويقول في تأثير هذا المحرك في التصرفات والأفكار: «**ولقد بلغ من حيوية هذه الفطرة أن حاول مجموعة من الناس إقامة دين جديد ينبثق منها، ويعتمد في الإلزام على وحيها الباطني، وسموه الدين الطبيعي**»[1].

«ومن الثابت تاريخياً أن فكرة التدين لم تفارق البشرية، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة، لأنها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعاً، لذلك قال بعض العلماء: إن الحضارات المادية في التاريخ كان مبعثها الدين، وإن المجتمع الأوروبي الحديث لم يتخل عن الدين... (وأن أوروبا الحديثة، وأوروبا المعاصرة، مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية، وهي مجتمعات ودول أخذت في الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية)»[2].

وهذا أحد التفسيرات لواقع التدين في الحياة والحضارة الغربية ومن جانب آخر القول إن خواص التدين من الخضوع والاستسلام والانقياد تتحقق في فكرة معينة وضعية كتقديس الطبيعة أو عبادة حضارية غيبية محاولة لتحقيق الاشباع الغريزي للتدين الإنساني.

فالتدين «غريزة مستقلة تختلف عن غريزة البقاء، ولذلك نجد الإنسان متديناً منذ أوجده الله على الأرض، فقد عبد الشمس والكواكب والنار والأصنام، ثم عبد الله تعالى. ولا نجد في عصر من العصور شعباً إلا مال إلى عبادة، حتى الشعوب التي أجبرها السلاطين على ترك التدين أبت إلا أن تكون متدينة، رغم القوة التي سُلطت عليها، وتحملت الأذى في سبيل عبادتها وأدائها لطقوس تلك العبادة، **أما ما يظهر لدى بعض الملحدين من الكفر أو الاستهزاء بالعبادة، فلا يعني الكفر المطلق؛ بل هو تحويل غريزة التدين عن**

---

(١) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، تأليف: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي. الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م. ص٣٩١.

(٢) وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، تأليف: د. محمد الرحيلي. الناشر: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ ـ ١٩٩١م. ص٣٣. انظر: الدين والحضارة الإنسانية للدكتور محمد البهي ص١٢ وص٥٢ وما بعدها.

عبادة الله تعالى إلى عبادة المخلوقات، وتقديس الطبيعة، أو الأبطال أو الإيمان بأفكارٍ أو عقائدَ معينة، أو ما شاكل ذلك وقد استعملوا في سبيلها المغالطات والتفسيرات الخاطئة للأشياء، ومن هنا كان التحول إلى الكفر أصعب من الإيمان؛ لأنه تحويل الإنسان عن فطرته وعن مظاهرها الحقيقية، وذلك يحتاج إلى جهد كبير»[١].

٢ ـ الحاجة الملحة لحضور الإجابات التفسيرية للظواهر الكونية واستحضارها، فلا يزال اللغز الكوني والسلوك المجري قائم في الساحة الفكرية عند العدميين والملاحدة، أو ما يصطلح عليه بـ **(الحجة الكونية)** ومنه كذلك حقل الأفكار التي حملها **(دليل الإتقان والإحكام والتدبير)**، **(ودليل الخلق والابتداء والإيجاد)**، وهذه المثارات الفكرية في العقل الإنساني هي من متلازمات النفس البشرية والمجتمع الإنساني؛ حيث إن «**الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بل أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي يصير إليه الكائنات بعد تحولها**»[٢].

ولذلك كان العقل الإنساني موصل للحقيقة الدينية والإيمانية فبمجرد بداية العقل في أن يفكر في الموجودات من حوله يجد أنه ينتهي به إلى الحقيقة التي خلق من أجلها، وبهذا الاحتجاج الكوني المثار في العقول اعتمد وارتكز عليه رجال الجبهة الإيمانية أمام أصحاب الموجة الإلحادية في الغرب وفي العالم الإسلامي، **ما دفع أستاذ الفلسفة الفرنسي (فردريك كييو**

---

(١) معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة (علم النفس ـ مجمع البيان الحديث). تأليف: سميح عاطف الزين. الناشر: دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري. الطبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م. (١/ ١٩٣ وما بعدها).

(٢) الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، تأليف: الدكتور محمد عبد الله دراز. الناشر: دار القلم ـ الكويت. الطبعة الأولى: ١٣٧١هـ. ص٣٨ وما بعدها.

Frederic Guillaud)[1] يستنهض أصحابه في الجبهة الإيمانية أمام الجبهة الإلحادية لهذا الاحتجاج وأهمية اعتمادهم على العقل بقوله: «يقودنا العقل إلى الإله؛ فلنستثمر الأمر»[2].

٣ ـ محاولات الوصول إلى أرض اليقين والهروب من حيرة الشك وتيهان الفراغ الروحي، أو ما يؤول إليه بعض العدميين، وأصحاب العدمية التشاؤمية «وهي عدمية من فقد الإيمان الديني وفقد الإيمان بالذات وبالموضوع، ومن ثم فهو يدرك استحالة أن يحل أي مطلق محل الإله، أي أنها عدمية تستند أيضاً إلى إنكار إمكانية التجاوز وإلى واحدية مادية صارمة دون أن يدخل عليها أي عناصر مخففة مثل الإيمان بالغائية الآلية.

ومن ثم تسود العالم النسبية الأخلاقية والمعرفية ويدرك المرء اعتباطية القيم الأخلاقية وأنها لا تستند إلى حق أو حقيقة. ويختفي التمييز بين الحلال والحرام والمباح وغير المباح...، ويمكن الفرق بين العدمية والدين في أن العدمية لا تجد طريقاً للخلاص وتكتفي بالاحتجاج الطفولي بتدمير الذات والموضوع، بينما يذهب الدين إلى أنه قد وجد الطريق»[3]، ونظير ذلك ما صرح به العائدون إلى الإسلام بعد رحلة الشك والحيرة وشواهد ذلك كثيرة ومعلومة قديماً وحديثاً[4].

---

(١) فردريك غيو أستاذ فرنسي مبرز في مادة الفلسفة، وطالب سابق في المدرسة العليا للأساتذة. عمل لعشر سنوات في عدة مكاتب وزارية، وصدر كتاب (الله موجود ـ أدلة فلسفية على وجود الله) وترجم الكتاب للعربية وكتب في مقدمته للنسخة العربية: «إن كان هناك شرٌّ قد عُفي منه العالم العربي فهو الإلحاد» وله أيضاً: .

Catholix reloaded, les raisons de croire face aux prejudges contemporains

(استعادة الكاثوليكية: أسباب الإيمان في مواجهة التحيزات المعاصرة) من منشورات Cerf ٢٠١٥م.

(٢) الله موجود (أدلة فلسفية)، تأليف: فريدريك غيو، ترجمة: فاطمة الزهرة بورباب. تقديم: د. البشير عصام المراكشي. الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث ـ السعودية. الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ. ص٢٢.

(٣) رحابة الإنسانية والإيمان، تأليف: عبد الوهاب المسيري، الناشر: دار الشروق ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠١٢م. ص٩٣ ـ ٩٦.

(٤) راجع: العائدون إلى الفطرة (٧١ عائداً وعائدة من الإلحاد واللا دينية إلى الإسلام). جمع وترتيب =

٤ ـ **الطريق للمثالية والطهارة الأخلاقية المتمثلة بالتدين؛** حيث إنه لو ترك الأمر لجموح الإنسان لكان ظالماً ولذلك يندفع من طاله الظلم أو البغي إلى الشكاية الدينية والميل للحلول السماوية أو القانونية السيادية، وشاهد ذلك فواجع الحروب في أوج تنامي خطابات التأليه الإنساني والبعد الديني، فـ «**من الذي أذاق الجنس البشري المكروب ويلات الغاز السام، والأسلاك الشائكة، والمواد شديدة الانفجار، وتجارب تحسين النسل...، والمدفعية الثقيلة، وتبريرات القتل الجماعي المستندة إلى حجج علمية زائفة، والقنابل العنقودية، والغواصات الهجومية...، والصواريخ البالستية العابرة للقارات، والمنصات الفضائية العسكرية والأسلحة النووية؟**»[1].

فمثل هذه الأسئلة تفتش عن خلل إنسانية القرن العشرين حال نزوحه عن التدين، وعلى الصعيد الشخصي للإنسان فتنامي الظاهرة الدينية والأوبة القلبية تجاه الدين والتعاليم بعد ارتكاب الجريمة أو الذنب والشعور الذي ينتابه بعد ذلك يدفعه إلى الإيماني الذي ينتهي به إلى القناعة السلوكية والعقلية.

٥ ـ **الإشباع الروحي في عالم الماورائيات والغيبيات غير المحسوسة،** فالإنسان بطبيعة حاله لا بد له من إشباع هذه المساحة القلبية والذهنية وسواءً تمت بالطريقة الصحيحة أو غيرها، غير أن هذا العامل له حضوره في دفع الإنسان للتدين بفطرته، والباحث في أحوال كثير ممن أشبع هذه الغريزة ـ إن صحت العبارة ـ أيا كان هذا الإشباع صحيحاً أم خاطئاً يجد أن الروح تطمئن بتجاوزه المسألة الحسية إلى ما بعدها من الفضاءات.

= وتوثيق: م. أحمد حسن وآخرون. الناشر: مركز دلائل ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ. رحابة الإنسانية والإيمان. تأليف: عبد الوهاب المسيري. هروبي إلى الحرية. تأليف: علي عزت بيجوفيش. ترجمة: محمد عبد الرؤوف. مراجعة وتقديم: د. شكري مجاهد. النشر: مدارات للنشر والتوزيع ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ. المخرج الوحيد (ملحمة الخلاص بين قلق السعي ومدد الوحي) تأليف: د. عبد الله بن سعيد الشهري. الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث ـ السعودية. الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ. ص٩٧. وغيرها من المراجع الكثير.

(١) وهم الشيطان، تأليف: ديفيد بيرلنسكي. ترجمة وتعليق: د. عبد الله بن سعيد الشهري. الناشر: مركز دلائل ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ. ص٥١.

فعُباد الأصنام والأوثان ـ على سبيل المثال ـ تجاوزَ هدفُهم الهياكلَ الملموسة الخاصة بهم، والتي لا تستدعي معاني العبودية والتكريم والتبجيل بذاتها وملمسها، إلى زعمهم أن هذه الأشياء تملك القوة الغيبية، والرمز السري الغامض والذي يستوجب منهم هذا التقديس البليغ، فهي في نظرهم أشبه بالتمائم والتعويذات التي يتفاءل بها أحدُهم ويُستدفعُ بها الحسد ونحو ذلك من الشعور الماورائي[1]، **في معجم لاروس: «إن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[2] وأن هذه الغريزة «لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل، إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد»[3]**.

وهذا منشأ أن الفطرة في أساسها وأصلها هي ميل للظاهرة الدينية والالتزام الديني، ولذلك لا تجد إنساناً عاقلاً واعياً إلا كان له حظ ونصيب في التطلع إلى الحقيقة الماكثة خلف المحسوس والمستقرة في الغيب.

بل إن مرحلة إثارة هذه التساؤلات المحاوِلةُ لكشف ذلك تكون أحد المؤشرات التي ينجم عنها ويصبح مفادها أن الطفل ينمو عقله بشكل صحيح وأنه يصعد في سلم النضج والبلوغ الذهني، فإن الوازع الإيماني هو محركٌ جاء «**من غريزة التطلع إلى الغيب ومحاولة معرفة الحقيقة الرابضة وراءه، وعدم الوقوف عند حدود الواقع الحسي، والعودة إلى التأمل في المسائل الأزلية**»[4].

٦ ـ إرادة النفس الإنسانية الموصلة للدين، وهو أن مقتضى النفس البشرية في كونها ذات إرادة وشعور، وهذه الإرادة تكون متعلقة بمراد غيرها، ولو كانت لنفسها ستكون هي الإله، وهذا ما يتنافى مع لوازم حقيقة النفس

---

(١) انظر: الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، تأليف: الدكتور محمد عبد الله دراز. ص٤٢.

(٢) نقلاً عن: المرجع السابق ص٨٢.

(٣) نقلاً عن: المرجع السابق ص٨٣.

(٤) وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه ص٣٤.

المتعلق بمراد الغير، وبذلك لا يتعلق المراد إلا به سبحانه، لأن جميع المخلوقات إنما تكون مرادة لغيرها، فلا بد أن تتعلق الإرادة بالخالق.

أقام **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ **هذا التسلسل المنطقي للنفس البشرية** بعد أن سبر أغوارها حيث يقول: «**أن النفس لا تخلو عن الشعور والإرادة، بل هذا الخلو ممتنع فيها، فإن الشعور والإرادة من لوازم حقيقتها، ولا يتصور أن تكون النفس إلا شاعرةً مريدة، ولا يجوز أن يقال: إنها قد تخلو في حق الخالق تعالى عن الشعور بوجوده وعدمه، وعن محبته وعدم محبته، وحينئذ فلا يكون الإقرار به ومحبته من لوازم وجودها، ولو لم يكن لها معارض، بل هذا باطل...**

وإذا كان لابد للإنسان من مراد لنفسه، فهذا هو الإله الذي يألهه القلب. فإذا لابد لكل عبد من إله. فعُلم أن العبد مفطور على أن يحب إلهه...

فإن قلت: ما ذكرته يستلزم أنه لابد لكل حي من إله، أو لكل إنسان من إله، لكن لم لا يجوز أن يكون مطلوب النفس مطلق المألوه، لا مألوها معينا، وجنس المراد لا مراداً معينا؟

قيل: هذا ممتنع، فإن المراد إما أن يُراد لنوعه أو لعينه، فالأول مثلُ كون العطشان يرد ماء، والسغبان يريد طعاماً، فإرادته هنا لم تتعلق بشيء معين، فإذا حصل عين من النوع حصل مقصوده، والمراد لذاته لا يكون نوعا، لأن أحد المعنيين ليس هو الآخر، فلو كان هذا مراداً لذاته، للزم ألا يكون الآخر مراداً لذاته، وإذا كان المراد لذاته هو القدر المشترك بينهما، لزم أن يكون ما يختص به أحدهما ليس مراداً لذاته. . .

والكلي لا وجود له في الأعيان إلا معيناً، فإذا لم يكن في المعينات ما هو مراد لذاته، لم يكن في الموجودات الخارجية ما هو مراد لذاته، فلا يكون فيها ما يجب أن يألهه أحد، فضلاً عما يجب أن يألهه كل أحد.

فتبين أنه لابد من إله معين، هو المحبوب لذاته من كل حي، ومن الممتنع أن يكون هذا غير الله، فلزم أن يكون هو الله، وعلمة أنه لو كان فيهما

آلهة إلا الله لفسدتا، وأن كل مولود ولد على محبة هذا الإله»[1].

والحاصل أن المراد من هذا المحرك والمؤثر على الأفكار (الوازع الإيماني) ـ رغم تعدد عوامل تشكله ـ هو ذلك: المكنون الذاتي المتشكل في النفس البشرية الذي يدفعها للميل إلى سلوك الظاهرة الدينية، والقناعة بعموم الأفكار الملبية لهذا المكنون.

من شواهد محرك (الوازع الإيماني) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز شواهد حضور تأثير الوازع الإيماني في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هي وقائع وقصص الباحثين عن اليقين والراحة الروحية والقلبية وكون ذلك كان من بواعث أنفسهم وذواتهم ودواخلهم، لم يُملى عليه أمر أو توجيه خارجي عنه، **وكذلك ما كان قديماً عند آحاد وأفراد قبائل العرب قبل بعثة النبي ﷺ حيث إن من كان متعلماً ومدرك لأمر عبادتهم استنكر منهم ما يقومون به من العبادة للأوثان والأصنام.**

كما أن حاجة إشباع الرغبة الدينية في نفوسهم لم تُلبيها وتُطفئها طقوس الجاهلية، ولذلك بوب ابن هشام في السيرة النبوية عن هؤلاء النفر بقوله: (تشككهم في الوثنية)، يقول: «**واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويُديرون به، وكان ذلك عيداً لهم، في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل...، وعبيد الله بن جحش..، وعثمان بن الحويرث...، وزيد بن عمرو بن نُفيل..، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نُطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟! يا قوم التموا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في**

---

(١) درء تعارض العقل والنقل. تأليف: أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم. طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض. الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الجيزة ـ مصر. الطبعة الثانية: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م (٨/ ٤٦٤ ـ ٤٦٧).

البلدان يلتمسون الحنفية، دين إبراهيم»[1].

فهؤلاء الأربعة كانت دواخلهم واحتياج إنسانيتهم تحركهم نحو التدين والسعي له، رغم المحاولات حولهم إلى إشباع هذا الباعث ومحاولة تلبية رغبات وحاجة نفوسهم وما تتطلبه إنسانيتهم وحياتهم، ولذلك لم تكن عبادة الأصنام من حولهم ومن بين قومهم كفيلة لهدأة نفوسهم.

حتى يذكر ابن هشام غاية حالهم وما آل إليه أمرهم بعد رحلتهم محركَهم بقوله: «**فأما ورقة بن نوفل** فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علماً من أهل الكتاب. وأما **عُبيد الله بن جحش،** فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصّر، وفارق الإسلام، حتى هلك هنالك نصرانياً...، **وأما عثمان ابن الحويرث** فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر...، **وأما زيد بن عمرو بن نُفيل** فوقف، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان...»[2] وكان من قوله وما كان يهتف ويدعو به: «**اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه**»[3].

وحكى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **رحلة زيد بن عمرو بن نفيل في البحث عن الدين بقوله: «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرجَ إلى الشام يسأل عن الدين...»**[4].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **«ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام»**[5].

ومن الشواهد كذلك على حضور تأثير الوازع الإيماني المنبعث من

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٢١٣هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي - لبنان - بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. (١/ ٢٥٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٥٣).

(٣) المرجع السابق (١/ ٢٥٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٢٧).

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ابن تيمية الحراني الدمشقي (٧٢٨هـ). تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد. الناشر: دار العاصمة - السعودية. الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. (٥/ ١٦٩).

الدواخل الإنسانية على الأفكار، هو ما يتردد كثيراً من قصص وحكايات العائدين إلى الإسلام، والمهتدين إليه، وإقرارهم بأن دوافعهم وما كان يثيرهم وما ينطلقون منه هو (البحث عن الدين المناسب لهم والذي يلبي احتياجهم)، والمتأمل لقصص هؤلاء المهتدين يجد حضور هذا المحرك حضوراً جلياً على ملامحهم وفلتات ألسنتهم وصريح أقوالهم.

فعلى سبيل المثال قول أحد المهتدين إلى الإسلام[1] عن رحلته في البحث عن الأفكار الملائمة لغاية محركه: «**بدأت أفكر، وأبحث عن السعادة التي لم أجدها في الشهرة ولا في القمة، ولا في المسيحية، فطرقت باب البوذية، والفلسفة الصينية، وصرت قدرياً وآمنت بالنجوم... ولكني وجدت ذلك كله هراء، ثم انتقلت إلى الشيوعية، ولكني شعرت أن الشيوعية لا تتفق مع الفطرة فأيقنت ـ إذ ذاك ـ أنه ليس هناك عقيدة تعطيني الإجابة وتوضح لي الحقيقة ـ ولم أكن أعرف عن الإسلام شيئاً بعد ـ، فرجعت إلى معتقدي الأول وهو ما تعلمته من الكنيسة، بأن الكنيسة أفضل من تلك قليلاً**»[2].

إلى أن قال بعد اعتناقه للإسلام «**لقد أجاب القرآن على كل تساؤلاتي وبذلك شعرت بالسعادة، سعادة العثور على الحقيقة، ووجدت في القرآن كيف أن هذه السعادة هي الخالدة**»[3].

وشواهد هذا الشعور في الحصول والوصول إلى غاية التأثير التديني كثيرة جداً في شعور ومشاعر المسلمين الجدد، والفاحص لمثل هذه الأحوال والأخبار التي يفصح فيها أصحابُها عما بدواخلهم يجد ويلحظ جلياً حضور وتأثير هذا المحرك في الأفكار والسير العقلي والعلمي والبحث عن المعتقدات[4].

---

(١) هو الفنان الإنجليزي الشهير (كات ستيفينز) والذي سمى نفسه بعد الإسلام (يوسف إسلام).

(٢) نقلاً عن: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، تأليف: د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي. الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م. ص٣٥٠.

(٣) المرجع السابق ص٣٥١.

(٤) انظر: العائدون إلى الفطرة (٧١ عائداً وعائدة من الإلحاد واللا دينية إلى الإسلام)، إعداد: مركز دلائل، الناشر: مركز دلائل ـ المملكة العربية السعودية ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ.

الاعتبار الشرعي لمحرك الوازع الإيماني

لقد أولى الإسلام أمر هذا الوازع المكنوني لدى الإنسان أهمية عظيمة، وإن ميل الإنسان نحو الظاهرة الدينية، أو حاجته إلى ذلك، وحضور المكنون في الإنسان الذي يدفعه لاعتناق الدين، والذي عبرت عنه (بالوازع الإيماني)، أمرٌ اعتبره وقرره الشارع الحكيم، في مباحث (**الفطرة**) الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فضلاً عن مواطن التشريع فيما يُرغّب النفس البشرية في الدين، وصلاحيته للعقل، والزمان، والمكان.

ويمكن بيان مواضع هذا الاعتبار الشرعي لمحرك الوازع الإيماني من خلال: بيان **مخاطبة النص الشرعي للمكنون الإنساني،** أي أن الشريعة أخذت بعين الاعتبار هذا المحرك في قرار نفس الإنسان، فجاءت الأدلة الشرعية مراراً لتؤكد على اعتبار ذلك، ومن هذه الأدلة ما يلي:

ـ **الآيات القرآنية التي تحدثت عن الحقيقة البشرية حال شدة الخوف واحتياجها للجوء إلى الله في مثل هذه الأحوال،** قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يُونس: ٢٢] ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٦٧]، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزُّمَر: ٨] وقوله تعالى في حقيقة اللجوء الإنساني بأسلوب استفهامي: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعَام: ٦٣ ـ ٦٤].

فالخطاب القرآني بين بصورة واضحة أمام الإنسان حقيقة هذا الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان، وما سيؤول إليه شأنه حال اشتداد الكرب

عليه ومن حوله، فالخطاب الشرعي لم يُهمل شأن هذا المحرك وحضور تأثيره في النفس البشرية، ومدى أهمية ثمرة استنهاضه في كوامن الإنسان.

وذلك لأن «التدين عنصر مما فطر الإنسان عليه، ولا تفارقه طول حياته، وإن تأثر بتلك العوامل، لأن هذا المحرك المخبوء يبرز إلى الظهور»(١).

- **الشواهد القرآنية للإنسان الظالم نفسه بنكرانه حقيقة ميله للدين ثم نهاية إقراره لهذه الحقيقة،** فأعظم شاهد قرآني أمر وحال (**فرعون**)، ففرعون هو أيقونة الجحود، جحود العبد لخالقه، حيث هتف فرعون بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨] ثم دخل في سلسلة أدلة وهمية وجدال مختلق في محاولة لوأد مكنون الفطرة في دواخله، والتي أقرها وأظهرها ونطق بها لسانه يوم أن أدرك هلاكه قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠].

- **الأسئلة القرآنية التي استثارت المكنون الإنساني وحقيقة حاجة الإنسان للإجابات في عالم الغيبيات ودقة الكون،** قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

وبهذه التساؤلات القرآنية جاءت الرسل وحملوا على عاتقهم استثارة المكنون الذاتي في النفوس، وجعلوا منها نذيراً لتحريك كوامن الناس وإيقاظ دواخلهم، ومنها قول رسول الله ﷺ لأبي عمران بن حصين: «**كم تعبد اليوم**

---

(١) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، تأليف: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الناشر: مكتبة وهبة ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. ص٢٨٣ وما بعدها.

إلهاً؟ قال: سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء، قال ﷺ: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء..»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق، فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه، فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة، ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة، إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به، وكل مولود يولد على الفطرة، لكن عرض للفطرة ما غيرها، والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته، ولهذا قال الله تعالى في خطابه لموسى:** ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤] **ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه، ويعرف إنعامه عليه، وإحسانه إليه وافتقاره إليه فذلك يدعوه إلى الإيمان أو يخشى ما ينذره به من العذاب فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان»**[2].

فحين يؤكد الخطاب القرآني على أصل وحقيقة ميل الإنسان إلى معرفة الله عز وجل في أكثر من حال وشأن، ويستثير الإنسان للوصول إلى هذا الأصل، فذلك اعتبارٌ شرعي ومراعاة منهجية للمحرك التديني لدى الإنسان.

وقد برع ابن القيم رحمه الله **في تقرير أن الخطاب القرآني ما فتئ يخاطب هذا المكنون في دواخل النفس البشرية بالذكرى والتذكير كون أن معرفة الله** سبحانه وتعالى **من مستقرات النفس** كما هو في الطعام والشراب، وأن النفس البشرية إذا استثيرت دواخلُها تحركت إرادتُها، يقول رحمه الله: أنه «لو خوطب الجائع أو الظمآن بوصف طعام أو خوطب بوصف النساء فإن هذا مما يذكره ويحركه ويثير شهوته الكامنة بالقوة في نفسه لا أنه يحدث له نفس تلك الإرادة والشهوة بعد أن لم تكن فيه فيجعلها موجودة بعد أن كانت عدما، فكذلك الأسباب الخارجة عن الفطرة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٤٣)، وأخرجه الترمذي (٣٤٨٣) واللفظ له، والبراز (٣٥٨٠)، والطبراني (١٨/ ١٧٤) (١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٨).

ومحبته وتعظيمه والخضوع له، وإن كان ذلك مذكراً ومحركاً ومنبهاً ومزيلاً للعارض المانع.

ولذلك سمى الله سبحانه ما كمل به موجبات الفكرة بذكر أو ذكرى وجعل رسوله مذكراً فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغَاشِيَة: ٢١] وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: ٩] وقال ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غَافر: ١٣] وقال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قَ: ٣٧]. . . ، **وهذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكر لهم بما هو مركوز في فطرهم من معرفته ومحبته وتعظيمه...، فالفطر مركوز فيها معرفته ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره»**[(١)].

وقد قرن الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأمر الرباني في النفس البشرية والعوارض هي ما تعدله عن هذا الأصل كالطعام والشراب وغيرها من الأمور المغروسة في المكنون الإنساني فيقول عنه: «**أما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلبٍ مال إلى حب شيءٍ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله**»[(٢)].

- الآيات القرآنية التي أوضحت إخفاق المحاولات البشرية في إشباع محرك الإيمان لديها، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم وفي غير موضع بيّن فساد حال من أخطأ في إشباع محركه ومحركه التديني، في الإجابة عن أسئلة الوجود والغيبيات أو في محاولة إيجاد الصانع المبدع لهذا الكون الدقيق، أو في سياق البحث عن الأمن والحيرة ودفع الضر ونيل الخير والنفع، فجاء ذلك

---

(١) شفاء العليل ص٣٠١.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٥٩).

بأسلوب تحدٍ لهذه المحاولات أن تقوم نتائجها بخلق مظاهر الكون والطبيعة والإنسان أو أنها تملك النفع أو الضر لنفسها أو لغيرها.

وجاءت الآيات الكريمة باستثارة هذا المحرك مرة أخرى من حيث إن محاولة ما هم بصدده وما عليه من عبادة ودين ليس بحق في أن يشبع محركهم وما يطمحون إليه في محاولتهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النّحل: ٢٠ ـ ٢١] وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مَريَم: ٤٢] ويقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النّحل: ١٧] ويقول تعالى متحدياً كل المحاولات البشرية التي تسعى لإشباع دوافعها ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعَام: ٤٦].

فالقارئ لأمثلة هذه الآيات المباركات يدرك أن الشريعة راعت هذا المحرك من حيث الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وقبول ما جاءت به من أحكام وأفكار ومعتقدات، ومن حيث التناول والاعتبار في ميل الإنسان إلى أصله التديني.

المحركات العقلية

المحرك الأول: التصور المادي.

المحرك الثاني: الجهل المعرفي.

المحرك الثالث: تحرر العقل والاعتداد به.

المحرك الرابع: التباين والتفاوت المنهجي.

المحرك الخامس: الغموض في الأفكار وأساليب طرحها.

المحرك الأول

التصور المادي

المقصود من محرك التصور المادي

هو أن يكون تصور الشخص عن الحياة من خلال منظوره المادي، هو الذي يدفع به إلى اعتناق بعض الأفكار والتي لولا وجود هذا التصور نحو الحياة لم تتشكل هذه المجموعة من الأفكار والمعتقدات.

حتى تكون الفكرة بشكلها النهائي ـ المتلفظ بها ـ هي ما تقتضيه رؤيته وتصوره للأشياء من حوله، وبذلك ندرك أن هذه الفكرة وحقيقة أمرها وحالها هي تصوره المادي للحياة لا ما تحمله الفكرة من قوة أو خلافه، فضلاً عن أنها تمتثل الحق والصواب أو الفساد والخطأ.

وحين أعبر عن المحرك بأنه تصور مادي لا أعني به المادية الفلسفية العامة أو الجدلية الديالكتيكية[1] المقابلة للعلم النظري المثالي، والتي لا تقبل سوى المادة وتجعل من التجربة منهجاً لها في قضايا الوجود وتجيب بها عن

---

(١) المادة الديالكتيكية هي النظرية العامة للحزب الماركسي، والتي تجعل من الحوادث الطبيعة طريق لها في البحث والمعرفة، وهي كلمة يونانية واشتقاقها الأصلي من (ديالوج) بمعنى: محادثة.. مجادلة.. مجاذبة أطراف الكلام. انظر: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، تأليف: ستالين، إشراف: خالد بكداش. الناشر: دار دمشق للطباعة والنشر ـ المكتبة الاشتراكية. ص١٩ ـ ٤٢، وكتاب مدخل إلى المادة الجدلية (المادية والمنهج الجدلي)، تأليف: موريس كونفورث، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة: ٢٠١٥م. ص٨ ـ ٦٥، كتاب نقض أوهام المادية الجدلية، تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي. الناشر: دار الفكر ـ دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م. ص١٧.

أسئلة الكون وقضايا الميتافيزيقيا والإنسان، ولا هي بالمعنى الاقتصادي البحت والأمور المتعلقة بالجانب المالي، وإنما الذي أعنيه وأقصده هو ما يتعلق بالجانب الحياتي والمعيشي والواقعي، والذي هو أبعد ما يكون عن الجانب الروحي، وأقرب ما يكون إلى القضايا الحياتية الواقعية.

وقد صدق المفكر الدكتور عبد الوهاب المسيري[1] يوم قال: «**وكلمة مادة قد تبدو لأول وهلة وكأنها كلمة واضحة، ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك**»[2].

«**ثم إن مفهوم المادة واسع جداً، إنه أوسع المفاهيم، إذ هو يشمل جميع الأشياء والظاهرات المنبثقة في العالم، ومن أهم خواصها وأبرزها أنها موجودة وجوداً موضوعياً، أي مستقلاً ومنفصلاً عن ذات الإنسان وفكره**»[3].

وبالتعبير عن التصور المادي أعني بذلك التصور وليس (العقل أو المذهب المادي)، أي أنه قد يكون صاحبه في أطر الأديان وليس من اشتراط ذلك أن يتبنى نظرية فلسفية مادية، فالعقل المادي منظومة عرفها الفلاسفة الماديون بأنها: «**صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات الحسية لتصبح أفكاراً بسيطة، وتتجمع الأفكار البسيطة من تلقاء نفسها ـ ومن خلال قوانين الترابط ـ لتصبح أفكاراً مركبة، وتستمر عملية التركيب إلى أن نصل إلى ما نتصور أنه الأفكار الكلية والثوابت والمنطلقات مع أنها في واقع الأمر مجرد أحاسيس مادية، فكأنه لا يوجد في العقل شيء لا يوجد أصلاً في الواقع المادي. هذه**

---

(١) هو عبد الوهاب بن محمد المسيري، (١٩٣٨م ـ ٢٠٠٨م)، مفكر مصري يعد أبرز من ألف عن اليهود واليهودية والصهيونية، وهو من أشهر الكتاب والمفكرين والمؤلفين العرب في القرن العشرين، من مؤلفاته وكتبه: (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، الفردوس الأرضي). انظر: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، تأليف: عبد الوهاب المسيري، الناشر: دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة السادسة ٢٠١٥م.

(٢) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، تأليف: الدكتور عبد الوهاب المسيري، الناشر: دار الفكر المعاصر ـ لبنان ـ بيروت، الطبعة الرابعة ـ ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م. ص١٧.

(٣) نقض أوهام المادية الجدلية، تأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي. الناشر: دار الفكر ـ دمشق. الطبعة الثالثة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م. ص٣٨.

هي الصورة المبدئية للعقل المادي»[1].

فالتصور المادي: هو الرؤية الأولية للأفكار الجزئية، والتي تنطلق من معطيات الواقع ونتائجها، وظواهر الحياة وصيرورتها، وطبيعة الأشياء المعيشية ومشاهدها، والتي تجعل من العمارة والعمران والصناعات والأسلوب المدني أولوية حياتية. وهي أقرب للفكرة العلمانية منها إلى الفكرة الدينية، وهذا التصور ليس بكونه منهجاً فلسفياً وإنما محرك ومؤثرٌ على تشكل جزئيات الأفكار والمعتقدات.

وفي معجم اللغة العربية عُبّر عن وصف الرجل بالمادي أنه «**اسم منسوب إلى مادّة ومادية: وهو مقابل للروحي أو المعنوي (اعتبارات مادية..، تتجاذب الإنسان نزعات مادية وأخرى روحية)»**[2].

ولأوضح أكثر وعن كثب المراد والمقصود من المحرك (التصور المادي) يمكن أن أبين أبرز ملامح هذا التصور، وأهم المحددات المفاهيمية لهذه الرؤية المادية:

١ ـ المغالاة في قيمة المدنية والحضارة والعمارة والنهضة، حيث إن من يعتريه التصور المادي يعتبر أن هذه المفاهيم لابد أن تعطى أولوية في حياة الإنسان، وقد لا يقضي ذلك بطلان ما يعتقده من دين أو اتجاه، فتكون المغالاة بقدر الأطر المنهجية المحددة له في منظومته الفكرية العامة، وليس أن تكون هذه المغالاة بذاتها منهجاً له في صناعة الأفكار الكلية للحياة والشاملة لها في الإجابة عن التساؤلات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان منزلة الدنيا أمام الدين لأصحاب هذا التصور الغالي عن الحياة الدنيا، في سياق أثر الضرر الدنيوي على العبد أمام الضرر الأخروي: «**وهذا كله ضرر دنيوي لا يُعتد به إذا سلم**

---

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص٨١.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، الناشر: عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م. (٣/٣٠٧٨).

العبد، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم، فهم لا يُبالون بذلك، وأما دين العبد الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه»[1].

٢ ـ **السعي الحثيث وراء تحقيق الرفاه المعيشي**، فالتصور المادي ـ على سبيل المثال ـ لا يجعل من المعايير الأخروية الشرعية الحاكمة للسعادة والراحة وانشراح الصدر اعتباراً وقيمة كما يعطي قيمتها المسلم المتعلق بالمعايير الشرعية، وعلى هذا يتم التعامل مع جزئيات الحياة، في اختيار الوظيفة والزوجة والمسكن وما يتعلق بالأفكار الجزئية التفصيلية وتأثير هذه السمة على نتاج عقله.

٣ ـ **التقليل من الجوانب والأطروحات الروحية والدينية والميل إلى العقلنة والبراهين العلمية**، فالتصور المادي بطبيعته لا يعطي الروحانيات ـ أفكاراً كانت أو سلوكاً ـ قيمة اعتبارية كما يعطي العقليات من معلومات وأفكارٍ وسلوك قيمة واعتبارا، كما أن منزلة الغيبيات الإيمانية في هرم وسلم التصور المادي ليست بالمنزلة المعتبرة أمام غيرها من الحقائق المادية والمعلومات الواقعية.

٤ ـ **تجاوز حاكمية التراث من ناحية الحكم في التصورات أو اعتباره في الهرم العلمي والمعرفي**، فالتصور المادي لا يولي التراث الديني أولوية أو حتى اعتباراً في جانب الحكم على الأشياء الحياتية، كما أنه لا يُوليه مساحة معتبرة في معادلته العلمية، فعلى سبيل المثال حين يبحث المادي في جدوى فكرة معينة لا يستحضر فيها القول التراثي متمثلاً بابن تيمية أو غيره من علماء السلف فضلاً عن أن يكون رأي الأخير معتبراً في الحكم النهائي للأشياء من حوله.

بل إن الأمر قد يتجاوز ذلك عند أصحاب هذا التصور إلى الاستخفاف بمن يجعل من التراث حاكماً له في القضايا المعاصرة أو أن يأخذه بعين الاعتبار في أولوية الأطروحات الحديثة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٠٣).

«فبعد أن كانت هذه الشريحة الشبابية تنظر إلى التراث الإسلامي باعتباره النموذج المشع الذي تستلهم منه المثل والقيم، وينتصب أمامه بسكينة الانتماء، أصبح بعض هؤلاء الشباب ينظرون إلى التراث باعتباره ألبوم التصرفات البدائية المخجلة الذي لا يجب أن يفتح إلا مع ابتسامة اعتذار، مع استخفاف عميق بمواقف رجالاته وأعلامه»[1].

٥ ـ وقوع الحرج من الأحكام الشريعة التي تقلل من قيم ومفاهيم النظرة المادية، فالقيم المادية المتمثلة في مغالاة العلل العقلية يصاب أصحابها بالحرج في أنفسهم حين تغيب أمام العلل التعبدية، فضلاً عن أن يقوم الحكم الشرعي المعتمد على العلة التعبدية في التقليل من قيمة مادية أخرى كالمغالاة في النهضة المعاصرة ـ على حد زعمهم ـ أو الحرية المطلقة كقيمة معاصرة دولية معتبرة.

فصاحب التصور المادي ـ على سبيل المثال ـ تجده يقع في الحرج أمام سفك دم الأضحية لكونه تعبداً يعارض القيمة التنموية والنهضوية والإنسانية، فضلاً عن حدود الردة والسرقة وغيرها من الأحكام الشرعية، فالرؤية المادية للحياة تنظر بخجل لآياتٍ يقرؤها المسلمون جهراً في صلواتهم عن ذم الدنيا والرفاه فضلاً عن الآيات الكريمة التي أوضحت منزلة الكافر الجاحد للحق وكونه في منزلة الأنعام إن لم يكن أقل أمام منزلة المؤمن، وغيرها من الموازنات القرآنية التي تقف أمامها الرؤية المادية متوارية عنها.

٦ ـ الانبهار والافتتان بالقوة المادية الحديثة، حيث يجعل أصحاب التصور المادي معايير الانتصار والغلبة الحقيقية أنها فقط في أطر التفوق التقني والآلات الصناعية المتطورة من ناحية، ومن ناحية أخرى السعي في مناشدة القوة ومناط تحققها وطلبها في عملية التثاقف الحضاري، وغيرها من النواحي المتعددة، وكل ذلك مقابل التجاهل لقيمة أن للمعتقدات والأفكار قوة توازي أو تقارب قوة المادة المدنية الحديثة.

---

(١) مآلات الخطاب المدني، تأليف: إبراهيم بن عمر السكران. الناشر: مركز تفكر للبحوث والدراسات ـ مصر، الطبعة الأولى: ١٤٣٥/ ٢٠١٤م ص٢٠.

وهذه الملامح قصدت إيرادها؛ لتوضيح المراد من المحرك وبيان محددات المقصود منه، لأن التعبير بـ (المادي) قد يأخذ بالقارئ للمفردة إلى أبعادٍ معرفيةٍ ومفاهيمَ هي أبعد ما تكون عن المعنى المنشود والمراد من المحرك، ويمكن أن أبين علاقة محرك (التصور المادي) ومدى صلته وتأثيره بعالم الأفكار والمعتقدات من خلال ما يلي من توضيح وبيان:

١ ـ حتمية تأثير المنطلقات والتصورات الذهنية على الأفكار والمعتقدات، فلا يمكن لسياقات تواردِ الأفكار ومسارات توالدها أن تتجاوز المرحلة الأولى في التصور الأساسي الذي ينطلق منه الإنسان، فالنظرة الكلية والعامية للحياة هي أساس ومنبع تشكل الأفكار الجزئية سواءً كانت في صلب الحياة وطبيعتها أو في الأطروحات العقلية والمنطقية البحتة.

٢ ـ المساحات الثقافية والفكرية المشتركة بين قيم ومفاهيم التصور المادي وعالم الأفكار، فالمستعرض لمفاهيم التصور المادي ـ التي تجعل من المدنية المعاصرة والعمران الحضاري أولوية ـ يجد أنها تتقاطع وتلتقي مع مفاهيم عقلية فكرية ذات ارتباط وثيق في المعتقدات والأفكار.

ـ فعلى سبيل المثال ـ في القضية الجوهرية وهي منزلة الحضارة والعمران المقدس في التصور المادي يقف القرآن الكريم أمام هذه النتيجة ويعتبرها مشكلة جوهرية في هرم الأولويات العقدية وليست مشكلة ثانوية لا علاقة لها في الإيمان والكفر، وغيرها من الأمثلة في أبواب الحرية مقابل الحدود، والكافر المتطور أمام المؤمن القوي.. إلخ.

٣ ـ الوقائع الفكرية في الفضاء الثقافي ذات النزعة المادية، والتي وبعد فحص منابع أفكارها يصل طريق سالكها إلى أن التصور المادي والغلو المدني العمراني هو أساس وأصل هذه الفكرة العقلية ذات الصبغة العلمية الدينية أو الفلسفية المعرفية.

من شواهد محرك (التصور المادي) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

قد برع المفكر المفكك للمفاهيم العلمانية المعاصرة الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله في بيان شواهد لمحرك التصور المادي، الذي يسيطر على

المدارك ومستخلصات الأفكار والمعتقدات، حتى إن العلوم والأفكار والمعارف تنهزم أمام هذا التصور وتخضع له، ومن ضمن هذه الشواهد يقول:

- «مع تطور الصناعات، أدى تقسيم العمل إلى انعدام إحساس الصانع بالهدف الإنساني مما يصنعه، فالعامل الذي يقضي سحابة يومه يؤدي الحركة البدنية نفسها أمام خط التجميع، ويساهم في صنع رأس دبوس أو جزء صغير من بطارية - لا يمكنه أن يشعر في عمله هذا بأي نبل أو إنسانية، فهو سيتحول بعد قليل إلى جزء من جزء، وقد أدى هذا إلى ضمور الحس الخلقي تماماً، وإلى هيمنة المرجعية المادية.

ولنضرب مثلاً بصناعة الأسلحة الميكروبية التي صممت لإبادة البشر، إنها صناعة يشترك فيها عدد من العلماء يصممون التجارب العملية ويأخذوها آخرون لتطويرها، ثم يقوم شخص بصناعة مركب كيمائي منها، وآخر بإضافة عنصر آخر، وثالث بتعليبها... وهكذا. لكنهم جميعاً بعيدون عن عملية الإبادة النهائية، أي أن الجميع لم يشعروا أنهم مسؤولون عن فعل الإبادة رغم اشتراكهم الفعلي فيه»[1].

- «حينما قُبض على السيدة سيدني بيدل باروز - وهي سيدة من أسرة باروز الأرستقراطية العريقة، التي أتى مؤسسها على سفينة الماي فلاور، أول سفينة نقلت المهاجرين الإنجليز إلى الولايات المتحدة - وحينما وُجهت إليها تهمة إدارة حلقة دعارة في نيويورك، كان خط دفاعها أن الدعارة عمل استثماري...، وبعد فترة قصيرة من التردد، نفض الناس عنهم أية مرجعيات ميتافيزيقية مختلفة، واستطاعوا أن ينظروا إلى سيدة الماي فلاور بشكل موضوعي، وتحولت قصتها من قصة صاحبة ماخور، إلى قصة صاحبة عمل ناجح. وهو ما دفعها إلى نشر سيرتها الذاتية...»![2].

- «أعمال (بيير كابانيس ١٧٥٧م - ١٨٠٨م) الطبيب الذي كان يؤمن بأن

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، تأليف: الدكتور: عبد الوهاب المسيري، الناشر: دار الشروق - القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م. (١/ ٢١٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٤٩).

الإنسان سيد مصيره...، ولذا قصر كابانيس دوافع السلوك على الأنانية وعلى تحصيل السعادة واللذة، وقال ـ ببراءة ـ مادية رائعة! (إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما يفرز الكبد الصفراء). وأكد بكل شجاعة أن (المعنوي هو المادي). ولذا يجب أن يحل الطبيب المختص محل الواعظ القديم. وقد قال كابانيس بتحسين السلالات الإنسانية بانتقاء الصفات الوراثية، وبإمكانية تحسن وضع الإنسان إذا استطعنا فهم الإنسان فسيولوجيا. وفلسفة كابانيس سطحية مادية، مدهشة في سطحيتها وماديتها! وهي مع هذا رؤية نماذجية، ظهرت فيها كل الموضوعات الأساسية في الفلسفات الواحدية المادية»[1].

وكذلك من أبرز شواهد حضور محرك التصور المادي في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هو مشهد بعض الحداثيين العرب في بناء منظومتهم المفاهيمية والقيمية، وما يقومون به من سلوك فكري لتشييد المواقف المنهجية تجاه قضايا مثل: الحضارة والعمارة والحرية والتراث والتطور والمواكبة العصرية.

فالمتتبع للكتابات الحداثية المعاصرة تجاه هذه القضايا يدرك حضور وقوة تأثير التصور المادي ـ بما قررته من مفهوم أي ليست بصدد ما يقرره بعض الحداثيين الماركسيين في منهج المادية التاريخية ـ على أفكارهم ورؤاهم النهضوية واختياراتهم المعرفية والعلمية، أياً كانت مذاهبهم أو أطيافهم إلا أنهم يجتمعون على أن التصور المادي هو ما يكمن وراء أفكارهم المبثوثة، وهذا ليس حكماً على أفكار تيار الحداثة بأكمله بقدر ما هو تشخيص لبعض نواة هذه الأفكار.

ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ ما سطره الدكتور المغربي محمد عابد الجابري[2] في سياق تناوله للجهد الأصولي الذي أنتج تقاسيم الأحكام

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (١/٢٩٦ وما بعدها).

(٢) هو محمد عابد الجابري، كاتب ومفكر مغربي ولد عام ١٩٣٦م، حصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة عام ١٩٦٧م وعلى الدكتوراة عام ١٩٧٠م من كلية الآداب بجامعة محمد الخامس في الرباط، يعد من أشهر المفكرين العرب وأكثرهم تأثيراً في مجاله، كتب العديد من الكتب والأبحاث من أبرزها رباعيته في نقد العقل، توفي عام ١٤٣١هـ.

الشرعية التكليفية إلى (ضروريات وحاجيات وتحسينيات)، فجاء الجهد الحداثي ليقدم بهذه المقدمة قبل شروعه بالتناول التأويلي المادي المعاصر، والتي يشير بها إلى انطلاقه من المرجعية المادية المقتضية للمواكبة الحضارية المعاصرة، والمسايرة النهضوية، فيقول:

«إن الواقع الذي لابد من الاعتراف به هو أن المستجدات في مختلف المجالات تتعاقب وتتزاحم في كل يوم، بل في كل ساعة، الشيء الذي يفرض على الناس، أعني على المستحضرين المواكبين للتطور، مراجعة ما يسنّونه لأنفسهم من قوانين أو ما يتبعونه من شرائع ينظمون بها سلوكهم الفردي والجماعي...، ونحن في العالم العربي والإسلامي، الذين نعيش التغير الذي يطبع العصر الحاضر وسط ميراث حي قائم متنوع انحدر إلينا من العصور الماضية، كثيراً ما نغفل هذه الحقيقة»[1].

ثم يسترسل في مقدمته قبل ذكر نموذجه التطبيقي للقراءة المعاصرة في هذه التقسيمات، حتى لمز ثنائية (الأصالة والمعاصرة) في انعدام جدواها مع المواكبة وواقع التكيف الحضاري المعاصر، فقال: **«إننا نريد أن نؤكد في هذا السياق أن الدعوة إلى تحقيق الأصالة والمعاصرة، وهي دعوة ما فتئت تتردد على ألسنتنا وفي كتاباتنا منذ أكثر من قرن، ودون جدوى، ستبقى مجرد دعوة تتقاذفها أمواج التغير والتبدل الذي يفرض نفسه على الحياة المعاصرة، ما لم ترتفع تلك الدعوة إلى المستوى الذي يجعل منها دعوة إلى التكيف الواعي مع المستجدات قصد السيطرة عليها، ارتكازاً على تأصيل جديد للأصول»**[2]، ثم يقول بعد ذلك موضحاً النمذجة لهذه المقدمة المنهجية في أسلوب المواكبة، **«وفي ما يلي خواطر نعتقد أنها قد تساهم في تعميق الوعي ببعض جوانب المشكل المطروح»**[3].

---

(١) وجهة نظر (نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر)، تأليف: الدكتور محمد عابد الجابري. الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٩٩٢م. ص٦٤.

(٢) المرجع السابق ص٦٦.

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها.

ثم بدأ في استعراض جهد العلماء في تقاسيم الأحكام فيقول عنهم أنهم: «**انطلقوا من الأصل التالي، وهو أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً، وأن مقاصدها بناءً على هذا، لا تعدو أن تكون ثلاثة أقسام، ضروريات وحاجيات وتحسينيات. أما الضروريات فقد حصروها في خمس هي على الترتيب كما يلي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال..، وأما الحاجيات فهي كل ما قامت الحاجة إليه من أجل رفع الضيق والمشقة والحرج كالترخيص بالإفطار في رمضان لمن كان مريضاً أو على سفر. . .**»[1]، بعد أن استمر في عرض هذا الجهد التراثي عاد ليؤكد المقدمة التي بدأ بها وأساس المرجعية المادية، فقال: «**اليوم، ونحن نعيش في عالم آخر، أصبحنا فيه تابعين لا متبوعين، عالم تغيرت في الأحوال وتطورت فيه الحقوق والواجبات وكثرت فيه المنافسات والتهديدات، فإنه لا بد لكل من يفكر بشيء من الجدية في التجديد وفتح باب الاجتهاد وتحقيق الأصالة والمعاصرة معاً، لا بد له من أن يُدخل في حسابه ما استجد من تحولات وهي كثيرة وعميقة**»[2].

وبعد تأكيد الجابري في مقدمته وتكراره في التقرير عن مبتغاه ومنهجه في المواكبة النهضوية، في نموذج الجهد التراثي، يخلص إلى النتيجة الفكرية من محرك التصور المادي وهذه المرجعية المادية، حيث يقول:

«**إن الأمور الخمسة التي حصر فيها فقهاؤنا القدامى الضروريات كانت وما تزال وستبقى أموراً ضرورية بالفعل، أي مقاصد أساسية لكل تشريع يستهدف فعلاً خدمة (مصالح العباد)، غير أن مصالح العباد اليوم لم تعد مقصورة على حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، بل إنها تشتمل بالإضافة إلى الأمور الخمسة المذكورة أموراً أخرى نعتقد أنه لا بد من أن ندرج فيها: الحق في حرية التعبير وحرية الانتماء السياسي، والحق في انتخاب الحاكمين وتغييرهم، والحق في الشغل والخبز والمسكن والملبس،**

---

(١) وجهة نظر (نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر) ص٦٦.

(٢) المرجع السابق ص٦٧.

والحق في التعليم والعلاج.. إلى غير ذلك من الحقوق الأساسية للمواطن في المجتمع المعاصر، وأما الحاجيات فبالإضافة إلى ما ذكره فقهاؤنا القدامى هناك حاجيات جديدة مثل **الحاجة إلى توفير الصحة والوقاية من الأمراض بإعداد ما يكفي من مستشفيات وغيرها، والحاجة إلى ما لا بد منه لتنشيط الإبداع الفكري في مختلف المجالات العلمية والفنية والنظرية، والحاجة إلى ما لا بد منه لاكتساب معرفة صحيحة بالواقع والأحداث**...، ولا نخال أن هناك من يجادل في أن **ضروريات التنمية والتقدم في الوطن العربي في العصر الحاضر تتطلب بناء السلطة فيه على أسس ديموقراطية حقيقية وبناء العلاقات الاجتماعية في كل بلد من بلدانه وقطر من أقطاره على العدالة الاجتماعية**. أما الحاجيات فأكثر من أن تحصى: **إنها حاجيات التنمية وحاجيات التحرر وحاجيات القوة والمناعة**... إلخ. أما التحسينيات فهي أيضاً لا حصر لها على هذا المستوى»[١].

بعيداً عن جدوى الإضافة المعرفية من هذا الطرح الجابري فضلاً عن صحته، غير أن المتأمل في الإضافة المعاصرة المقدمة للنموذج التراثي يجد أنها تتمحور في القضايا النهضوية المادية (حرية التعبير، العمل، العيش، المسكن، اللبس، التعليم، الإبداع الفكري، العدالة الاجتماعية) والتي تشبع محرك التصور المادي لديه، وما قدمه من مقدمة طويلة تتمحور حول ضرورة المواكبة والمعاصرة في النهضة والتطور.

(١) وجهة نظر (نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر) ص٦٨.

الاعتبار الشرعي لمحرك التصور المادي

جعلت الشريعة الإسلامية من التصور المادي اعتباراً في أساس تأثير تفاصيله على الأفكار، وكون القيم والمفاهيم والمنطلقات التي يحملها هذا التصور قد تؤثر في المؤمن على وجه الخصوص، أو في الخارج عن الدخول إلى الإسلام على وجه العموم، فجاء هذا الاعتبار لجعل قضايا التصور المادي في قالبها ومنزلتها المناسبة لها، ويمكن أن أوضح هذا الاعتبار الشرعي لمحرك التصور المادي فيما يلي من نقاط:

١ ـ منزلة الدار الآخرة في الخطاب القرآني أمام الحياة الدنيا، حيث جاءت الشريعة بكل صراحة في إثبات قضية الآخرة والهدف الأخروي وأنه مقدم على الحياة الدنيا والهدف الدنيوي، وذلك من خلال تأسيس مركزية الآخرة وتكثيف الخطاب لها في المراد والغاية من الخلق في مقابل ذم الطوارئ لهذا السير وهو الاستغراق الدنيوي.

فالقارئ للآيات الكريمة يدرك منزلة الحياة الدنيا، حيث تصور أن الإغراق فيها نوعٌ من أنواع الابتلاء والامتحان، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

وكذلك أن التمكين المدني والدنيوي إنما هو عبارة عن وسيلة لتحقيق الغرض والغاية التعبدية الأخروية من الشكر واتباع الحق وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذلك جاء في أكثر من آية في قول الله ﷻ، **فيقول الباري ﷻ في كتابه العزيز**: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ١٠] **وقوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦] **وفي قوله تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤١].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي أكدت على دنو منزلة الحياة الدنيا مقابل علو منزلة الآخرة في هرم أولويات المسلم وطريقة تفكيره، **ومن ذلك ثنائية العاجلة والآجلة في كتاب الله ﷻ، وكون أن العبرة في الآجل وما فيه وما يُسعى إليه، وأن العاجل يقصر أمام كل ذلك.**

وجاء المنهج النبوي يصوغ أولوية الآجلة على العاجلة، ففي حديث عمر ابن الخطاب أنه قال لرسول الله ﷺ: «**ادع الله يا رسول الله أن يُوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله؛ فاستوى النبي ﷺ جالساً، ثم قال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»[1].

كل هذه المقارنات وتحديد الأولويات جاءت لتصوغ أهم مبدأ أخطأ فيه أصحاب هذا التصور المادي: في المغالاة في منزلة هذه الحياة، وتأكيد الشريعة الإسلامية مراراً على ذلك يأتي لإدراك مدى أثر هذا التصور في العملية الإدراكية وأسلوب التفكير في العلم والمعتقدات.

٢ ـ منزلة المؤمن عديم المادة أمام الكافر صاحب الوفرة المادية، القارئ للآيات الكريمة التي شبهت الكفار بتشبيهات متعددة ومتنوعة يدرك حجم ومنزلة الكافر الجاحد للحق وإن كان قوياً مادياً مقابل منزلة المؤمن وإن كان مستضعفاً مادياً.

فالتشبيه الشرعي لحالة اللهث وراء الماديات واستغراق العقول والحواس في تدبير معاش الحاضر والإخلاد إلى الأرض والركون إلى الحياة مقابل نبأ الآيات وخبر النبوات جاء الوصف الشرعي لها في غاية الدقة عن بشاعة هذا الصنيع، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ۝١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٧٨ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٩].

٣ ـ ركيزة النبوات السماوية المرتكزة على المعتقدات في مقابل الماديات، فالمتأمل للرسالات السابقة ومنهج الأنبياء جميعهم، يدرك مرتكز رسالاتهم ودعواتهم وأنها أبعد ما تكون عن قيم التصور المادي المتمثلة في المغالاة بالحضارة وغيرها، بل إنما جاءت لتقرر ثانوية هذه القضايا أمام قضايا الرسالة والإيمان.

فقد بين الله ﷻ وظيفة النبوات والكتب السماوية والشرائع، وأنها كلها تهدف لتأكيد عبادة الله، والاستعداد للحياة المستقبلية بعد الموت، وليست لأجل المنافسة العالمية للحضارات والمدنيات آن ذاك مع وجودها وحضور حضارتها وطغيانها المادي، قال تعالى مبيناً الغاية من بعث الرسالات: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وذكر الله ﷻ السؤال الإلهي عن تحقيق هذه الغاية فقال سبحانه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤ ـ صقل الشريعة الإسلامية للشخصية الإيمانية بالروحانيات أمام الماديات، فالقارئ للآيات والأحاديث يدرك أن جملة من النصوص الشرعية جاءت بالتأكيد على تعزيز الجانب الروحي والوجداني في قلب المؤمن وذلك الذي يسعى التصور المادي لعدميته في النفس البشرية.

فتأكيد الشريعة الإسلامية على القضايا الروحانية والوجدانية يأتي إقراراً بوزنها ومنزلتها، وسبق الحديث عن جانب التوازن الشرعي بين العقل والعاطفة في هذا السياق[1]، لنخرج بنتيجة أن الشريعة الإسلامية راعت هذا المحرك من

(١) في مبحث محرك العواطف والمشاعر من الفصل الأول من هذا الباب.

خلال تعزيز الجانب الوجداني في نفس المؤمن، حيث جسد القرآن الكريم مشهد التلقي العلمي للوحي عند المؤمنين، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المَائدة: ٨٣].

بل إن القرآن الكريم أكد على أن من سلوكيات أهل العلم تنامي وجدانهم وعاطفتهم في قضايا إيمانهم، حين يتهاوى التصور المادي أمام هذه السلوكيات الشرعية، قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الإسرَاء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

المحرك الثاني

الجهل المعرفي

«إنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم؛ لما فيه من الألفاظ المُجملة والمشتركة، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم؛ وإنما ينتحلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه»

شيخ الإسلام ابن تيمية

المقصود من محرك الجهل المعرفي

المراد والمقصود من محرك (الجهل المعرفي): **هو أن تكون الفكرة نتاجاً لجهل صاحبها في جزئية معينة لا عن علم به، سواءً كان هذا الجهل في التصور أو في قصور الوصول إلى المعلومة، أو قصور في النظر العقلي والعلمي، فيحمل الاحتمالين على الجهل البسيط والجهل المركب.**

فكثير من الأفكار المنتشرة في الفضاء الفكري المعاصر، وجملة من المعتقدات المبثوثة في التراث العلمي أساسها ومنشأ حالها، جهلٌ اعترى صاحبها، أو جهل عام ساد حالة مجتمعٍ من المجتمعات، فيكون الجهل التصوري أو الجهل العلمي هو الأساس في قبول الفكرة أو رفضها أو منشئها وتشكلها، ومن ذلك الجهل بذات الأفكار وحقيقة أمرها وحالها، **فكم قاد الجهل في أمر وحال الضلال إلى اعتناقه، وكم قاد الجهل في شأن الفكرة الصحيحة إلى البعد عنها وعدم الاعتقاد بها، بل كم ممن استجهل الأتباع أو المخاطبين أو من استودعوا له عقولهم فقصد تجهيلهم لتمرير الأفكار عليهم، وإنفاذها في مداركهم وعقولهم.**

تأثير محرك الجهل في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

وقفت على نصٍ بديع لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مدى تأثير الجهل في تصور الأفكار واستيعابها والمعتقدات الناتجة من هذا القصور في التصور، وأن هذا التأثير يصل إلى أصحاب الفرقة الواحدة والمذهب الواحد فيفرقهم، وفي ذلك بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن علاج بعض الأفكار لا يحتاج إلى أن يتم تصورها التصور الصحيح، بل يُزال الجهل والقصور تجاهها، وبذلك يكون دليلها وعلاجها، يقول: «**اعلم هداك الله وأرشدك أن تصور مذهب هؤلاء كما في بيان فساده لا يحتاج من حسن التصور إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم؛ لما فيه من الألفاظ المُجملة والمشتركة، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم؛ وإنما ينتحلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه.**

ولهذا قد افترقوا بينهم على فرق ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم مع استشعارهم أنهم مفترقون. ولهذا لمّا بينتُ لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم وسر مذهبهم صاروا يُعظمون ذلك، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يحل عن الوصف، كما تبذله النصارى لرؤسائهم والإسماعيلية لكبرائهم وكما بذل آل فرعون لفرعون.

وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين: إما جاهلٌ بحقيقة أمرهم وإما ظالمٌ يريد علواً في الأرض وفساداً أو جامعٌ بين الوصفين»[1].

لذا قد عني أهل العلم في هذا الباب أيما عناية، فكان غاية جهدهم أن يرفوا الجهل عن الأمة في كل حين وفي كل حقبة من حقب التاريخ، ولم يُقْدموا على ذلك الجهد والبذل واستغراق الأوقات والأحوال إلا إدراكاً منهم وعلماً بأن للجهل قوة وتأثيراً وأنه محركٌ للعقول ونتاجه عظيمٌ في الأفكار والمعتقدات.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/١٣٨).

ويمكن أن أبين أبرز الأمور التي توضح موقع (الجهل المعرفي) من الخريطة الإدراكية الفكرية العامة، ومدى تأثيره في عالم الأفكار والمعتقدات، ومدى قدرته على اختلاق الأفكار والمنطلقات وتوليدها، من خلال ما يلي:

١ ـ المقابلة اللغوية والمعرفية للفظة (العلم) ـ المقتضية للفكر والمعتقد ـ أمام (الجهل)، حيث إن النقيض المباشر والمقابل دليل الوثوق وزيادة، فالجهل إذا أصبح أمام العلم، فهو حاضرٌ في سياق الأفكار والمعتقدات بتأثيره عليها، ولا علاقة لصوابية الفكرة من عدمها بقدر ما هو تأثير الجهل على الاقتناع بهذه الفكرة أو رفضها.

٢ ـ واقعية تأثير الجهل على الأفكار ونشوئها، فإقرار سابري الآراء والمفتشين عن دوافعها بأن هذه الفكرة بعينها أساسها الجهل، فحين يقرأ الواحد منا في غير واحد من كتب أهل العلم المبثوثة في التراث يجد كثيراً من إقرارهم بأن هذه الفكرة مبعثها هو الجهل بحقيقة أمرها وحالها.

ـ فعلى سبيل المثال ـ يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق بيان التفضيل والترتيب بين الأنواع والصفات أنه: «**من تحققه هانت عليه معضلات ومشكلات في فهم الشريعة، كالتفضيل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وزيادة الإيمان ونقصانه، وغير ذلك من الفروع الفقهية والمعاني الشرعية، التي زلت بسبب الجهل بها أقدام كثير من الناس**»[١].

وفي إقرار آخر بأن الجهل له تأثير في الحكم وانبعاث الأفكار، ما أقره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال سؤال السائل عن الحكمة في طهارة الفأرة قياساً على الهرة، بقوله: «**فهذا حق، وأي تفاوت في ذلك؟ وكأن السائل رأي أن العداوة التي بينهما توجب اختلافهما في الحكم كالعداوة التي بين الشاة والذئب، وهذا جهل منه**»[٢]، ووقوع ذلك كثيٌر في كتب أهل العلم في سياقات تحديد انبعاثات الأفكار.

---

(١) الموافقات (٢/ ٦١).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٤٢٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق ذكره لأسباب الاختلاف المذموم: «**ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق: في الحكم أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً، والجهل والظلم: هما أصل كل شر، كمال قال تعالى:** ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾»[١] [الأحزاب: ٧٢].

٣ ـ **تأثير الجهل على النمط السلوكي الكلي للإنسان**، فإن كان تأثير الجهل ثابتٌ على السلوك الإنساني فمن باب أولى تأثيره البالغ على العقل والتفكير السابق للسلوك.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم؛ بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً**»[٢].

وقد أشار لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تظاهر المجوس والصابئة بالتشيع، وكون الجهل يؤثر على تشكل الاتجاهات لديهم واستجابة أنماطهم الشخصية لأفكار غيرهم، حيث يقول: «**ولا ريب أن المجوس والصابئة شر من اليهود والنصارى، ولكن تظاهروا بالتشيع، قالوا: لأن الشيعة أسرع الطوائف استجابة لنا، لما فيهم من الخروج عن الشريعة، ولما فيهم من الجهل وتصديق المجهولات**»[٣].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة السابعة: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. (١/ ١٤٨).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت. الطبعة السابعة والعشرون: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م. (٢/ ٢٣).

(٣) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٥٤).

٤ ـ مناط الخلاف في سبب وأثر الجهل على الأحكام والأقوال، فالناظر في الخلاف التراثي والمعاصر ـ على سبيل المثال ـ لمسألة الإعذار بالجهل في أحكام الاعتقاد يدرك مدى حضور هذا المحرك في الفضاء الفكري والعقدي.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن حجم هذه المسألة: «**وهذه المسألة أعني مسألة العذر بالجهل مسألة عظيمة شائكة، وهي من أعظم المسائل تحقيقاً وتصويراً**»[١].

من شواهد محرك (الجهل المعرفي) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي كثيرة جداً ومتنوعة ومتعددة الأشكال والأنماط، فعلى سبيل المثال: جملة أفكار الجاهلية المنتشرة في تلك الحقبة، فالجهل كان أساس ومنشأ أبرز أفكار الجاهلية.

ومنها ـ على سبيل المثال ـ ما بنوا به جهلاً أن حرموا على أنفسهم الحرث والأنعام، ولذلك عاب الله تعالى في سورة الأنعام هذه الفكرة المحرمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعَام: ١٣٦].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه: «**إذا أردت أن تعرف جهل العرب فاقرأ من قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأنعَام: ١٣٦]**»[٢]، **وأما الجاهلية فما كان قبل النبوة سموا بذلك لكثرة جهالاتهم**»[٣].

ومن قبيل ذلك ما ذكره شيخ الإسلام عن بعض المتصوفة وأفكارهم

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: عمر بن سليمان الحفيان، الناشر: دار ابن الجوزي ـ السعودية ـ الدمام. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ. (٦/ ١٩٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٥٧).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الثانية: ١٣٩٢م. (٣/ ٨٧).

وأقوالهم وأن مصدرها وأساس منشئها هو الجهل في الدين، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وكثيرٌ من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين؛ إما من تعدي حدود الله؛ وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً فأنا منه بريء؛ فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء. فالأول جعل مريده يُخرج كل من في النار؛ والثاني جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.**

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد. وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين؛ وهي إما كذبٌ عليهم، وإما غلطٌ منهم»[1].

وفي قراءة أخرى لأحد أهم الطوائف التي بدا محركُ الجهل المعرفي فيها محركاً لجملة لا يستهان بها من أفكارهم وآرائهم ومعتقداتهم، **بل إنه من غير المبالغ فيه إن أسميتهم في (أيقونة الجهل المعرفي)، حيث إن معتقدهم شاعت فيه الجهالات المعرفية حتى سرى في عقولهم وأفهامهم، وهم (جهال الشيعة)**.

وقد صاغ شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة النبوية جملة من أمثلة جهلهم وتكرارهم عليه وتتابعهم المنهجي فيه، فمثلاً يقول في إحدى هذه المواطن التي بين فيها جهلهم في البغض المناطقي والمكاني الذي لا ينشأ إلا من جهل:

«**وكذلك من جهلهم وتعصبهم أنهم يبغضون أهل الشام؛ لكونهم كان فيهم أولاً من يُبغض علياً. ومعلوم أن مكة كان فيها كفار ومؤمنون، وكذلك المدينة كان فيها مؤمنون ومنافقون، والشام في هذه الأعصار لم يبق فيه من يتظاهر ببعض علي، ولكن لفرط جهلهم يسحبون ذيل البغض. وكذلك من**

---

(١) الفتاوى الكبرى، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م. (٥/ ١٩٩).

جهلهم أنهم يذمون من ينتفع بشيء من آثار بني أمية، كالشرب من نهر يزيد، ويزيد لم يحفره ولكن وسعه، وكالصلاة في جامع بناه بنو أمية. ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان يصلي إلى الكعبة التي بناها المشركون، ومان يسكن في المساكن التي بنوها...»[1] ومضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر من جهالاتهم حتى قال: «**فهل يكون أجهل من هؤلاء؟!»**[2].

والحقيقة أن جهل الرافضة لم يتكرر على الأمة مثل توليده للأفكار والمواقف العقدية، ولذلك يكاد شيخ الإسلام يسرف في تعجبه من حجم جهلهم وما أنتجه من الأفكار والمعتقدات، ولم أجد أن ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ أكثرَ من ذكر الجهل بحق غيرهم مثلَ ذكر ذلك بحقهم، بل إن تعبيراته تنبئ عن حجم استنكاره لهذا اللون والنوع من الجهل الولّاد، كأن يعبر عن فرط الجهل، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والرافضة من فرط جهلهم يَكذبون الكذب الذي لا يخفى على من له بالسيرة أدنى علم»**[3]**، واستفهامه في أكثر من موضع بقوله: «فهل يكون أعظم من جهل هؤلاء وعنادهم؟!»**[4].

بل إنه في سياق ذكر جهالات بعض الأقوام من الأكراد قال بعد ذكر حالهم: «**وهم مع هذا الجهل خيرٌ من جهال الشيعة وملاحدتهم الذين يعتقدون إلهية علي أو نبوته**»[5].

وفي موضع آخر باستعجاب من حجم الجهل الاستدلالي المعرفي، ليقول عن احتجاج رافضي: «**أن هذا احتجاج جاهلٌ مُفرط في الجهل يريد أن يحتج لنفسه فيحتج عليها**»[6]، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عبارة تصف أفعالهم الاعتقادية أنه: «**من الجهل البليغ الذي لم يُعرف عن غيرهم**»[7].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ١٤٦).
(٢) المرجع السابق (٤/ ١٤٨).
(٣) المرجع السابق (٤/ ٢٧٦).
(٤) المرجع السابق (٤/ ٢٣٧).
(٥) المرجع السابق (٤/ ٥١٩).
(٦) المرجع السابق (٤/ ٢٣٦).
(٧) المرجع السابق (٥/ ١٧٧).

وكأن كلمة الجهل انطبعت في ذهنية ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بالتشيع وجسدت ذلك بأشياخهم وغلاتهم، حتى خرج بنتيجة مفادها أنهم أجهل المعتقدات وأطورهم حالاً فيه، حيث قال: «**فقد تبين أن الجهل الذي يوجد فيمن هو من أجهل أهل السنة، يوجد في الشيعة من الجهل ما هو أعظم منه، لا سيما وجهل أولئك أصله جهل نفاق وزندقة لا جهل تأويل وبدعة، وهؤلاء أصل جهلهم لم يكن جهل نفاق وزندقة، بل جهل بدعة وتأويل وقلة علم بالشريعة**»[١].

والذي يؤكد هذا الحجم من الجهل المجمع عليه، والذي ولّد الاستنكار عند شيخ الإسلام ما صرح به من اتفاق الأمة والطوائف على هذا الجهل بحق الرافضة، حيث يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ثم من المعلوم لكل عاقل أنه ليس في علماء المسلمين المشهورين أحدٌ رافضي، بل كلهم متفقون على تجهيل الرافضة وتضليلهم، وكتبهم كلها شاهدةٌ بذلك، وهذه كتب الطوائف كلها تنطق بذلك، مع أنه لا أحد يُلجئهم إلى ذكر الرافضة، وذكر جهلهم وضلالهم، وهم دائماً يذكرون من جهل الرافضة وضلالهم ما يُعلم معه بالاضطرار أنهم يعتقدون أن الرافضة من أجهل الناس**»[٢]، حتى أن السرد التيمي لتلك الجهالات توقف بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومفاريد الرافضة التي تدل على غاية الجهل والضلال كثيرةٌ لم نقصد ذكرها هنا**»[٣].

ويختم شيخ الإسلام هذا العرض لرمزية الجهل المعرفي في التاريخ الإنساني والإسلامي، والذي يبين فيه الصدارة للرافضة عن غيرهم فيقول: «**وأما الخوارج والمعتزلة والجهمية فإنهم أيضاً لم ينفردوا عن أهل السنة والجماعة بحق، بل كل ما معهم من الحق ففي أهل السنة من يقول به، لكن لم يبلغ هؤلاء من قلة العقل وكثرة الجهل ما بلغت الرافضة**»[٤].

ومن الشواهد التي تمثل تأثير محرك الجهل على صناعة الأفكار وتمريرها

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٢٠).

(٢) المرجع السابق (٤/ ١٣١).

(٣) المرجع السابق (٥/ ١٧٧).

(٤) المرجع السابق (٥/ ١٧٧).

على العقول والأفهام، هو النموذج الفرعوني في تجهيل قومه ومن يأتمرون بأمره.

حيث إن فرعون قصد تجهيل قومه لتمرير أفكاره وما يأمرهم به من المعتقدات من وجه، ومن وجه آخر أن فرعون وجدهم جهالاً فمرر أفكاره وأوامره من خلال ذلك، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزّخرُف: ٥٤]، **أي: فاستخف فرعون عقول قومه من القبط بقوله فقبلوا منه فأطاعوه على الكفر وتكذيب موسى**»[١]، وذلك أن الطاعة جاءت نتيجة للتجهيل وما اعترى القوم من الجهل الذي أنتج الطاعة والانصياع للفكرة الفرعونية.

وقد رصد ذلك الشيخ المفسر ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في أكثر من مرة مبيناً أن هذه الأفكار الفرعونية لم تأخذ حيزها من العقول إلا بسبب السفه والجهل الذي أصاب أصحابه، يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم:** ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزّخرُف: ٥٤]»[٢]، ووصف هذه الأفكار وموقف قوم فرعون منها فيقول: «**وزين لقومه هذا القول وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول**»[٣].

وذكر في موضع آخر أن تمرير هذه الأفكار لم ينطبق إلا على من أصابه الجهل، وأن الفكرة لا تحمل بذاتها عقلنة بقدر أن المستقبل لها فيه من الجهل الذي أفرغ لهذه الفكرة حيزاً ومكاناً، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الشبهات الفرعونية، أن

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل فنون علومه، تأليف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن مختار القيسي القيرواني القرطبي المالكي (٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي ـ جامعة الشارقة. الناشر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الشارقة. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م. (١٠/ ٦٦٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م. ص٧٣٦.

(٣) المرجع السابق ص٥٩٠.

فرعون: «**استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول. فأي دليل يدل على أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟ وأي دليل يدل على بطلان ما جاء موسى لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل**»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٧٦٧.

الاعتبار الشرعي لمحرك الجهل المعرفي

المتأمل في نصوص الخطاب الشرعي لا تكاد تخطئ عينه أن الشرع الحكيم أولى مسألة الجهل لدى المكلف اعتباراً في الأحكام والتصورات، ويمكن أن أبين أبرز هذه الاعتبارات الشريعة لمسألة الجهل المعرفي في عالم الأفكار والمعتقدات، وكيف جاء الشرع الحكيم معتبراً تأثيره على هذا العالم الفكري والعقدي، من خلال ما يلي من أمور:

١ - التحذير الشرعي المتكرر من الجهل وأن يكون من سمات المسلم في مقابل امتداح العلم وأهله، وذلك اعتبار من الشرع لتأثير الجهل على العقول ونتاجها، وكبح جماح هذا التأثير وحصره وتقليله بالعلم.

فالنصوص التي دلت على فضل العلم والثناء على أهله كثيرةٌ جداً في القرآن والسنة، كما في الحديث المرغب بالعلم وكونه طريقاً إلى الجنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»[١] وغيرها من النصوص في هذا الباب.

ومن هنا كان حجم وميزان الجهل في هرم المنهيات الشرعية، وقد أدرك الصحابة مدى تأثير ذلك على الأقوال والأفعال، حتى في المعاش وحال الإنسان في حياته فضلاً عن مدار الأفهام والعقول، حيث قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (**لا يتجر في سوقنا إلا من تفقه في دينه، وإلا أكل الربا شاء أو أبى**)[٢].

فرفع الجهل في هذه الدائرة المحددة هو من أولويات العمل فيه، لما يترتب على وقعه وعدم رفعه ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه من وقوع الضرر لا محالة، والذي هو فكرة الربا المحرمة شرعاً والمروج لها في الأسواق فركوب العامل لهذه الفكرة الرائجة هو من محرك جهله بالحال، وهذا في شأن العمل والسوق فكيف بتأثير ذلك في سوق الأفكار ومعامل الأفهام والمدارك؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٤٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ١٥١).

٢ ـ الإقرار الشرعي بتسبب جهل الإنسان في صده عن الحق والمعتقد الصحيح، فوصف القرآن الكريم للإنسان أنه ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزَاب: ٧٢] إدراك من الشرع الحكيم أن هذا الجهل هو السبب في امتناع الإنسان عن الأفكار المقررة له الاعتناق بها، وكون ذلك من خصال الإنسان التي تدفع بالعلم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن الآية: «**وذَكَرَ التوبة لعلمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهلٌ وظلم ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائماً يتبين له من الحق ما كان جاهلاً به ويرجع عن عملٍ كان ظالماً فيه**»[(١)].

ويدخل في ذلك الجهد الشيطاني حيث إضلال الإنسان والتزيين له، فيدلس إبليس على الإنسان بين الحق والباطل، حتى يكون الجهل في الحق هو أساس قبول هذا التزيين الشيطاني.

ونظير ذلك في القرآن الكريم كثير، منه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فَاطِر: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعَام: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعَام: ١٣٧] ولذلك قال تعالى في حجم هذا التدليس الإبليسي: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزّخرُف: ٣٦ ـ ٣٧].

قال شيخ الإسلام: «**فأصل ما يُوقع الناس في السيئات: الجهل، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً**»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٨).

(٢) المرجع السابق (١٤/ ٢٩٠).

٣ ـ اعتبار الجهل من الأعذار المسقطة للتكليف، ليس في كل أحواله، إنما الجهل من ناحية غياب حالة الواقع في مطابقة الدليل أو الحكم كمن جهل حال المشروب فظهر أنه خمر، أو جهل حال اللحم فظهر أنه لحم ميتة.

فالاعتبار الشرعي للجهل في تأثيره على الأحكام من هذه الناحية، ومن ناحية أخرى أن يكون الجهل نتيجة عدم بلوغ العلم والحكم في أرض جهل، في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[١]، ولو لم تدرك الشريعة الإسلامية حجم تأثير الجهل على الأفكار والمدارك لما جاء هذا العذر المعتبر شرعاً.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «**الجهل عذرٌ بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين في الجملة؛ أي: ليس في كل الصور**»[٢].

قال الإمام النووي[٣] رحمه الله: «**أما ما كان الإجماع فيه معلوماً من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة على عمتها، وخالتها، وأن القاتل عمداً لا يرث وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة**»[٤].

٤ ـ التقرير الشرعي من واقعية محرك الجهل والاعتماد عليه في السياق المعرفي والعلمي، جاء ذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكن قبض العلم قبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فيسألون فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٠٤٣)، وصححه ابن حبان (٧٢١٩).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع (٦/ ١٩٢).

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي الشافعي، أبو زكريا، (٦٣١هـ ـ ٦٧٦هـ)، علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا من قرى حوران بسورية، تعلم في دمشق وأقام بها زمناً طويلا، من مؤلفاته: (تهذيب الأسماء واللغات، التقريب والتيسير، الأربعون حديثا النووية، بستان العارفين). الأعلام للزركلي (٨/ ١٤٩).

(٤) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

فجاء التقرير الشرعي من وقوع منهل الجهل؛ فإن اتخاذ الناس رؤوس جهال يستلهمون منهم المعرفة ينتج من الأفكار والمعتقدات كماً لا يمكن القصور دونه.

ولذلك بين أهل العلم هذا التقرير الشرعي والوقوع التاريخي، وأن منشأ الأفكار البدعية هو البعد عن العلم والأخذ بالجهل، **فجل الأفكار البدعية ـ على سبيل المثال ـ كانت منعدمة حال وفرة العلم، في مقابل أن انتشر الجهل حين انبثقت هذه الأفكار.**

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهي والوعد والوعيد، وكان قد نبغ فيهم القدرية كما نبغ فيهم الخوارج الحرورية، وإنما يظهر من البدع أولاً ما كان أخفى، وكلما ضعف من يقوم بنورة النبوة قويت البدعة»**[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٤).

المحرك الثالث

تحرر العقل والاعتداد به

«أن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب. ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف كان يكون»

الإمام الشاطبي

المقصود من محرك تحرر العقل والاعتداد به

هو أن تكونَ الفكرة منبعها ليس الفكرة ذاتها أو القناعة بها بقدر ما هي استجابة لحالة العقل في مكابرته والاعتداد به وتحرره المطلق.

وقد يطلق على ذلك منهجاً ينتهج، غير أن التناول هنا هو كونه محركاً للأفكار فليس هو متعلق بأيدولوجية محددة، فقد يتمثل هذا المحرك من ليس عقلانيّ المنهج والفكر، لكن محرّك فكرته ومنبعها هو الاعتداد بعقله متفاخراً به بين أهل الفهم والعقول.

والحاصل أن يكون سلوك العقل هو المحرك لا العقل ذاته، بحيث إن استكباره وتحرره من القيود واعتباره لا اعتبار أمر خارجٍ عنه هو ما يؤثر في المحصلة النهائية من الأفكار، أو ما يؤثر على عملية قبولٍ الأفكار أو رفضها.

تأثير محرك تحرر العقل والاعتداد به في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

يمكن أن أبين مدى هذا الأثر والتأثير للمحرك على نشوء الأفكار وقبولها أو رفضها، من خلال ما يلي:

١ ـ صلة سلوك العقل بالأفكار والمعتقدات من حيث الأصل، فمجاورة ذلك يكون بالغ التأثير، فلا يمكن أن تخرج الفكرة المجردة وغيرها إلا أن يكون للعقل فيها حضور وتأثير، ومن ذلك حين يكون العقل فيه ضعف جبلي لا بد وأن يؤثر على أفكار وآراء صاحبه، وخلاف ذلك.

والحاصل أن السلوك العقلي بسبب اتصاله المباشر بالأفكار والمعتقدات كان تأثيره حاصل وواقع، فالاستكبار العقلي لا بد أن يفرز آراء مستعلية معرفياً وعلمياً، والتي تحمل باستعلائها الاستنقاص من مسائل العبودية أو قضايا التسليم التي بطبيعتها تعطي تهميشاً أو تقليلاً للعمل العقلي فيها، وعلى غرار هذه الصورة يكون مدى ومستوى التأثير والصناعة للأفكار والمعتقدات.

ولذلك جاءت المنبهات من خارج الأطر العقلية كي تنبه السلوك العقلي باتخاذه الطريق الصحيح، ولهذا «**الأخبار قد تأتي بما يدركه الإنسان بعقله تنبيهاً لغافل، أو إرشاداً لقاصر، أو إيقاظاً لمغمور بالعوائد يغفل عن كونه ضرورياً، فهو إذا محتاج إليه، ولابد للعقل من التنبيه من الخارج، وهي فائدة بعث الرسل**»[١].

٢ ـ أصالة دور العقل في المعرفة والنظر، حيث تكون هذه الأصالة والابتداء نواة التأثير والأثر، فلا يمكن للمعرفة أن تستقيم أو أن تطلب من غير العقل وأدواته، ولكن مزلق التأثير هو ما يكون بعد هذه الأصالة.

ـ فعلى سبيل المثال ـ لا يختلف اثنان على أهمية حضور العقل في استيعاب الأحكام الشرعية لكن الخلاف ينشأ بعد الاستيعاب أن يستمر العقل فيتجاوز مرحلة الأصالة حتى يصل إلى مرحلة التجاوز.

يبين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في نص بديع وتشبيه بالغ هذه الأصالة وكون العقل شرط من شروط المعرفة، وفي سياق تطور منزلة العقل والاسترسال في مراحله يقول:

«**العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال وبه يكمل العلم**

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٥١٥).

والعمل؛ لكنه ليس مستقلاً بذلك؛ بل هو غريزة في النفس وقوةٌ فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها وإن عزل بالكلية: كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أموراً حيوانية قد يكون فيها محبة ووجد وذوق كما قد يحصل للبهيمة. فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه»[1].

٣ ـ تقرير أصحاب الدراية والعلم والعقل أن العقل له منتهى وحد، فإقرار ذلك إشارة إلى أن التحرر من هذه الحدود إخلال بمعنى العقل وجوهره وحقيقة عمله وما وضع لأجله وغاية إيجاده، لأن من علم أثر ونتيجة تجاوز تلك الحدود العقلية وأدركها أقر بضرورة الالتزام بحدود العقل وعدم الاعتداد عليه لنجاعة أثر هذا المحرك.

ومن ذلك ما ذكره الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: **«أن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب. ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف كان يكون، فمعلومات الله لا تتناهى، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يُساوي ما لا يتناهى»**[2].

٤ ـ واقعية تأثير تحرر العقل واعتداد صاحبه به على الأفكار والمعتقدات، فالناظر في التراث الإنساني والإسلامي يدرك أن للعقل سطوة وقوة، تنازع قناعات الإنسان وأفكاره حتى يكون له سلطان على يوم صاحبه وأمسه، فلا يعمل شيئاً صغر أم كبر إلا بعد عرضه وموافقته وتقدير صوابه من عدمه بلا أي اعتبار يذكر واعتداد لغيره.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **«ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي**

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٨ وما بعدها).

(٢) الاعتصام (٢/٨٣١).

تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين، فإن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل، واستصغى بذلك واستأنس به سواء أظهر الانقياد للرسل أو لم يظهر، وقد اعترف عامة الرؤوس منهم أنه لا ينال بالعقل علم جازم في تفاصيل الأمور الإلهية وإنما ينال به الظن والحسبان»[1].

من شواهد محرك (تحرر العقل والاعتداد به) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، **هو شاهد المعتزلة ـ أبرز الفرق الكلامية في الإسلام ـ، فقد احتلت مكانة بارزة في تاريخ علم الكلام.**

وذلك بسبب النزعة العقلية المفرطة التي غلبت عليها وأثرت في منهجها تأثيراً بالغاً، فلا يكاد القارئ لمعتقدات وأفكار مدرسة المعتزلة إلا ويتجلى له كيف دفع العقل بتحرره واعتداد صاحبه به لجملة من أفكارهم ومعتقداتهم وأبرز جدلياتهم، ويتجلى تأثير محرك تحرر العقل والاعتداد به عند المعتزلة في عدة جوانب، أذكر أبرزها:

١ ـ منزلة الأدوات العقلية في الخريطة الإدراكية عند المعتزلة، حيث إن الأدوات العقلية مثل الاستدلال والاستنباط والقياس وغيرها هي بالمنزلة العالية لديهم، وينتج عن ذلك عدم اعتبار الأفكار والآراء المقللة من المصدرية الاستدلالية والاستنباطية وغيرها من الأدوات العقلية.

ومن ذلك قولهم في تقرير أداة التأويل العقلي للنصوص والأخبار المروية: «**إن منع العقل من الشيء بغير شرط، نحو منعه من حسن تكليف ما لا يطاق، فمتى ورد خبر بخلاف ذلك، فإن أمكن تأويله من غير تعسف، جوّزنا**

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي ـ المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى، ص٢٤٩.

أن يكون النبي ﷺ قاله وعنى التأويل الصحيح، وإن لم يمكن تأويله إلا بتعسف، لم يجز أن يكون النبي ﷺ قاله على ذلك الوجه، لأنه لو جاز التأويل مع التعسف، بطل التناقض من الكلام كله، ويجب فيما لا يمكن تأويله القطع على أن النبي ﷺ لم يقله؛ وإن كان قاله فإنما قاله حكاية عن الغير أو مع زيادة أو نقصان يخرج بهما من الإحالة»[1]، وفي بيان منزلة ذلك عندهم قولهم أن: «**معرفة الله تعالى لا تنال إلا بحجة العقل**»[2].

٢ ـ تقديم العقل والرأي العقلي على النقل والخبر النصي، وهذه بمثابة الباب المفتوح إلى عالم الأفكار والمعتقدات، فالاعتداد بالعقل والاتكاء عليه دون غيره، أحد أبرز السمات الأساسية للمعتزلة.

كقول أحدهم: «**لم يقبل ظاهر الخبر في مخالفة مقتضى العقل، لأنا قد علمنا بالعقل على الإطلاق أن الله ﷻ لا يكلف إلا ما يطاق، وأن ذلك قبيح. فلو قبلنا الخبر في خلافه، لم يخل إما أن نعتقد صدق النبي ﷺ في ذلك فيجتمع لنا صدق النقيضين، أو لا نصدقه فنعدل عن مدلول المعجز وذلك محال**»[3].

ومن أبرز الأمثلة التي تعتبر عند المعتزلة منزلق مقيت هو القطع بالكذب على أن النبي ﷺ أقر رؤية المؤمنين لله ﷻ يوم القيامة.

فقد صح عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم، أن النبي ﷺ قال: «**إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»[4].

---

(١) المعتمد في أصول الفقه، تأليف: أبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي، (٤٣٦هـ)، قدم له: الشيخ خليل الميس، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان. (٢/١٥٣).

(٢) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق: الدكتور عبد الكري عثمان، الناشر: مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص٥٢.

(٣) المرجع السابق (٢/١٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

ورغم صحة الخبر وقطعية ثبوته ودلالته، رده المعتزلة لمخالفته أصولهم العقلية، حيث قالوا عن الحديث الصحيح الثابت: «**فيجب أن نقطع أنه كذب على النبي ﷺ وأنه لم يقله، وإن قاله فإنه قاله حكاية عن قوم**»[1]!

وقد وجدت المخرج المعتزلي (حكاية عن قوم) في السياق التأويلي يتكرر كثيراً في كتبهم وتراثهم، ومن يفتش عن هذا المخرج يجد أن أساسه مستلزماً من مستلزمات اعتمادهم المنهجي العقلي، فمحرك فكرة المخرج المتكررة هو اعتمادهم واعتدادهم العقلي لا حقيقة معرفتهم بحكاية النبي ﷺ عن آراء وأفكار أقوام حوله في كل حين.

٣ ـ عدم وجود المنهي للحدود العقلية، فالمطلع على تاريخ المعتزلة يدرك حجم المساحات العقلية، وحرية الجهد العقلي اللامتناهي في مضمار الأفكار والآراء الموصل إلى الثمرة الضئيلة، ولذلك كثر فيه الاختلاف والتباين والتفرق نتيجة هذا الشسع الفكري.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الظاهرة فيهم وهو في معرض حديثه عن طرق المعتزلة التي يثبتون بها أصولهم: «**وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد، أما المقاصد فإن حاصلها بعد التعب الكثير والسلامة خير قليل، فهي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل. ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا.**

أما الوسائل: فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات، ينقطع السالكون فيها كثيراً قبل الوصول، ومقدماتها في الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها، وإما خفية لا يدركها إلا الأذكياء، ولهذا لا يتفق منهم اثنان. على جميع مقدمات دليل إلا نادراً، فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة، والمتكلمين له طريقة في الاستدلال، تخالف طريقة الرئيس الآخر، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما في طريقة الآخر، ويعتقد كل منهما أن الله لا يُعرف إلا بطريقته، وإن كان جمهور أهل

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٢٦٨.

الملة، بل عامة السلف يخالفونه فيها»[1]

ولهذا شخص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أساس ومنبع الانحراف المعتزلي في كثير من الأفكار المبثوثة في تراثهم، وكشف عن ضعفهم المنهجي والاستدلالي، حيث يقول:

«وإنما عمدة الكلام عندهم ومعظمه هو تلك القضايا التي يسمونها العقليات وهي أصول دينهم، وقد بنوها على مقاييس تستلزم رد كثير مما جاءت به السنة الصحيحة فلحقهم الذم من جهة ضعف المقاييس التي بنوا عليها، ومن جهة ردهم لما جاءت به السنة»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٧).

الاعتبار الشرعي لمحرك تحرر العقل والاعتداد به

لقد أولت الشريعة الإسلامية من الناحية الأساسية للعقل اعتباراً يدركه كل من علم في العلوم الشرعية، وما أقصده هنا الاعتبار الشرعي للعقل من حيث تحرره وتجاوزه الحجم المناط له، وعدم تقيده بأي جانب خارج عنه، وتأثير ذلك على الأحكام والأفكار والمعقدات، ويمكن أن أبين أوجه هذا الاعتبار الشرعي فيما يلي:

١ ـ إعمال العقل في مساحات شرعية متعددة؛ حيث إن الدعوة الشرعية إلى التأمل والتفكر أعظم شاهد على الاعتبار الشرعي للعمل العقلي، فقد لقي العقل حفاوة كبيرة في الشريعة الإسلامية، وتكررت دعوات القرآن الكريم إلى إعماله واستعماله وتحريكه في إدراك أسرار الكون وحقائق الأمور كثيراً.

وقد سلك القرآن الكريم في الدعوة إلى هذا الإعمال أساليب متعددة ومتنوعة وفي سياقات قرآنية مختلفة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم: ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وفي سياقات أخرى في المدح لمن استعمل عقله وجعل سلوكه في الإطار الصحيح قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الرُّوم: ٢٨] ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدحٌ وحمدٌ لعدم العقل والتمييز والعلم، بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه ونحو ذلك في غير موضع وذم عدم ذلك في مواضع**»[١].

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (٢/١٥٨).

«ومما لا شك فيه أن للعقل بجميع معانيه مكانة عالية، وما يرد من ذم أصحاب العقول أحياناً فهو باعتبار نقصها أو اختلالها عندهم، فالذم متجه إلى نقص العقل لا إلى العقل ذاته، وهذا مما يزيد في إكبار العقل وتعظيم قدره: أن تكون زيادته مدحاً ونقصه ذماً، ولم يرد في القرآن ولا السنة في شأن العقل إلا ما يفهم منه أنه بهذه المثابة، وقد وردت مادته في القرآن تسعاً وخمسين مرة، كلها يفيد أن انتفاء العقل مذمة، هذا سوى ذكر مرادفاته»[1].

٢ ـ التوجيه الشرعي لسلوك العقل، فقد اعتبرت الشريعة الإسلامية سلوك العقل في تحذيرها المتكرر بأن يُهمش فيصابه التقليد والإمعة والتجهيل، وفي المقابل تحذر أن يُعطى فوق مقداره فيُقدس ويُقدم على ما هو أولى منه أن يقدم.

ففي التحذير الشرعي الأول منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البَقَرَة: ١٧٠]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾ [المَائدة: ١٠٤].

وفي السياق الآخر والتحذير الشرعي من أن يتجاوز العقل حدودٌ رسَمت له، ما جاء به التعبير القرآني في عدم إحاطة العلم لبني آدم عن الله سبحانه وذاته الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]، وغيرها من سياقات التحذير الشرعي في كف الخوض عن ماهية الغيبيات والخوض في القدر وغيرها.

٣ ـ التعامل الشرعي مع تساؤلات العقل المتحرر، فقد استحضرت الشريعة الإسلامية هذا المحرك، من حيث توضيح كيفية التعامل مع ما ينتجه هذا التحرر والاعتداد.

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، تأليف: الدكتور سعود بن عبد العزيز العريفي، الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث ـ السعودية. الطبعة الرابعة: ١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م. ص٣٨.

ومنه حديث رسول الله ﷺ يوم ذكر شأن هذا السلوك العقلي في تحرره وعدم وضع الحدود أو القيود له وما يفرزه من التساؤلات، يقول ﷺ: «**لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟! فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله**»[1].

فالحديث بين أن هذا المحرك التساؤلي العقلي ينطلي على الناس، ثم بين التعامل الشرعي تجاه استغراق وتأثير هذا المحرك في الأفكار والمعتقدات، وهو مبدأ التسليم، فالتسليم كابحٌ لجماح العقول في مساحات الاعتقاد وقضايا الإيمان.

ومن ذلك تعامل الخطاب القرآني مع الشبهات العقلية البحتة للأصول العقدية، فالمتأمل لطريقة الإجابة بضرب الأمثلة ـ على سبيل المثال ـ في سياق الاستفهامات العقلية الصادرة من العقول المتحررة يجد حضورها في الخطاب القرآني بشكل متكرر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**وقد بينا في غير هذا الموضع أن القرآن ضرب الله فيه الأمثال، وهي المقاييس العقلية التي يُثبت بها ما يُخبر به من أصول الدين: كالتوحيد وتصديق الرسل وإمكان المعاد، وأن ذلك مذكور في القرآن على أكمل وجه؛ وإن عامة ما يُثبته النظار من المتكلمين والفلاسفة في هذا الباب يأتي القرآن بخلاصته وبما هو أحسن منه على أتم الوجوه، بل لا نسبة بينهما لعظم التفاوت**»[2].

٤ ـ أن العقل المتحرر كان أبرز العلامات الفارقة بين أهل السنة والمبتدعة، فأثر تحرر العقل في الفضاءات الشرعية بالغ في تخليق الأفكار والمعتقدات واعتناقها بعد ذلك وانتهاجها بين الأجيال، حتى أنه أصبح أحد الأمارات والعلامات في التفريق بين أهل السنة والجماعة وغيرهم من المبتدعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (٢١٢)، واللفظ له.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٦٤٤).

يقول الإمام أبو المظفر السمعاني[1] في شأن منزلة السلوك الصحيح للعقل مقابل السلوك البدعي له: «**واعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة قالوا: الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بُني على المعقول لجاز للمؤمنين ألا يقبلوا شيئاً حتى يعقلوا..**»[2].

---

(١) هو أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد بن محمد بن جعفر السمعاني التميمي، الفقيه الإمام المشهور، له تصانيف في الفقه وأصوله والحديث، منها: منهاج أهل السنة، والانتصار والرد على القدرية وغيرها، وفي أصول الفقه: القواطع، (٤٢٦هـ ـ ٤٨٩هـ) انظر: الأنساب للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (٥٦٢هـ)، الناشر: وزارة المعارف والشؤون الثقافية للحكومة العالية الهندية، الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م. ٧/ ٢٢٢ ـ ٢٢٦.

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، تأليف: الإمام أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني (٥٣٥هـ)، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع (١/ ٣٢٠ وما بعدها).

المحرك الرابع

التباين والتفاوت المنهجي

«تأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية؛ لأن القياس عند الحنفية أصلٌ للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث، وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم، وليسوا بأهل نظر»

العلّامة ابن خلدون

المقصود من محرك التباين والتفاوت المنهجي

المراد من المحرك: هو أن تكون الفكرة أساسها ومنشؤها هي الطريقة العامة المنتهجة في العملية العقلية لجميع نواحي الحياة، على نطاق السلوك والأفكار والمعتقدات، لا أن يكون المحرك لها هو ذات الفكرة، وبذلك تكون المسلمات الأساسية والثوابت الكبرى الإدراكية لدى صاحب الفكرة هي التي تدفعه لتفاصيل الأفكار أو عمومها.

وقد تنفصل الفكرة الجزئية عن الكلية والكبرى في الجانب الموضوعي، لكن لكون الأولى ثمرة للمسلمات الأساسية؛ ولذلك قد يقع الخلاف بين فكرتين جزئيتين بعيدتين عن المسائل العقدية لكن أساس الاختلاف فيها هو التباين والتفاوت بين أصحابها في مناهجهم العقلية وطرائق مسالكهم في الفهم والعلم والاستدلال.

وليس المراد هنا التفاوت والتباين في المستوى العقلي بين الناس كما أبان ذلك ببراعة الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء[1]، وإنما المراد التفاوت

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٨٧). في باب بيان تفاوت النفوس في العقل.

في المنهج الأيديولوجي بين صاحب الفكرة والمتلقي لها وما ينتج عن ذلك من اختلاف فكري.

تأثير محرك التباين والتفاوت المنهجي في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

أبين فيما يلي بعض المحددات العلمية التي ترسم المفهوم الخاص لهذا المحرك، ومدى علاقته في تخليق ونشوء الأفكار والمعتقدات، ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

١ ـ واقعية تأثير منهج التفكير والنمط الأيديولوجي في نتاج الأفكار، فالفاحص القارئ للمدارس العلمية أو المضلات الفكرية والأنماط المعرفية يدرك أن لطبيعة معتقدات المرء بالفكر تأثير عليه في نتاج أفكاره وآرائه.

وفي ذلك قد يختلف المعتزلي أمام الصوفي في مسألة ليس لها علاقة بالجانب العقدي، ولكن المنهج العقلي للمعتزلي في تناوله للأفكار والأخبار والآراء يختلف عن الطبيعة الصوفية العقلية ـ على سبيل المثال ـ في مدى صدق هذا الخبر ومدى معقوليته.

ومن ذلك التباين والتفاوت في التنميط العلمي للتفكير، فالباحث والمستغرق لوقته وجهده في علم الأصول ـ على سبيل المثال ـ يدرك مدى تأثير مسائل علم الأصول في تنميط تفكيره في النتائج فضلاً عن الوسائل، وفي نطاق منهجي بين المذاهب الأربعة عن تأثير أدوات منهجهم الفقهي وأدواتهم الأصولية على المسائل والأفكار وثمارها،

يقول العلامة ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق الحديث عن علم الجدل والاستدلال: «**وتأليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تأليف المالكية؛ لأن القياس عند الحنفية أصلٌ للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث، وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم، وليسوا بأهل نظر**»[1].

(١) مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ)، تحقيق: يحيى مراد، الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م. ص٥٧٢.

وقد أشار الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التفريق بين مدارك ممارسي العلوم المختلفة المناهج، فيقول أن: «**اختلاف الأخلاق والأحوال والممارسات يُوجب اختلاف الظنون، فمن مارس علم الكلام ناسب طبعه أنواع من الأدلة يتحرك بها ظنه لا يناسب ذلك طبع من مارس الفقه**»[1].

٢ ـ المنهج الفكري والعقدي جزء لا يتجزأ عن الأفكار والآراء، فالمناهج الفكرية هي الأوعية للأفكار والمعتقدات، ومن هنا تأتي هذه الوثوقية في بيان أهمية معرفة المنهج المتبع لصاحب الفكرة.

فمعرفة المنظومة الكلية الفكرية لصاحب الفكرة أمر من الأهمية بمكان حتى تتم كيفية التعامل معه وطريقة التناول الفكرية له، على ألا يتجاوز الأمر إلى أن يكون ذلك نافذة للتصنيف والتقولب الأيديولوجي، وعلى هذا دأب العارفين في نوابع الأفكار والمعتقدات، وبذلك تحققت فيهم سمة العدل والإنصاف في القراءة وصحت عملية الفحص والتنقيب بحقهم.

وقد تجلى شيخ الإسلام في قراءة إفرازات المناهج البدعية المتعددة يوم قال: «والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء، فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة. والزيدية من الشيعة خير منهم: أقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج، ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم؛ فإن الظلم حرام مطلقاً كما تقدم، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا يُنصف بعضنا بعضاً»[2].

٣ ـ أن معرفة درجة التباين والتفاوت المنهجي مؤثرٌ على مسار الحوار وتوالد الأفكار، فمعرفة حدود منهج من يطرح الفكرة ومن يضادها مؤثر في

---

(١) المستصفى لأبي حامد الغزالي ص٣٥٤.

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/١٥٨).

التناول والقراءة لهذا المشهد الثقافي والفكري، من حيث التعامل معه في الإجابة والتوضيح والبيان، ومن حيث التحليل لهذا الرأي وقراءة جذوره وقربه أو بعده عن المنهج المقابل له.

فالمنهج البدعي في دائرة الإسلام أقرب من المنهج المشرك الكافر الخارج عن الإسلام، وفي ذلك تختلف الأطر العلمية والموضوعية، كما تختلف القراءة التحليلية لهذه الاستمدادات المنهجية.

ولذلك حين يدرك الفاحص الخلفيةَ المنهجية والمرجعية الفكرية لأي مجتمع ما أو فرد ما، يكون قد أدرك التعامل معه ومعرفة مداخله في التأثير على فكرته، ومدى أهلية هذه الفكرة التي يصدرها حتى تكون مقبولة لديه أو مرفوضة.

ومن ذلك ما أدركه مؤسس الدعوة العباسية (**محمد بن علي بن عبد الله بن عباس**)[1] من أثر المرجعيات المنهجية على قبول الفكرة العباسية من رفضها حين قال لدعاته في سبب اختيارهم لخرسان وخلو أهلها من المرجعية المنهجية والمعطى الذي يدفعه إلى أن تُقبل الفكرة الناشئة فيهم عن غيرهم من المنهجيات الأخرى، يقول:

«أما الكوفة وسوادها فشيعة علي، وأما البصرة فعثمانية[2] تدين بالكف، وأما الجزيرة فحرورية مارقة أعراب، مسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخرسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم تتوزّعها النحل، ولم يقدح فيها فساد..»[3].

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب، الهاشمي القرشي أول من قام بالدعوة العباسية. وهو والد السفاح والمنصور. ولي إمامة الهاشميين سرا في أواخر أيام الدولة الأموية، ومات في أرض الشراة بين الشام والمدينة. (٦٢هـ - ١٢٥هـ). الأعلام للزركلي (٦/ ٢٧١).

(٢) نسبة إلى عثمان بن عفان أي يدينون وتقرر المرجعية المنهجية لهم بالكف عن القتل والقتال، ويقولون: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، الناشر: =

من شواهد محرك (التباين والتفاوت المنهجي) وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

من أبرز شواهد حضور المحرك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هو الاختلاف المنهجي والعقدي لدى اليهود والنصارى في العهد النبوي والذي أنتج موقفهم من الدعوة النبوية وأوضح نمط ونوع مجادلتهم لرسول الله ﷺ، ولذلك كان الاختلاف بين مواقفهم وآرائهم تجاه بدايات الدعوة وبين مواقف سادات قريش والعرب في تلك المناطق والذي أساسه الاختلاف المنهجي والعقدي.

فأساسيات المنهج الجاهلي لم تفرز مواقف وآراءً شبيهةً بمواقف وآراء اليهود والنصارى تجاه دعوة النبي ﷺ، بل إن من أسلم من اليهود قد يختلف محركه عمن أسلم من المجتمع الجاهلي، وأصل ذلك وأساسه ما كان من منطلقات أساسية استقرت في المكنون العقلي عند كليهما.

ويمكن فيما يلي أن أورد نماذج من انطباعات وآراء ومواقف اليهود والنصارى تجاه دعوة النبي ﷺ والتي توضح تأثير الخلفية المنهجية الحاضرة لديهم والغائبة عن الذهنية الجاهلية:

١ ـ موقف بحيرى[(١)] الراهب يوم أن رأى النبي ﷺ فأوصى أبا طالب به، فإنه «**لما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حُبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم،**

= مكتبة مدبولي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. (١/ ٢٩٣ وما بعدها).

(١) يقال: أنه كان حبراً من أحبار يهود تيماء، وكان إليه علم أهل النصرانية، واسمه: سرجس وكان من عبد القيس، انظر: السيرة النبوية لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعارفي، أبو محمد جمال الدين (ت:٢١٣هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد. الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة. (١/ ١٦٥).

فأسرع به إلى بلاده»[1].

فهذا الرأي في النبي ﷺ والرأي عن خبر أبيه، والرأي الآخر في تحذيره من اليهود دون غيرهم وهو في صغره، لم ينشأ إلا عن خلفية منهجية، في ظل غيابها في أجواء مكة وبين قوم النبي ﷺ حيث يتجول غلاماً ولا تثار حوله التساؤلات الناجمة عن المرجعية المنهجية لليهود.

٢ ـ الخلفية المنهجية السابقة لدى الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، فسلمان الفارسي كانت خلفيته المنهجية هي التي صنعت له رأيه وموقفه تجاه النبي ﷺ بذاته وبصدق دعوته، فقد كان مجوسياً ثم نصرانياً وكانت الفكرة المنهجية لديه تجاه الدعوة النبوية أنها في أرض العرب وبصفات معينة محددة، وأن النبي ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وأن بين كتفيه خاتم النبوة كل هذه المعطيات التي شكلت تصوره المنهجي استقاها من التوجيه النصراني عن الراهب كما روى ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه عن الراهب قبل موته يقول له:

«أي بُني والله ما أعلمه أصبح على كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»[2].

فكانت هذه الوصية المنهجية هي البوصلة التي قادت سلمان الفارسي رضي الله عنه للنبي ﷺ وهي التي صنعت تساؤلاته وآراءه تجاه النبي ﷺ ودعوته.

ولذلك فالمتأمل لقصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه يكتشف مدى قوة تأثير مرجعية المنهج النصراني عليه في ظل غياب هذه المنهجية لدى إسلام

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/١٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٤٤١ ـ ٤٤٤)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض. الطبعة الأولى، (٢/ ٥٦٠).

غيره، فحاله وما أصابه وقت استقبال خبر نبوة النبي ﷺ يوم كان سلمان الفارسي في أعلى النخلة في خدمة سيده، ثم تحققه من المعطيات المنهجية التي بجعبته عند رسول الله ﷺ في قباء، إلى تفحصه كتف نبي الله ﷺ بحقيقة وجود الخاتم عليه وتفهم النبي ﷺ لخلفيته ومعطياته المنهجية أن ألقى رداءه عنه ليرى ذلك، حتى انكبابه وتقبيله وبكائه هي خطوات انطلقت من منهجية مسبقة لم يسبق لأحد كان مختلفاً منهجياً عنه أن سار إليها واقتفى تحقق أمرها من عدمها.

قال الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﵁ عن قصته وخطوات تحققه وشعوره حال علمه بخبر ونبأ النبي ﷺ: «**فوالله إني لفي رأس عذقٍ لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه** فقال: فلان قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، قال: **فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أني سأسقط على سيدي**، قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبت عما قال، **وكان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذووا حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا وأمسك يده فلم يأكل، فقلت: في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي هاتان اثنتان ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدرته عرف أني استثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى**

الخاتم فعرفته فانكببتُ عليه أُقبله وأبكي..»[1].

فحين يقارن الفاحص بين المرجعية ذات الحمل الديني وبين المرجعية الجاهلية يجد الفارق الموضوعي في طرح الأفكار والآراء والمعتقدات النهائية، - فعلى سبيل المثال - من النماذج الجاهلية والتي تبين محدودية الإطار المفاهيمي لتلك المرجعية فيما تم عرضه على النبي ﷺ من الخيارات والحلول، وهو ما أرسلته قريش إلى النبي ﷺ وهو «**عتبة بن ربيعة - وهو رجل رزين هادئ - فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ...»**[2].

---

(١) السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٠٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٢٤٦)، وحسن إسناده الألباني في فقه السيرة رقم (١٠٧).

الاعتبار الشرعي لمحرك التباين والتفاوت المنهجي

لقد راعت الشريعة الإسلامية هذا المحرك من اعتبارات متعددة ومختلفة، لكن نخلص إلى أن الشريعة الإسلامية جعلت من التباين والتفاوت المنهجي والاختلاف في العقلية الإدراكية الكبرى تأثيراً على تصورات الإنسان، ويمكن أن أبين أبرز هذه الاعتبارات فيما يلي:

١ ـ الاعتبار الشرعي للاختلاف والتفاوت والتباين المنهجي، من حيثيات متعددة منها: ـ من حيث استحضار ذلك في الدعوة إلى الله، ونشر الأفكار الشرعية في المساحات العقدية المقابلة لها.

ويتجلى هذا الاعتبار حين هاجر أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، وحوارهم مع النجاشي، وكذلك في نموذج للتواجه المنهجي حين انتقل النبي ﷺ إلى المدينة وكان أهل الكتاب في المدينة المنورة، ومن يتأمل كثيراً من الآيات القرآنية يجد أنها بدأت بخطابهم ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النِّسَاء: ١٧١].

ومن ذلك ما بينه النبي ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه يوم أن أرسله إلى اليمن وفيها أهل الكتاب لدعوتهم، قال ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «**ثم إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً** رسول الله، **فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم إن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة...**» الحديث[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «**قوله ستأتي قوماً أهل كتاب، هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل العسقلاني الشافعي رقم أبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه: محب الدين الخطيب. الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، سنة الطباعة: ١٣٧٩م، (٣/٣٥٨).

- **من حيث ما أثاره الخطاب القرآني من التساؤلات الخارجة عن نطاقه المنهجي**، فالمتأمل لبعض من الآيات القرآنية يجد أن أسلوب التساؤل المنهجي الذي لا يصدر من المنظومة الشرعية بقدر ما يصدر من خارج هذه المنهجية، منها قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤].

- **من حيث ما أجاب عنه الخطاب الشرعي وتقبله من الأسئلة خارج الإطار المنهجي عنه**، فالمتأمل القارئ لتعامل النبي ﷺ مع حجج وأسئلة النصارى واليهود وأجوبته ﷺ يدرك حجم المراعاة في الاختلاف المنهجي والتفاوت في المرجعية العقلية وطريقة المجادلة وطرح الحجج.

ومن ذلك ما رواه المغيرة بن شعبة بقوله: «**لما قدمت نجران، سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون يا أخت هارون؟ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يُسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»**»[(١)].

فحضور المنهجية المخالفة في فكرة السؤال المطروح ملحوظ ومؤثر في الفكرة، فجاء الجواب النبوي مراعياً لهذه المرجعية المنهجية لتكون الإجابة مستندةً عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهذا السؤال الذي هو سؤال الطاعن في القرآن لما أورده أهل نجران الكفار على رسول الله ﷺ ولم يجبهم عنه، أجاب عنه النبي ﷺ، ولم يقل لهم: ليس لكم عندي إلا السيف، ولا قال: قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه، وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولاً إلا والجهاد مأمور به. وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه**»[(٢)]

- **من حيث تقبل الطرح المنهجي في أجواء المناقشة والمجادلة**، ففي غير مرة يقع للنبي ﷺ ما يعتبره كل مسلم أنه تقصير بحق نبينا ﷺ ولكن إن بدى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٣٥).

(٢) الجواب الصحيح لم بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٢٢٧ وما بعدها).

ذلك من المخالف الخارج عن الإسلام يقبله النبي ﷺ لاعتباره الاختلاف والتباين.

فقد روى ثوبان مولى رسول الله ﷺ: «**كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال** رسول الله ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**»» الحديث[1]...

- **من حيث ما بينه الخطاب القرآني من العلل العقلية التي تراعي أصول المنهجية غير المؤمنة والمسلّمة للنص الشرعي**، كما في المحاجة العقلية في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٤ - ٣٥] وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]، في سلسلة طويلة من التساؤلات ذات علل عقلية راعت المنهجية المخالفة وأصول أفكارها، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٣٥ - ٤٣]، وغيرها من الآيات الشاهدة والدالة على مراعاة الشريعة الإسلامية لطبيعة وحضور تأثير الاختلاف والبون والتفاوت المنهجي في قبول الأفكار والمعتقدات ورفضها.

٢ - **اعتبار الاختلاف الكوني بين البشر**، فالإقرار الشرعي لحتمية

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣١٥).

الاختلاف في التصورات وطريقة تشكلها، اعتبارٌ في التباين والتفاوت المنهجي الذي هو ثمرة هذه الحقيقة الكونية، وليس هذا تبريرٌ شرعي لتقرير شرعية وصحة وقوع الخلاف، لكنه تقرير شرعي على أمرٍ كوني، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هُود: ١١٨ ـ ١١٩].

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقد نص تعالى على أن الاختلاف ليس من عنده، ومعنى ذلك أنه تعالى لم يرض به، وإنما أراده تعالى إرادة كونٍ، كما أراد الكفر وسائر المعاصي**»[1].

وبذلك جاء القرآن الكريم في ذكر بعض صور الاختلاف بين البشر، كاختلاف الألوان واللغات، وأنهما فرع عن اختلاف الأجناس والقوميات، قال تعالى في سياق الاختلاف المنهجي بين الإسلام والأديان السابقة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المَائدة: ٤٨].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هذا إخبارٌ عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد**»[2].

٣ ـ النقد الشرعي لقصور النظر والاعتبار في تصور الاختلاف والتفاوت المنهجي بين الناس، فالتقرير الإلهي من الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه محمد ﷺ بأن عليه البلاغ فقط دون الإجابة عن المخالف المنهجي هو تأكيد على حجم الاعتبار لهذا المحرك. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغَاشِيَة: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، تأليف: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري (٤٥٦هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (٥/ ٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يقول: لست عليهم بمسلط، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد، يقول: كِلهم إليّ، ودعهم وحكمي فيهم**»[1].

ومن ذلك ما نقله القرطبي من نموذج شرعي في استيعاب المنهجيات المختلفة والمتعددة، حيث يقول:

«**قال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عند ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيّ حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل، يقول الله تعالى:** ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣] **فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى**»[2].

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦).

المحرك الخامس

الغموض في الأفكار وأساليب طرحها

«مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسوا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه وتبادر إلى اعتقاده وتقليده ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه»

ابن القيم الجوزية

المقصود من محرك الغموض في الأفكار وأساليب طرحها

هو أن يكون أساس ومنبع القناعة بالفكرة هو طريقة طرحها والأسلوب الذي تم عرض الفكرة فيه، فكم من فكرة كانت مقنعة ونافذة لعقول المخاطبين بسبب الطريقة في عرضها وبسطها.

ومن أبرز الأساليب التي يتم ترويج الأفكار عليها هي الغموض والإبهام، فتكون القناعة بالفكرة لبريق غموضها وما تحمله من الخفاء في الغرض والهدف، **قال ابن خلدون** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الأساليب: هي القوالب والتراكيب التي تصاغ فيها المعاني**»[(١)].

وكما هو معلوم لدارس الأفكار والمنقب عن محركاتها، أن للأساليب وطريقة القول والعرض تأثير بالغ في ذات الفكرة، ولذلك تجد كل صاحب فكرةٍ أياً كانت حريصاً على أن يعرضها في أفضل طريقة تناسب من يستهدفه في أساس هذه الفكرة؛ لأنه يعلم ويدرك مدى تأثير المتلقي في قبول ذلك أو رفضه.

(١) مقدمة ابن خلدون (٢/ ١٢٧٩).

تأثير محرك الغموض في الأفكار وأساليب طرحها في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

أوضح أبرز الجوانب التي يتبين بذكرها تأثير الأساليب في عرض الأفكار في العموم، وعلى الخصوص في أسلوب الغموض والإبهام:

١ ـ أن من بحث في أصول الأفكار يدرك أن التعقيد في الحديث وطلب الوعورة في العبارة هو مما يستهوي بعض الخائضين في الفكر.

يشرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا النمط من التفكير حيث يقول عنهم: «**كم تعود أن يحج من طريق بعيدة معطشة مخوفة، وهناك طرق أقرب منها آمنة وفيها ماء، لكن لما لم يعتدها نفرت نفسه عن سلوكها، وكذلك الأدلة التي فيها دقة وغموض وخفاء، قد ينتفع بها من تعودت نفسه الفكرة في الأمور الدقيقة، ومن يكون تلقيه للعلم عن الطرق الخفية التي لا يفهمها أكثر الناس، أحب إليه من تلقيه من الطرق الواضحة التي يشركه فيها الجمهور. . .،**

فهذه الطرق الطويلة الغامضة التي تتضمن تقسيمات، أو تلازمات، أو إدراج جزئيات تحت كليات، قد ينتفع بها من هذا الوجه في حق طائفة من الناظرين والمناظرين، وإن كان غير هؤلاء، من أهل الفطر السليمة والأذهان المستقيمة، لا يحتاج إليها، بل إذا ذكرت عنده مجها سمعه، ونفر عنها عقله، ورأى المطلوب أقرب وأيسر من أن يحتاج إلى هذا»[1].

ويشخص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا النمط من التفكير أكثر فيقول:

«**وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة...، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيجب معرفة الأمور الخفية**

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٨٧).

الدقيقة الكثيرة المقدمات وهذا يسلك معه هذه السبيل»[1].

٢ ـ حقيقة تأثير الأدوات الإعلامية المعاصرة في الأفكار والمعتقدات، فنظرة خاطفة ـ وليس من الأهمية بمكان أن تكون فاحصة ـ إلى حجم الأفكار والمعتقدات التي يتم الترويج لها في المكينة الإعلامية المعاصرة اليوم، تجعلك تدرك أن الأساليب والطرق ـ على سبيل العموم ـ هي ما يُعتمد عليها في مدى رواج أيّ فكرة وإن كانت عارية من الصحة والصواب، فالمحرك المؤثر هو خارجٌ عن موضوعية الفكرة ذاتها، وهذه طرق يسهب المتخصصون في الحديث عنها وتوضيحها.

٣ ـ الحالة النفسية التي تعتري الواقع في شراك منتهجي أسلوب الغموض في طرح أفكارهم وآرائهم، فالفاحص لحال وشأن المتلقي للكلام الذي لا يفهمه يدرك أنه يدخل في مرحلة الانهزام الثقافي أو المفاهيمي.

حيث إن غموض كلمة أو فكرة ما تقابله يثمر انكساراً له في نفسه، وقناعة منه بقصور منطقه وحدّة عقله، وذلك ما يدفعه إلى تقرير نتائج هذه الفكرة ليست لذاتها وإنما لما قادته إليه نفسه المنكسرة أمام هذا التباهي المعرفي، كم توارى فهمُ وإدراكُ القارئ خلف عبارةٍ لا يعرف مرادها سوى كاتبها، خجلاً من رنينها على المسامع ووقعها على القلوب.

وقد برع شيخ الإسلام في تشخيص هذه النفسية التي تعتري المنهزم أمام حرف الغموض والإبهام، يقول قدس الله روحه عن مسرح انهزام الملاحدة ومن وافقهم من أهل البدع:

«ولكن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركبوها وألفوها تأليفاً طويلاً بنوا بعضه على بعض، وعظموا قولهم، وهولوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضاً لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما

(١) الرد على المنطقيين ص٢٥٥.

تنفر عنه فطرته فأخذ يعترض عليهم قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل»[1].

٤ ـ الواقعية التاريخية لتأثير أسلوب الغموض والإبهام على سير الأفكار والقناعات والمعتقدات، ويكثر وقوع ذلك بين شرائح فكرية متعددة أو لغات متباينة، وهو ما حدث لجملة من وقعوا في آثار الغموض الفلسفي، فأسرتهم هالة الفلسفة ودقة من خاضها ليستسلموا ويُذعنوا لها، فيركبوا موجتها تأسياً بقائلها لا لما تحمله الفكرة من الصواب.

وما أروع الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم أن تكلم عن هؤلاء وكيف آل بهم انبهارهم بالأدوات الفلسفية إلى التجمل أمام هذا الزخم الفلسفي والهالة المعرفية والعلمية لها بترك الحق والكفر بالإسلام، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين...، وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة، كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاوطاليس وأمثالهم، وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم..، وحكاياتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة.

فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم، وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء..، فأية رتبة في علم الله أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة، فليس

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩٥).

في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء»[1].

من شواهد محرك الغموض في الأفكار وأساليبها وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، **ما سلكه بعض المبتدعة في مسائل الإيمان عموماً وفي أبواب الصفات على وجه الخصوص، ومن أبرز من جعل الإبهام في المعاني والمكر والخديعة في القول أسلوباً لتمرير معتقداتهم وأفكارهم هم (المعطلة والجهمية)** وذلك لما سلكوه في شرح الصفات لله ﷻ على وجه الإبهام والغموض والذي يؤثر في متلقي هذا الأسلوب المغاير لطريقة البيان والتوضيح.

وقد برع الإمام ابن القيم رحمه الله في رصد هذا الأسلوب لدى المعطلة والجهمية، وأدرك مدى تأثير ذلك على الناس في السياق الفكري والعقدي، يقول ـ تغمده الله برحمته ـ في وصف بليغ لهذا الأسلوب واستخدامه البدعي وأنهم: «**حالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستوائه على عرشه: تشبيهاً وتجسيماً وحشواً، فنفروا عنه صبيان العقول، وسموا نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث، وسموا وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاءً، مكراً منهم كُباراً بالناس، كم يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة ويقول: مائع أصفر يُشبه العذرة المائعة، أو يُنفر عن شيء مستحسن فيُسميه بأقبح الأسماء، فعل الماكر المخادع، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.**

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق

---

(١) تهافت الفلاسفة، للإمام أبو حامد الغزالي، تحقيق: د. سليمان دنيا، الناشر: دار المعارف ـ مصر ـ القاهرة، الطبعة الرابعة. ص٧٣ وما بعدها.

الإيمان، وما جاء به الرسول ترتب عليه الإعراض عن الله، وعم ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه»(١).

ومن النماذج والأمثلة على كون الغموض في الأفكار يُتخذ أسلوباً لغاية تمرير الأفكار والآراء هو الخطاب الحداثي العربي المعاصر المتمثل في كتابات المفكر المغربي محمد أركون وغيره ممن استسهل الحرف الغامض في السياق الفكري والمعرفي، حتى يقطف الثمرة في إبهار القارئ لذلك الحرف وتلك الصفحات المليئة بالتحذلق والتقعر في المباني فضلاً عن المعاني، بل إن المعاني تكون في أحايين أبسط وأسهل من المباني اللغوية المنسوجة في كتابات هؤلاء المفكرين، حتى يقع القارئ في ظنه أن عدم فهمه لتلك المباني واللغة الوعرة هو من عبقرية وبراعة هذا الخطاب وأن هذا المفكر أطروحاته فوق مستوى إدراكه وفهمه.

ولعلي أورد شهادة الدكتور عبد العزيز حمودة(٢) **والذي كرس جهده في خوض غمار المقالات الحداثية**، وهو يحكي مشاعره في معاناته لهذا السعي مع كونه متمكن المهارة في الأدب الإنجليزي والعربي، يقول في مقدمته لكتابه (المرايا المحدبة):

«لقد طاردنا الحداثيون من منابع الحداثة الأصلية وفي عالمنا العربي بأفكار براقة ومصطلح نقدي أكثر بريقاً وجذباً لسنوات طويلة، وقد أعمانا هذا البريق عن حقائق كثيرة أبرزها المراوغة المقصودة والغموض المتعمد، مما جعل الحداثة في نهاية الأمر نادياً لنخبة النخبة، من ثم تعمدت التبسيط الشديد

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٣٢٦).

(٢) هو أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة الدكتور: عبد العزيز عبد السلام حمودة (١٣٥٦هـ/ ١٤٢٧هـ)، ولد في كفر الزيات بمصر، حصل على درجة الماجستير والدكتوراه في الأدب المسرحي من جامعة كورنيل الأمريكية، وعمل عميداً للدراسات العليا في جامعة الإمارات (١٩٩٣م ـ ١٩٩٧م)، من مؤلفاته: (المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، المرايا المقعرة: نحو نظرية عربية، الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص). وغيرها من المؤلفات. انظر: اصداراته في عالم المعرفة ـ الكويت.

في محاولة لفك طلاسم المصطلح النقدي والشفرة الفكرية والنقدية للمشروع البنيوي واستراتيجية التفكيك.

ولا أخفي القارئ سراً، أنني بدأت بشعور الرهبة والخشية في بداية تعاملي مع الفكر الجديد، وهي نفس الرهبة والخشية التي يشعر بها القراء جميعاً، ولا شك، من خارج نادي نخبة النخبة الحداثي.

ثم حدث أنني بعد أن تفرغت لدراسة الحداثة من داخلها بدرجة تكفي لفهما، ومن مسافة تمنعني من الانضمام غير المشروط إلى نادي نخبة النخبة، وجدت نفسي وقد زايلتني الرهبة والخشية وأصبحت قادراً على التعامل مع البنيوية والتفكيك دون انبهار. بل أصبحت قادراً على كشف بعض غموضها وفك طلاسمها. وهذا ما أردت توصيله للقارئ عله هو الآخر يستطيع أن يتلمس طريقة في متاهاتهما في متاهاتهما كما فعلت»[1].

وإن هذا القارئ هو الضحية في أسلوب الغموض الذي انتهجه الخطاب الحداثي في مؤلفاته ومقالاته المبثوثة في الفضاء الفكري، فضلاً عن أن تتم كتابة الأفكار وسبكها في لغة مغايرة للعربية كالإنجليزية أو الفرنسية ثم تتم ترجمتها، فيكون بعد ذلك الغموض المتراكم الذي يقع بين كفي القارئ، هذا المزيج والتراكم الذي دفع الجابري نفسه أن يقول:

«لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يفهم كتاباً مترجماً إلى العربية الآن في المواضيع الفلسفية، أنا شخصياً عندما أقرأ كتاباً ترجم في هذا العصر إلى العربية في موضوع فلسفي لا أفهمه»[2].

«بل من أعجب الطرائف التي وقعت في ترجمة الكتب الفلسفية والفكرية، أن المفكر المغربي عبد الله العروي، كتب كتابه (الأيديولوجيا العربية المعاصرة) عام ١٩٦٧م باللغة الفرنسية، ثم ترجمه محمد عياتي للعربية

---

(١) المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، تأليف: د. عبد العزيز حمودة، الناشر: عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت. الطبعة الأولى: ١٩٩٨م. ص٦ وما بعدها.

(٢) التراث والحداثة (دراسات ومناقشات)، تأليف: محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية ـ لبنان ـ بيروت. الطبعة الأولى/ ١٩٩١م، ص٢٥٣.

عام ١٩٧٠م وقدم لهذه الترجمة العربية ماكسيم رودنسون، وكل ذلك بالتنسيق مع المؤلف طبعاً، وجميع هذا لا عجب فيه، ولكن العجيب حقاً أن العروي نفسه اعترف ـ برغم أنه المؤلف ـ أنه لم يفهم الترجمة العربية لكتابه! وأنها طلاسم لم يستطع استيعابها، حيث أورد العروي لاحقاً بعض المقاطع من الترجمة العربية لكتابه ثم قال: (هذه ألغاز لا أجد سبيلاً إلى حلها، مع أني كتبت الأصل، فكيف استطاع غيري أن يفهمها؟!)[١]»[٢].

(١) الأيديولوجيا العربية المعاصرة، تأليف: عبد الله العروي، الناشر: المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء، الطبعة الأولى/ ١٩٩٥م، ص٩.

(٢) مآلات الخطاب المدني، تأليف: إبراهيم بن عمر السكران، الناشر: مركز تفكر للبحوث والدراسات ـ مصر، الطبعة الأولى/ ١٤٣٥هـ، ص٢٥٤.

الاعتبار الشرعي لمحرك الغموض في الأفكار وأساليب طرحها

لقد أولت الشريعة الإسلامية للأساليب وطرق العرض اعتباراً من ناحية الأهمية في عرض الأحكام الشرعية ومحكمات التنزيل، ومن ناحية التعامل مع المخالفين للرسالة الربانية والنبوية كونها تؤثر على الأفكار واعتقاد المخاطب بالأحكام. ويمكن أن أذكر أبرز الجوانب التي تبين منزلة هذا الاعتبار للأسلوب والطريقة في عرض الأفكار والمعتقدات فيما يلي:

١ ـ تأكيد الخطاب القرآني على ضرورة التعامل الحسن والطريقة الصحيحة في الدعوة إلى الله، فالمتأمل والقارئ للآيات الكريمة يدرك مدى منزلة ومكانة الأسلوب والطريقة في عملية تصدير الأفكار الشرعية والمعتقدات الإسلامية في البيئات المغايرة عنه.

فالتوجيه الرباني جاء بكل وضوح في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ادع يا محمد من أرسلك الله ربك بالدعاء إلى طاعته...، بالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكرهم بها في تنزيله...، وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تغضبه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك**»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أشار ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مدى وعظم تأثير هذا الأسلوب على الناس والأشخاص: «**قال تعالى مرشداً إلى الترياق النافع في مخالفة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة**»[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٥٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٨).

ولذلك امتدح الله ﷻ رسوله ﷺ **وقال للمؤمنين عن صفته** ﷺ **فقال تعالى**: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن ذلك التوجيه الرباني من الله ﷻ لنبيه موسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٢ ـ ٤٦].

٢ ـ تعامل النبي ﷺ بأساليب متعددة لشرائح مجتمعية مختلفة، وذلك إدراكٌ منه ﷺ لمدى تأثير الأساليب والطرق في الأفكار المقدمة على الأفكار ذاتها، ومدى وصولها إلى العقول والأفئدة.

والمتأمل للخطاب النبوي يجد أنه استعمل الأساليب المتنوعة والمتعددة ومنها الموعظة والترغيب والترهيب ومنها القصة والحوار وكذلك أسلوب التشريع بالأحداث والمواقف وكذلك أسلوب ضرب الأمثال وأسلوب الثواب والعقاب وغيرها من الأساليب ـ هذا على المستوى العام ـ.

أما ما يتعلق بالشرائح فالأسلوب النبوي واضح بيّن، للمرأة على سبيل المثال وللأطفال كذلك وغير هذا من إدراكه ﷺ لمدى أهمية الأسلوب في توصيل المعلومة والحكم، والتشريع للعقول والأفهام والأفئدة.

فالأسلوب النبوي مع الأطفال يناسب مرحلتهم والحالة العمرية التي يمرون بها عن غيرهم من الفئات، وكوّن لهم الأساليب والوسائل والطرق التي تؤثر في ولوج الأفكار لمداركهم، ومن ذلك:

• ومن ذلك ما حصل للصاحبي الجليل عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام، سم بالله، وكل بيمينك، وكل مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعد**»[١]، فسهولة اللغة وقصر التوجيه ولطف العبارة المناسبة للفئة العمرية كانت واضحة في الحديث النبوي.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

• ومنه تعليمه ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه سنّة السلام، فعنه رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا بُني، إذا دخلت على أهلك فسلم، يكن بركة عليك، وعلى أهل بيتك**»(١).

فالبعد عن التقعر في الحديث والجانب الموضوعي للتوجيه وهو الجانب السلوكي التعاملي دون المسائل التي قد لا تناسب الفئة العمرية فضلاً عن اللغة والأسلوب ذاته كل ذلك إدراكٌ من النبي ﷺ لأهمية وصول المعلومة والأمر الصحيح للطفل.

٣ ـ التحذير الشرعي على أن يحول الأسلوب بين الفكرة وقلوب وعقول المخاطبين، ومن ذلك جاء التحذير الرباني للنبي ﷺ في حال كان تعامله بخلاف ما هو عليه من الرحمة والتعامل الحسن، قال تعالى جل وعلا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]. قال ابن كثير رحمه الله: «**أي لو كنت سيء الكلام قاس القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك والآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم**»(٢).

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية بالمقارنة بين الدعوة إلى الحق بالحسنى وغير ذلك، ثم جاء امتداح الصابرون على هذا الطريق قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٣ ـ ٣٥].

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حقيقة مهمة في ذلك وكون هذا يؤثر على تقبل الفكرة الشرعية وأنه قد يكون الرفض بسبب عارض عنها وهو

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣٩٧).

الأسلوب وطريقة الحجة القائمة، يقول رحمه الله عن أهل الكتاب: «**وكثيراً ما يُعارضهم من أهل الإسلام من لا يحسن التمييز بين الحق والباطل، ولا يُقيم الحجة التي تدحض باطلهم، ولا يُبين حجة الله التي أقامها برسله، فيحصل بذلك فتنة**»[1].

٤ ـ تقرير القرآن الكريم والسنة النبوية بأن الأسلوب والطريقة هما سبب ميل بعض المتأثرين إلى الأفكار المخالفة للشريعة الإسلامية. ومن ذلك إرداف آيات الأمر بالحسنى بأن الشيطان له شأن في هذا الأمر والحال، وكون المعركة معركة وسائل وأساليب تجاه المخاطبين، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

ففي الآية الكريمة «**يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم**»[2].

وقد بين القرآن الكريم مدى تأثر النفس البشرية بالقول البليغ، ولذلك وصف الله المنافقين الحائدين عن الطريق الصحيح بأن القول البليغ يؤثر بهم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النِّساء: ٦٣].

وأحسن الإمام ابن القيم رحمه الله أيما إحسان يوم أن رصد هذا التأثير ومدى قبول العقل للفكرة إذا تقولبت بقالب جميل يأسر الألباب:

قال رحمه الله عن صاحب الشبهات الباطلة: أن يأتي «**مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسوا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه وتبادر إلى اعتقاده وتقليده ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها فيحسنها**

---

(١) الفتوى الكبرى (١/ ٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥).

في عينه ويحبها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته»[1] قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥ ـ الاستعمالات القرآنية للأساليب العربية المتعددة، فالقارئ للآيات الكريمة يجد فيما لا يخفى على ذي نظر أن القرآن الكريم تنوع باستخدام الأساليب المتعددة، والتي تتناول الأفهام والمدارك المختلفة.

ومن ذلك في أسلوب النداء قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، وفي أسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] في أسلوب التفضيل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وفي أسلوب المدح والثناء قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وفي أسلوب القسم قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وفي قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، ونظائر ذلك في القرآن الكريم متعددة وكثيرة في استغراق استعمال الأدوات بالأسلوب والطريقة المتنوعة.

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٤٣٦).

المحركات الخارجية لنشوء الأفكار

أولاً: المحركات الكونية.

- سنة الابتلاء
- سنة التغيير والمداولة
- سنة التدافع

ثانياً: المحركات الاجتماعية.

- الظرف الاجتماعي.
- سلطة الأقران.
- العصبية للقبيلة والأشياخ.

ثالثاً: المحركات الاقتصادية.

- الفقر.
- الاسترزاق المعيشي.
- الطمع والجشع المالي.

رابعاً: المحركات السياسية.

- الغلبة الحضارية.
- الظلم والجور.
- التغيرات السياسية.

المحرك الأول

سنة الابتلاء

«يمثل إحساسي بمعضلة الشر والألم أحد العوامل المبكرة وراء اندفاعي تجاه الإلحاد»

الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو

المقصود من محرك سنة الابتلاء

المراد والمقصود: **هو أن تكون سنة الابتلاء هي التي تدفع صاحب الفكرة أن يصرح أو يقتنع بفكرته، فيكون الابتلاء هو الدافع لقبول الفكرة أو رفضها وليس ذات الفكرة وصوابيتها من عدمها.**

فسنة الابتلاء والامتحان الكونية دفعت بالبعض لخلق أفكار لم توجد قبل وقوع هذه السنة، فكم من فضاءٍ فكري لمجتمع راغد صفواً فما إن نزل بأصحابه الابتلاء حتى أصبح هذا الفضاء عتماً من حوادث الأفكار وقوارع المعتقدات.

تأثير محرك سنة الابتلاء في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

لأوضح موقع تأثير محرك سنة الابتلاء والامتحان في الأفكار والمعتقدات، سأذكر أبرز الجوانب التي من الممكن أن تحقق ذلك:

١ ـ أن من طبيعة الإنسان البشرية أنها تتأثر حال وقوعها بالمحن والمصاعب والابتلاءات، ـ فعلى سبيل المثال ـ في المجاعات تنحل الأجساد فكيف بالعقول والأفهام.

ولذلك من يقرأ تاريخ الأمم السالفة السابقة ينكشف له أن الابتلاءات بأوبئتها وحروبها تترك آثاراً من الصعب أن تنكر أسبابها ومآلاتها أو أن تنمحي بسهولة بعدها.

فمن طبيعة النفس الإنسانية أنها تدرك تبعات ومدى تأثير المحن بالشكل العام عليها، حتى إن النبي ﷺ أثار تعجبه خبر ورقة بن نوفل يوم أن أخبره بالمصيبة الواقعة في إخراجه ﷺ من قومه، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال متعجباً لورقة: «**أو مخرجي هم، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي..**»[1] الحديث.

وعلى المستوى الشخصي أيضاً ما حصل من **محاولة استمالة الصحابي الجليل كعب بن مالك** رضي الله عنه بعد واقعة الهجران الاجتماعي له على إثر تخلفه عن غزوة تبوك، حيث علم ملك غسان مدى تأثير المصيبة والمحنة على صاحبها، ولولا وقوع هذا البلاء ما جاءت فكرة الاستمالة لديه، يقول كعب بن مالك:

«**بينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه، أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها..**»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «**وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاءٌ من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهارٌ للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هو ممن تحمله الرغبة**

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨).

في الجاه والملك مع هجران الرسول ﷺ والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به وجبره لكسره، وهذا البلاء يُظهر لُب الرجل وسره وما ينطوي عليه، فهو كالكير الذي يُخرج الخبيث من الطيب»[1].

٢ ـ **الفاحص للأفكار في الفضاء الفكري يجد أن بعض الآراء لم ينتشر أو يُذاع صيتها إلا بعد محنٍ وكوارث وابتلاءات**، سواءً كان ذلك على الصعيد الشخصي أو المجتمعي العام والكلي.

ومن أبرز المشاهد على أن يكون البلاء يدفع بالفكرة ويُظهرها، هو مشهد الهجرة عن الأرض إذا كثر وزاد فيها البلاء والفتنة، ومن ذلك خروجه ﷺ إلى الطائف بعد أن نال من قومه من البلاء والمحنة، ومنه كذلك بعد أن نال المسلمون من الابتلاء في العهد المكي من قريش جاء الإذن الشرعي في الهجرة إلى الحبشة، فإنه «**لما اشتد البلاء أذن الله سبحانه لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وكان أول من هاجر إليها عثمان بن عفان..»**[2].

٣ ـ **قوة البلاء وتأثيره على الفكر والمعرفة في تعذر حصولهما**، ففي أحايين كثيرة يكون نوع وضرب البلاء والمحنة مما يتعذر معه أن يصرح الشخص بأفكارٍ محددة كوقائع المحنة في القول بخلق القرآن، والتي حالت بين علماء أهل السنة وأقوالهم وآرائهم الحقيقية، حيث كانت المحنة والابتلاءات العامة هي التي أبدلت الأفكار بالقول المخالف تماماً، تلك المحنة التي دفعت إلى الإدلاء بمعارفَ وآراءٍ لم يكن لها حضور من قبل، فضلاً عن آثار هذه المحنة فيما يليها من أجيال وعهود[3].

وفي بعض المحن والبلايا يتعذر معها الوقوع للأفكار والآراء وتصديرها

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٣/ ٥٠٩).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢١).

(٣) راجع: المحنة وأثرها في منهج الإمام أحمد النقدي، تأليف: د. عبد الله بن فوزان بن صالح الفوزان، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ.

أو التأثير عليها وعلى إخراجها، كمحن الحروب والمجاعات وما يتبعها من انقطاع العلم والمعرفة والتأثير على الجانب الحياتي المعيشي فضلاً عن الجانب الثقافي والمعرفي الفكري.

وقد وقفت على مقدمة محققٍ يحكي مدى تأثير أجواء المحن على الحركة العلمية والفكرية وهو يقدم لـ (**كتاب المحن**) بقوله:

«كانت الطبعة الأولى قد صدرت سنة ١٩٨٣م إبان الحرب اللبنانية، وكان الكتاب قد صف على عجلٍ تحت فرقعة القنابل وأزيز الرصاص، وكان أن قُصفت المطبعة فضاعت المقدمة وصفحة من الكتاب، وتجاوزوا عن ضبط كثير من الكلمات والنصوص، وصدر الكتاب وتلقاه الناس بشغف، لأن كتاب المحن لقي صدى في نفوس كثير من الناس الذين نزلت بهم المحن والبلايا...»[١].

من شواهد محرك سنة الابتلاء وتأثيرها على الأفكار والمعتقدات:

من أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هي الموجة الإلحادية التي نتجت عن ضعف التوكل على الله، والنجاح في تخطي اختبار البلاء الرباني تجاه العبد، فأجواء المحن والبلايا هي التي يظهر في فضائها هذه الأفكار والمعتقدات.

فالفاحص لبعض ما يصيب أصحاب البلاء، **يجد بحثهم عن أساس وأصل مشكلة الشر، وسؤال الشر القائل: من هو الذي خلق الشر في الكون؟ ومن الذي سوغه وقرره؟ وكيف يكون تقرير الشر دليل رضا وحب وشفقة؟ وكيف يكون الشر غير مقتضي للكره؟ وما هو السبب في وقوع هذا الشر على فئة دون أخرى، وأشخاص دون غيرهم؟ وهذا يقتضي الظلم في تقرير الشر بلا تسبيب!** فبهذه التساؤلات والتي تعتبر نواةً للأطروحات الإلحادية أصلها بحث

---

(١) كتاب المحن، تأليف: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور يحيى وهيب الجبوري ـ الأستاذ بجامعة إربد الأهلية، الناشر: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ص٥ وما بعدها.

وتنقيب ناشئ بسبب هاجس المحنة التي يعايشها أصحابها المفتقرون للصبر والتسليم والضعف في الالتزام بالرؤية والتصور الشرعي تجاه الابتلاء والامتحان[1].

ومن أبرز الملاحدة في العالم الغربي ـ والذي عدل عن الإلحاد فيما بعد ـ هو **الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو**[2]، والذي يحكي عن شعوره الذي قاده إلى الإلحاد، وعن الأسباب التي دفعته إلى هذه القناعة المشككة، حيث يقول:

«يمثل إحساسي بمعضلة الشر والألم أحد العوامل المبكرة وراء اندفاعي تجاه الإلحاد، كنت في طفولتي وصباي خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، كثير السفر مع والدي خلال الإجازات الدراسية إلى فرنسا وألمانيا، وما زلت أذكر المسيرات الهادرة التي رأيتها في بافاريا، والتي تضم آلاف الفتيان من فرق الكشافة بملابسهم المميزة، والتي تتوعد المعاديين للنازية بالهلاك.

ارتسمت هذه المشاهد في عقلي في فترة صباي، وظلت بكل ما تحمل من كُره، تمثل تناقضاً مع ما تربيت عليه في عقيدتي المسيحية من أن الله محبة؛ إذ كيف يسمح من يحبنا بهذه الشرور؟»[3].

ولذلك تنشط الشبهات الإلحادية في هذه الأجواء، ويقوم الخطاب الإلحادي في توظيف الكوارث والوقائع والمصائب، وبثّ تساؤلاته المتعلقة

---

(١) للاستزادة: مشكلة الشر ووجود الله، الدكتور: سامي عامري، الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث ـ السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ.

(٢) هو أستاذ الفلسفة البريطاني: أنتوني فلو sir antony fiew يعد من أبرز الملاحدة في حينها قبل أن يترك الإلحاد، ولد في لندن عام ١٩٢٣م، في ديسمبر عام ٢٠٠٤م أعلن أنتوني فلو بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاماً أنه صار يؤمن بأن (هناك إله)، ونشر كتابه (هناك إله: كيف عدل أشرس ملحد عن الإلحاد) في عام ٢٠٠٧م، وتوفي عام ٢٠١٠م. انظر: رحلة عقل للدكتور عمرو شريف ص١٦.

(٣) رحلة عقل (هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان)، تأليف: د. عمرو شريف. تقديم: الدكتور: أحمد عكاشة، الناشر: مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة. الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠١م ص٤٨.

بملف الشر، «**ففي الفكر الغربي مثلاً استثمر فلاسفتهم هذه الحوادث في ضرب الحجاج المعتمد في الاكليروس**[1]**، ومن بينهم المفكر الفرنسي فولتير**[2] **الذي استغل زلزال لشبونه في ضرب الأدلة التي اعتمدها ليبنتز**[3] **في بيان كمال وتمام العالم الممكن**»[4] **حيث إن الزلزال «ضرب مدينة مسيحية كاثوليكية عميقة الإيمان، في يوم عيد جميع القديسين، ولم يلحق أضراراً كبيرة بالحي الفاجر، في المدينة بينما دمر معظم كنائسها**»[5].

ومن له واقع معرفة في أمر وحال الشبهات الناشئة بعد وقوع الكوارث والحوادث والحروب يدرك حضور هذا المحرك في تكوين ونشوء هذه الأفكار والشبهات، ـ فعلى سبيل المثال المعاصر ـ وقوع نماذج وحالات أو رواج للأطروحات الإلحادية في حقبة زمنية تلت سنوات الثورة السورية، فإن وطأة الظلم والقهر المستمر لسنوات وفقد الأقارب والأسر، واستبطاء النصر وتبدد الآمال التي كان يُبشر أصحابها بقربها، كل هذه التداعيات وتفاصيلها الكثيرة الضاغطة أنشأت سؤال الشر واستفهامات الألم، والتي قادت جملة من المتأثرين إلى الإلحاد المعاصر.

---

(١) هو النظام الكهنوتي الخاص بالكنائس المسيحية.

(٢) هو الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ماري أرويه، ولد في باريس عام ١٦٩٤م وتوفي عام ١٧٧٨م في باريس، كاتب وفيلسوف فرنسي عرف بنقده الساخر الفلسفي، كتب عدة مقالات في العلوم والفلسفة والاجتماع، رفضت الكنيسة إقامة الصلاة عليه بعد موته، واعتبرته الجمعية الوطنية الفرنسية أحد الذين بشروا بالثورة الفرنسية، انظر: الرسائل الفلسفية لفولتير، ترجمة: عادل زعيتر، الناشر: مؤسسة هنداوي سي آي سي ـ بريطانيا. الطبعة الأولى: ٢٠١٨. ص٧.

(٣) هو الفيلسوف الألماني جوتفريد ليفلهام ليبنتز (١٦٤٦م ـ ١٧١٦م)، فيلسوف وعالم طبيعة ورياضيات، انظر: المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي، لجوتفريد فيلهلم ليبنتز، نقلها للعربية: د. عبد الغفار مكاوي، الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٧٨م، ص١٦.

(٤) الإلحاد غرباً (فلسفة وجود أم أمل طوباوي) للباحث: شريف الدين بن دوبة، مجلة الاستغراب (الإلحاد في تهافته)، العدد السابع ـ السنة الثالثة ـ ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م، تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ـ بيروت ص١٥٢.

(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها.

الاعتبار الشرعي لمحرك سنة الابتلاء

إن موقع سنة الابتلاء في الشريعة الإسلامية يأخذ مكاناً معتبراً حيث إن الأدلة الشرعية تقرر واقعيته من جهة، ومدى قوة تأثيره على الأفكار والمعتقدات من جهة أخرى، ولعلي فيما يلي أبين أبرز الجوانب الشرعية في كون الابتلاء واعتباره محركاً من محركات الأفكار:

١ ـ التقرير الشرعي للغاية من وقوع سنة الابتلاء الكونية، فقد أكدت النصوص الشرعية في غير موضع أن الغاية من الابتلاء والامتحان هو التمحيص، وتخليق الأفكار والمعتقدات الصحيحة من عدمها، فمنهم من يطاله البلاء فينتج عن ذلك فكرة مخالفة للشريعة، نتيجة إخفاقه في امتحان البلاء والصبر عليه، فتتمحور هذه الأفكار ولولا هذا الابتلاء ما انبثقت.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] أي «**لنخبركم يا أمة محمد، واللام لجواب القسم، تقديره والله لنبلونكم، والابتلاء من الله لإظهار المطيع من المعاصي، لا ليعلم شيئاً لم يكن عالماً به**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «**إن الله تعالى إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها؛ لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده، ممن يريد الدنيا وزينتها**»(٢).

٢ ـ النماذج الشرعية في جعل سنة الابتلاء والامتحان مولداً لأفكارٍ بعينها، ومن أبرز النماذج الشرعية والتي تؤكد المقصد الرباني في إنابة العبد

(١) تفسير البغوي (١/ ١٦٩).

(٢) أصول جامعة نافعة في البلاء والابتلاء، تأليف: ابن القيم الجوزية، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة طبرية ـ السعودية. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ص١٣.

وصدق استسلامه لأمر ربه، ما حدث **لنبي الله إبراهيم** عليه السلام فبعد انتظاره للولد سنين عديدة ثم بعد أن رزقه الله وكبر هذا الابن جاءت الرؤيا لنبي الله أن يذبحه وشرع في ذلك الشأن، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصَّافات: ١٠١ ـ ١٠٦].

وكذلك النموذج الشرعي الآخر المتمثل في ابتلاء نبي الله يوسف بامرأة العزيز، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يُوسُف: ٢٣ ـ ٢٩].

وهذا النوع من الابتلاء يختلف عن الابتلاء المجرد من العلة الغائية العينية، فتكون علته عامة للصبر وليس لذات الأمر المناط التسليم به والصبر عليه.

وقد بيّن الإمام الموفق ابن القيم هذه المرتبة في الابتلاء بقوله:

«**ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق ﷺ بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الجب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه، وابتلائه بمراودة المرأة له وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها وهي الداعية له إلى ذلك فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء...، فهذا الابتلاء الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين.**

ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول، بل هو من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده، إذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة ومفارقة حكم الطبع، وهذا بخلاف البلوى التي أصابت ذا النون»[1].

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «**ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه**»[2].

٣ ـ جعلُ الشريعة الإسلامية من الابتلاء أداةً لكشف معادن الأفكار ومدى تجذر المعتقدات في الأفئدة، فخلق الصبر على البلاء ـ على سبيل المثال ـ ومدى إيمان المرء لا ينكشف مداه إلا بهذا البلاء المنصب عليه.

ففي سورة العنكبوت بين الله تبارك وتعالى باستفهام استنكاري للعباد، ثم بين الغاية من وقوع البلاء على الخلق، قال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ٢ ـ ٣].

٤ ـ الاستيعاب الشرعي لنوع الأفكار الناجمة عن أجواء الابتلاء والمحن، وذلك من حيث تقرير بعض الأحكام الشرعية التي تكبح جماح العقل البشري والإنساني أن يجنح نحو التفكير الخاطئ نتيجة وقوع الابتلاء.

ومن حيث آخر وهو صياغة التعامل الصحيح لهذه الأجواء فينال المرء حظَّه من هذه المحن والبلايا، فذلك كله وعي شرعي بمدى تأثير البلاء على المرء وعلى ترتيب قناعاته وتخليقه لأفكاره.

لذا جاءت أحاديث السلوان وأحكام التخفيف عن المصابين وأهل البلاء، من حيث الأجر والثواب الأخروي، ومن حيث التعجيل الدنيوي في ذلك، مراعاةً لتداعيات نزول البلاء وأثره على الأفكار والآراء والمعتقدات، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا**

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٧.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٩).

للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

ومنه قوله ﷺ عن أهل العافية مواساةً لأهل البلاء: «**ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قُرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء**»[2]، ومنه قوله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»[3] ونظير ذلك كثيرٌ من السلوان الشرعي لحال المصاب بالبلوى والابتلاءات.

وكذلك في التعامل النبوي مع الأسئلة والطلبات الناجمة عن الابتلاءات والمحن كان ﷺ يزرع السلوان والعزاء في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم بذكر نماذج صبر من كان قبلهم ومآل وعاقبة أمر الإسلام.

ففي الحديث: أنه «لما اشتد البلاء علينا من المشركين أتينا النبي ﷺ فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فقال: «**لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ولكنكم تستعجلون**»[4].

وكذلك من وجوه الاعتبار الشرعي لتأثير البلاء على الأحكام والأفكار، ما نص عليه الفقهاء من علة (ما عمت به البلوى) واعتبار ذلك في الحكم الشرعي.

٥ ـ التقرير الشرعي على قوة البلاء أمام إرادة الإنسان المجردة عن الإيمان فضلاً عن أفكاره وآرائه، فكم جاءت التحذيرات الشرعية من أن يتمنى المرء السوء والشر ليُثبت صحة معتقده وآرائه ثم يكون عكس ذلك، كما

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٣٩) واللفظ له، وأحمد (٧٨٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨١٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٥٢).

قال تعالى عن بعض من غاب عن غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٤٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره..، ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يُوجب على نفسه مالا يُوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك أو يطلب ولاية أو يقدم على بلد فيه طاعون**»[١].

---

(١) التحفة العراقية، تأليف: أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية، الناشر: المطبعة السلفية ـ القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٩م، ص٥٣.

المحرك الثاني

سنة التغيير والمداولة

«لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات»
الإمام الغزالي

المقصود من محرك سنة التغيير والمداولة

هو أن أساس الفكرة وظهورها أو القناعة بها نتيجة تغير الأحوال في المجتمعات، وكونها ثمرة طبيعية لسنة المداولة بين الشعوب والأمم، ويكون ذلك من حيث الاستيعاب للسنة ذاتها أن تكون محركاً، ومن حيث ذات الأحوال المتغيرة.

فالمجتمعات والأمم لا تبقى على حال واحدة بل من قرأ التاريخ علم أنها دائمة التغير من حال إلى حال، وأن من طبيعتها المداولة بين الأجيال والنحل والدول، فكم كان التغير من الرخاء إلى الشقاء سبباً لتوليد أفكارٍ لم يكن المجتمع يخطر بأجواء فكرها أن تظهر، وكم كانت المداولة بين الشعوب في الازدهار والتقدم إلى التأخر والانحطاط محركاً إلى الرجوع عن الأفكار والعدول عنها، وقس على ذلك في التغير والمداولة، من النصر والرفعة إلى الهزيمة والهوان، ومن العز والقوة إلى الذل والضعف، ومن الفقر إلى الغنى، ومن المرض إلى الصحة، ومن الطمأنينة والأمن إلى القلق والرعب، وصروف الدهر ونوائبه كثيرة في أحوال التقلب والتغيير والله المستعان.

وقد برع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تحرير اصطلاح التَّغَيُّر في

السياق العقدي، وذكر استعمالات اللغة والاصطلاح، في موضع إيراده لفساد حجج النفاة لحلول الحوادث يقول: «**فالتغير في اللغة المعروفة لا يُراد به مجرد كون المحل قامت به الحوادث فإن الناس لا يقولون للشمس والقمر والكواكب إذا تحركت إنها قد تغيرت ولا يقولون للإنسان إذا تكلم ومشى إنه تغير...، إنما يقولون تغير لمن استحال من صفة إلى صفة كالشمس ما زال نورها ظاهراً لا يُقال إنها تغيرت فإذا اصفرت قيل قد تغيرت.**

وكذلك الإنسان إذا مرض أو تغير جسمه بجوع أو تعب قيل قد تغير وكذلك إذا تغير خلقه ودينه مثل أن يكون فاجراً فيتوب ويصير برا أو يكون برا فينقلب فاجراً فإنه يُقال قد تغير..، وكذلك يُقال: فلان قد تغير على فلان إذا صار يبغضه بعد المحبة فأما إذا كان ثابتاً على مودته لم يسم هشته إليه وخطابه له تغيرا، وإذا جرى على عادته في أقواله فلا يقال إنه قد تغير»[1].

وفي موضع آخر بذات السياق العلمي يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**المراد بالتغير غير مجرد قيام الحوادث، مثل أن يعني بالتغير الاستحالة في الصفات، كما يقال: تغير المريض، وتغيرت البلاد، وتغير الناس، ونحو ذلك، فلا دليل على أنه يلزم من الحركة ونحوها من الحوادث مثل هذا التغير**»[2]، وله عدة شواهد ومواضع يبين الاستعمال بمعني التبديل والتحول.

والمتأمل القارئ للتاريخ الإنساني والبشري والإسلامي يدرك **مدى تأثير تغير الأجواء العامة على الأفكار والمعتقدات، وبقدر كون هذا التغيير ومداولة الحال أكبر والبون والفرق فيه أعمق بقدر ما كان التأثير على الأفكار والمعتقدات فيه أوثق وأبلغ.**

---

(١) جامع الرسائل، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي (٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، (٢/ ٤٤ وما بعدها).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٨٦).

تأثير محرك سنة التغيير والمداولة في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ويمكن أن أبين مدى تأثير هذا الاطراد والصلة بين أحوال التغيير والتحول على الأفكار والمعتقدات فيما يلي:

١ ـ أنه بطبيعة الحال أنه بتغير الحياة تتغير تفاصيل ما فيها، ومنها الأفكار، فحين تتغير الأحوال من الشدة والفقر إلى الرخاء والغنى كان ولابد أن يؤثر ذلك على المآكل والمشارب والمراكب والمنازل وغيرها من تفاصيل الحياة.

ومن ذلك ما كان للأفكار من الشأن والحال، فالأفكار في حال الرخاء والرغد تكون مغايرة للأفكار التي تنشأ في حال الفقر والجوع والعوز، فضلاً عن أن يكون ما نحن بصدده في أن يكون الحال بأحدهما ثم يكون التغير والتحول إلى الآخر منهما.

يقول العلامة ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخلقية وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة، سنة الله التي خلت في عباده**»[1].

٢ ـ أن الوقائع التاريخية جاءت لتؤكد مدى قوة تأثير أحوال التغيير والمداولة على الأفكار والمعتقدات، فلا يمكن ومن الصعب على القارئ للتاريخ أن يهمش ما لأثر انتقال الحال على المستوى العام المجتمعي من المجاعة إلى الرغد أو على المستوى الشخصي من الفقر إلى الغنى على الأفكار والآراء والمعتقدات.

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تأليف: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، (١/ ٣٧).

ومن أبرز الأمثلة على أثر ذلك ما يُنقل عن حال من هاجر سعياً للتجارة إلى العواصم قادماً من الأرياف أو المدن فتتغير أحواله لتتغير أفكاره من بعد ذلك.

ومن ذلك في الوقائع المعاصرة ممن ينتقل إلى بيئة دولة أوربية ـ على سبيل المثال ـ من أجواء عربية فيكون لذلك أثره على الأفكار والمفاهيم والتصورات العامة أو الخاصة بسبب ذلك الانتقال وتغير الحال.

٣ ـ أن المداولة الفكرية والتغيير المفاهيمي للمعاني العقلية سنة كونية، حيث إن الأفكار بجنسها قابلة وخاضعة لحتمية سنة التغيير والمداولة، فاعتلاء الأفكار في زمن من الأزمان مع وجود مسببات ذلك وانتشارها في ظل خفوت الأفكار المقابلة أو المناوئة لها واقعٌ ومستحضر.

فكما أن المعارك العسكرية تنال حظها من المداولة والتحول والتبدل، فكذلك المعارك الفكرية تأخذ نصيبها من هذه السنة الجارية على الخلق والعباد.

ولذلك أدرك من خاض غمار المعارك الفكرية أن تغيير الأفكار هي ثمرة لتلك المعارك، فنتيجة النصر والغلبة هي المطلب للمكافح، ولو لم يكن استحضار ذلك التغيير والتداول وانطباقه على الأفكار والمفاهيم لما كان ذلك الجهد الحثيث والكفاح المستمر في تلك الميادين؛ إذ إن العلة الغائية منه التغيير والظفر بالدور في المداولة وإلا فلا قيمة للجهد والبذل الفكري حال غياب هذا الاستحضار.

وقد أصاب الإمام الغزالي رحمه الله هذه الدقيقة في عالم الأخلاق ـ فضلاً عن عالم الأفكار ـ وغاية الوعظ والسعي فيه حيث قال: «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات»[1] بل إن أبا حامد الغزالي رحمه الله استنكر على من يُنكر عدمية التغيير وانطباقها على الحيوان فضلاً على الآدمي فقال: «**وكيف يُنكر هذا في حق الآدمي وتَغييرُ خُلق البهيمة ممكن**

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٥).

إذ يُنقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر مؤكداً على: «**أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق كالأملاك والكواكب وملكوت السماوات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار، وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات. .**»[2] وبذلك يكون استحضار واقعية التغيير والمداولة هو المحرك لعملية تصحيح الأخلاق فضلاً عن الأفكار والآراء.

من شواهد محرك سنة التغيير والمداولة وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز شواهد حضور محرك التغيير والمداولة في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، ما تغير الحال عليه في الأمة الإسلامية إلى قحط ومجاعة في سنة ثماني عشرة للهجرة، والتي سميت بـ (عام الرمادة) وما أنتجته من أحكام وآراء وأفكار كانت تكاد تنعدم قبل ذلك، بل قد يكون سابق هذه الحال خلافها تماماً.

وسميت بالرماة: لأن الأرض كانت قد اغبرت من شدة الجدب، واسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد، وكان الغبار يرتفع بين السماء والأرض كالرماد، واستمر الحال من قلة الأمطار لسنوات عديدة[3].

وقد تجلى موقف المعالجة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٦).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٨١).

(٣) انظر: لسان العرب (٣/ ١٨٥)، والاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٣٨٠).

ولذلك جاء على إثر هذه الحالة والمجاعة الكاسحة جملة من الأحكام والآراء والأفكار يمكن أن ألخص أهمها وأبرزها فيما يلي:

• **إسقاط حد السرقة في تلك الحالة**، حيث قال رحمه الله: «**لا يُقطع في عذق ولا في عام سنة**»[(١)]، كما ورد عنه إسقاط الحد لوجود شبهة الاضطرار، وذلك لما سرق عبيد لعبد الرحمن بن حاطب[(٢)] بعيراً فانتحروه فوجد عندهم جلده ورأسه، فرفع أمرهم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بقطعهم فمكثوا ساعة ثم قال عمر: «علي بهم، ثم قال لعبد الرحمن: والله إني لأراك تستعملهم، ثم تجيعهم، وتسيء إليهم، حتى لو وجدوا ما حرم الله عليهم لحل لهم، ثم قال لصاحب البعير: كم كنت تعطى لبعيرك؟ قال: أربع مئة درهم، قال لعبد الرحمن: قم فاغرم لهم ثمان مئة درهم»[(٣)].

ولما جاء عبد الله بن عمرو بن الحضرمي لعمر رضي الله عنه بغلام له ليقطع يده، **قال: وما له؟ قال: سرق مرآة لامرأتي خير من ستين درهماً، قال عمر: «غلامكم سرق متاعكم»**[(٤)].

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: **(لئن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات)**[(٥)].

قال ابن القيم رحمه الله في ذلك: «**وهذا محض القياس ومقتضي قواعد**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٥٢١) رقم: ٢٨٥٨٦. تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ.

(٢) هو أبو يحيى عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، ذكره جماعة في الصحابة وهو ما صححه ابن حجر، وذكره البخاري ومسلم وابن سعد والجمهور في التابعين، وذكره بن سعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لأبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ، (٤/ ٢٩٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، نشر المجلس العلمي ـ الهند، طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ، (٥/ ٥١٩) رقم: ٢٨٥٦٨، قال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات. تخريج مشكل الآثار (١٣/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٥١٩) رقم: ٢٨٥٦٨.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٥١١) رقم: ٢٨٤٩٣.

الشرع، فإن السنة إذا كانت سنة مجاعة وشدة غلب على الناس الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه»[١].

• **تأخيره لجباية الصدقة في عام الرماة،** فلم يبعث السعاة إلى من يجب عليه إخراجها، فلما كان قابل ورفع الله ذلك الجدب واستقر الحال أمرهم أن يخرجوا فأخذوا عقالين، فأمرهم أن يقسموا عقالاً ويقدموا عليه بعقال[٢]، وكان عمر يبعث السعاة فيأمرهم أن يأتوا الناس حيث كانوا[٣]، حتى لا يكابدهم العناء والمشاق، ولم يكتف رضي الله عنه فقط بتأخير جمع الزكاة في فترة المجاعة، بل إن هذه الزكاة المتأخرة ردت مرة أخرى إلى من جمعت منهم وقسمت بين فقرائهم تعويضاً لهم عما فقدوا في فترة القحط والجوع[٤].

• **ما سنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من طريق المساندات من طعام وإمدادات حتى بعد عام الرمادة،** وذلك أنه أرسل في الاستيراد الاقتصادي من مصر إلى أصحاب الاحتياج واستمر ذلك حتى العصور اللاحقة وكانت سنة جاءت بعد تغير الحال في المجاعة حتى أصبح مسارا استراتيجيا يغذي الاستدامة الاقتصادية والذي استقر عليه حال الدول والمماليك فيما بعد.

فقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وكان عامله على مصر ما يلي: «**(بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلام عليك، أما بعد: أفتراني هالكاً ومن قِبلَي وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه ثلاثاً...)، فكتب إليه عمرو بن العاص: (بسم الله الرحمن الرحيم: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: أتاك الغوث، فَلبِّثْ لبثْ،**

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١١).

(٢) العقال: صدقة عام، يقال: أخذ منهم عقال هذا العام إذا أخذت منهم صدقته. لسان العرب (١١/ ٤٦٤).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى، تأليف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري البغدادي المعروف بابن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م. (٣/ ٣٢٣).

(٤) المرجع نفسه نفس الصفحة.

لأبعثن إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي)»[1]، ويقال إن عمرو بن العاص بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك[2]، وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء[3].

• **الأفكار الإدارية الاحترازية من بعد مجاعة عام الرمادة،** فقد أفرزت الحالة في تلك الفترة جملة من الإجراءات والأفكار الإدارية والتي استمرت بعد ذلك حتى عهد الخليفة العباسي،

ومن أبرزها وضع عمر بن الخطاب ديوان العطاء وديوان الجند والذي يعتبر أعظم التنظيمات المالية للدولة الإسلامية، فقد كان وضع الديوان في محرم سنة ٢٠هـ الأمر الذي يدعونا للاعتقاد بأن نشأته ارتبطت بتجربة عام الرمادة والمجاعة التي عاشتها الدولة الإسلامية في سنة قبلها[4].

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٣١٠).

(٢) الودك: هو الدسم، وقيل دسن اللحم ودهنه الذي يستخرج منه، لسان العرب (١٠/ ٥٠٩).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٣١١ ـ ٣١٥).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٧/ ١١٥).

الاعتبار الشرعي لمحرك التغيير والمداولة

لقد أكدت الشريعة الإسلامية في غير موضع ومناسبة على حتمية سنة التغيير ومداولة الحال بين الناس والأمم والمجتمعات، وما ينتج عن ذلك من تأثير على الأفكار والتصورات والمعتقدات، وذلك من حيثيات واعتبارات متنوعة ومتعددة.

ويمكن أن أذكر أبرز الجوانب الشرعية والتي راعت علاقة التأثير على الأفكار والمعتقدات في أجواء تغير الحال ومداولة الشأن فيما يلي:

١ ـ ربط صلة التأثير بين تغير الحال العام بالتغيير الخاص والشخصي، فقد بينت الشريعة الإسلامية مبدأ الربط الوثيق بين النفس الإنسانية والحال العام المجتمعي، وهذا الربط والوثوق بينهما يؤكد ارتباط تأثيرهما الأساسي والعكسي.

قال تعالى في محكم التنزيل عن هذه الصلة القوية الحتمية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرّعد: ١١].

قال الرازي: «**كلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يُغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد، قال القاضي: والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شيء مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يبتدئ به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم**»[1].

٢ ـ النموذج الشرعي للأفكار الإسلامية بين أجواء الجاهلية وأجواء عزة وقوة الإسلام، فقد كان الصحابة يعيشون في الأجواء الجاهلية على نمط معين

---

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٢٠).

في التفكير والسلوك والطريقة في التعامل والحياة، ثم بعد الهجرة وانتشار الإسلام تغيرت هذه الأجواء الجاهلية السابقة وتغيرت معها الأفكار والآراء ـ بعيداً عن إسلام الصحابي نفسه ـ فضلاً عن تغير الأجواء في الفضاء العام من الذل والاستضعاف إلى العزة والقوة والانتصار ومن عبودية الإنسان لهواه إلى حريته وعبوديته لربه وما حملته هذه الأجواء المتغيرة من معانٍ ومفاهيمَ لم تكن حاضرة في نفوس الصحابة.

لقد كانت الفترة الجاهلية من أمقت الفترات في التاريخ البشري ولذلك استحقت مقت الله ﷻ كما أخبر بذلك ﷺ «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[(١)].

ولذلك ذكّر الله ﷻ صحابة رسول ﷺ بعد عزتهم بهذه الأجواء السابقة لحالهم في زمن العزة ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفَال: ٢٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وهذا كان حال المؤمنين حال مُقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آوو ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مُهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ**»[(٢)].

٣ ـ الوعد الشرعي لتغير الأحوال وتحقيق المداولة للتأثير على الأفكار، فالمتأمل للاعتبار الشرعي في سنة المداولة والتغيير وتأثيرها في الأفكار والمعتقدات يجدها في نصوص شرعية متعددة، وتبرز في سياقات وعود النبي ﷺ لمن يسأل عن الإسلام حال ضعفه فيكون الوعد بالسرِد الوضع في حال التمكين والغلبة والنصر.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥).

ومن أبرز هذه الوقائع النبوية ما وعده النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي بتغير الحال والشأن ومداولته لأهل الإسلام بُغية تغيير قناعاته وأفكاره إلى الإسلام، فقد روي عن النبي ﷺ أنه:

«كان عند النبي ﷺ إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، وكان عدي قد وفد على النبي ليدخل الإسلام، وخشي النبي ﷺ أن يفُتَّ في عضده ويُثبطه، عندما يرى من ضعف أهله وفقرهم وعدم انتشار الأمن في أرضهم، حينذاك فألقى بالبشارات..، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قال: لم أراها وقد أُنبئت عنها، قال: إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، قال عدي: قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَّارُ طَيِّئٍ الذين قد سَعروا البلاد، وأكمل النبي ﷺ حديثه إليه، فقال: ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى، قال: كسرى بن هرمز؟! قال: كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفهِ من ذهب أو فضةٍ يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه»[١].

٤ ـ السلوان الشرعي بسنة التغيير والمداولة حال عتمة الشأن والأمر، فقد جاءت النصوص الشرعية مقررةً حتمية تغير الحال وأنه ليس بالمحال، والتأكيد في شأن المداولة والدور العائد إلى العزة والانتصار.

فمن يقرأ السياقات النبوية في أحاديث متعددة يجد أنها جاءت سلواناً وأنساً للمرحلة القادمة للإسلام، ومنها قوله ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل؛ عزاً يُعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»**[٢] يقول الراوي للحديث عن واقعية تقلب الحال وتغير الأحوال: **«قد عرفت ذلك في أهل بيتي؛ لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٥٥)، والحاكم (٨٣٢٦)، وحكم عليه شعيب الأرناؤوط (إسناده صحيح على شرط مسلم) في تخريج المسند رقم (١٦٩٥٧).

كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية»[1].

ومنها ما جاء في القرآن الكريم عن سياقات تبشير المؤمنين بالنصر والفتح، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣]، وغيرها من نصوص الوعد بالنصر والغلبة ونزولها في حال الذل والهزيمة.

وهنا مشهد في غاية الروعة عن توريث النبي ﷺ للصحابة والأجيال من بعدهم مبدأ استحضار المداولة وتغيير الحال، روي عن النبي ﷺ وهو مع صحابته ﷺ في حفر الخندق، أنه «**لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا نأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»**[2].

٥ ـ استحضار الذهنية الشرعية لسنة التغيير والمداولة، فمن يطالع ما كتبه العلماء من تصنيفٍ للعلوم الإسلامية المختلفة على طيلة مسيرة التراث الإسلامي، يجد مدى حضور واستيعاب سنة التغيير والمداولة في كتبهم وخطبهم مع تنوع سياقاتهم المعرفية والعلمية، فحيناً تأتي في سياق الوعظ والتذكير، وتأتي في سياقات شحذ الهمم أحايين أخرى، أو من قبيل الوصايا العامة والتذكير بسنن الله الكونية وغيرها من السياقات.

---

(١) التخريج السابق.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٨٥٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢١)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٨٣٥٥٤). وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٣١٧٦).

ومن ذلك ما خطب به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ «**لا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة وكل ما فيها إلى زوال وهي بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم..**»[1].

٦ ـ الاعتبار الشرعي لمحرك التغيير والمداولة من حيث مراعاة علة تغير الحال في الحكم الشرعي. فقد بوب ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين بقوله: «**فصلٌ في تغيير الفتوى، واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد**»[2] وقد أورد فيه رحمه الله جملة من المسائل التي تقرر علة الحكم الشرعي في اعتبار الحال والنظر في أمره ومنها: (**شروط إنكار المنكر، وقطع الأيدي في الغزو، وسقوط الحد عام المجاعة، وصدقة الفطر لا تتعين في أنواع، جمع الطلقات الثلاث بلفظ واحد**) وغيرها من المسائل الفقهية والعلمية المذكورة[3].

وذلك في اعتبار المحرك وتأثيره على الحكم الشرعي، كما في مثال حكم اعتبار الشهادة في القضاء كتابةً وليست شهادة حضورية شفوية، وكانت الأقوال الفقهية جميعها تتمحور حول أحوال الناس وتغيرها في استحقاق جواز ذلك من عدمه.

قال ابن القيم رحمه الله «**والسنة الصريحة تدل على صحة ذلك، وتغير أحوال الناس وفسادها يقتضي العمل بالقول الآخر**»[4]، وكذلك في قوله: «ولكن كان ذاك إذ الناس ناس، وأما الآن: فكلا ولمّا»[5].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢١٥).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١١).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٤٠ ـ ٥٨).

(٤) الطرق الحكمية، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، الناشر: مكتبة دار البيان ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، ص١٧٧.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

وكذلك ما بينه أهل العلم في توضيح حياة المؤمن حال الاستضعاف والأحكام الشرعية المتعلقة في هذه الأحوال الخاصة، وما يتعلق بحال العزة والقوة وما يتمحور حوله من الأحكام الشرعية التي تنتفي في حال الذل والاستضعاف، وما صنفوه من فقه حال التمكين وفقه حال الاستضعاف[1].

ومنه ـ على سبيل المثال ـ الجمع بين آيات التعامل مع الطاعنين في الدين من أهل الكتاب والمشركين، حيث يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون**»[2].

(١) انظر: الاستضعاف وأحكامه في الفقة الإسلامي، تأليف: الدكتور زياد بن عابد المشوخي، الناشر: دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ ـ ٢٠٢١م.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٢٢١.

المحرك الثالث

سنة التدافع

«إن مشكلة الفرد المسلم بالنسبة للصراع الفكري هي أن سلوكه يصبح في حكم الفعل الشرطي أي أنه لا يستطيع توجيه فكره وعمله باختياره طبقاً لمقاييس يحددها عقله ويعيها ضميره، والخطة التي يطبقها الاستعمار تهدف إلى هذه النتيجة النفسية عن طريق بافلوف»

المفكر مالك بن نبي

المقصود من محرك سنة التدافع

أن يكون أساس وأصل الفكرة هو السنة الماضية في التدافع وحتمية الاختلاف فيه، ولزوم استمرارية الصراع بين المختلفين من جهة، وكذلك استحضار ذلك واستصحاب حال سنة التدافع من جهة أخرى، حيث يكون الاقتناع بالفكرة ليس لذاتها وتحقيق غاية السعي في الوصول إليها بقدر ما هو أمرٌ كوني في طبيعة وحال التدافع المورث للاصطفاف وضرورة وحتمية اختيار الفكرة والتي تستوجب عليه القناعة بها، وأن يكون استحضار هذه الأجواء والسنة الحتمية في التدافع هي التي تجعل المرء يصرح بأفكاره وآرائه.

تأثير محرك سنة التدافع في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ولا يخفى على الدارس للفضاء الفكري ما لسنة التدافع من تحريك وتأثير على الأفكار من حيث اقتناع الأفراد بها، أو من حيث اختلاقها ونشوئها، وكيف أن أجواء الصراع الفكري تنتج تأثيراً على الأفكار يصل إلى أن يكون سبباً لبعض الأفكار، ولولا ذلك لم تكن تلك الفكرة تُبث في الفضاء العلمي والفكري.

ويمكن أن أبين علاقة هذا فيما يلي:

١ ـ حتمية الخلاف الفكري وأزلية الصراع العقدي، فالمتتبع للتاريخ البشري بأسر ملله ونحله وعموم اتجاهاته وأطيافه لا تخطئ عينه أن حالة الاختلاف والتدافع المنهجي والفكري والعقدي لم تتوقف، وإنما تنتقل من طيف لآخر ومن زمان إلى زمان مختلف، ومن مكان وجغرافية محددة إلى أخرى في منطقة تختلف، ولذلك كان من قبيل الاستخفاف العقلي والاستغفال المعرفي للتاريخي أن يقرر التصور انعدامية أجواء الصراع الأزلي والتدافع الفكري والمعرفي بين الأمم والهويات الثقافية المختلفة.

وبتقرير هذه الأزلية القائمة كان ولابد من تقرير مستلزماتها وتبعاتها والآثار المترتبة عليها، وهي الأفكار والتصورات والمعتقدات والآراء الناشئة على إثر هذه الأجواء وبقدر قوتها كان حضور هذه الآثار والأفكار في الفضاء العام الفكري.

ولذلك كان من الصعب أن يتجاهل المرء واقع هذا التدافع وحتميته وأن دعاوى السلام والوئام بين المختلفات، بل المتضادات هو في أطر محدد وليس سلوكاً عاماً من الممكن أن يُتخذ ويُنتهج، أو أن يكون ناموس حياةٍ وقانوناً مؤكداً في الفضاء الفكري المعاصر، خاصة في ظل وجود ثقافات متباينة وحضارات ليست مختلفة فحسب بقدر ما هي متضادة، وإقراراً لذلك جاءت النظريات التي تقوم وتعتمد على مبدأ الصراع والمصادمة بين الحضارات[1].

٢ ـ من المعلوم عقلاً أن أجواء التدافع والصراع تورث أفكاراً تختلف عن الأفكار التي تنشأ حال الرخاء والسلام الفكري، فمن غير المعقول أن يسلم الفاحص لحال نشوء الأفكار ومدى انتشارها والاقتناع بها بأن الآثار المتمثلة

---

(١) كنظرية صامويل هنتنجتون في (صدام الحضارات). راجع: صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، تأليف: صامويل هنتنجتون، ترجمة: طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوه، دار سطور، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

بالأفكار والآراء في حالة الرخاء المعرفي والسلام والوئام الفكري هي ذاتها الأفكار التي أُثيرت وانتشرت وصدرت في أجواء التدافع الفكري وجذوة الخلاف المعرفي المنهجي.

وكما أن الدول تتأثر بزهوها وتنميتها في حال الرخاء والسلام مقابل حال الحروب والمعارك والصراع العسكري، فالعقول والفضاء الفكري يتأثر في غلبة أجواء الصراع المفاهيمي والعراك الدلالي عليه.

فلا يستوي من هو في حالة المدافعة الثقافية والفكرية، ومن هو خارج هذه الحالة من الهدأة الفكرية والرخاء العلمي، فانفعال العقل بأجواء الاحتدام الفكري أقرب حالاً من تعقله وعدم انفعاله، ولذلك من الصعب ألا نجعل لمثل هذه الأجواء اعتباراً في المخرج الفكري النهائي، خاصةً وأن التنصل من الانفعال وردود الأفعال لا يناله إلا من سما في معارج التعقل والفهم وزكاة النفس والله المستعان.

٣ ـ أن التدافع بين المتضادات عملية طبيعية في حال التقرير العقلي للتفريق بين المتضادات، فالطبيعة العلمية تقرر أن الأشياء المختلفة ستظل كذلك، فلا يمكن تغيير حقيقة الأشياء والوقائع، كما أنه إذا قرر ذلك فلا بد من التسليم بأن حالة المواجهة بين هذه الأشياء المتضادة المختلفة تنتج نتائج عكسية إثر عملية المواجهة والمصادمة، وكذلك في الحالة الفكرية أن المواجهة بين المنهجيات والأفكار تفرز نمطاً مختلفاً من الأفكار والآراء سواءً على الجانب السلوكي الخاص والمتعلق في هذه الأجواء أو الجوانب الموضوعية البعيدة عن ذلك.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أنه من الأمر الفطري للإنسان التفريق بين المختلفات، وأن ذلك من طبيعة الأشياء: «**فإن الله سبحانه نصب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والباطل والنور والظلام وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق لم يمكن النظر والاستدلال والخطاب والكلام والفهم والإفهام، كما أنه سبحانه جعل الأبدان مستعدة للاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا ذاك لما**

أمكن تغذيتها وتربيتها، فكما أن في الأبدان قوة تُفرق بين الغذاء الملائم والمنافي، ففي القلوب قوة تُفرق بين الحق والباطل أعظم من ذلك، فخاصة العقل التفريق بين الحق والباطل وتمييز هذا من هذا، كما أن خاصة السمع التفريق بين الأصوات حسنها وقبيحها، وخاصة الشم التمييز بين أنواع الروائح طيبها وخبيثها وكذلك خاصة الذوق في الطعوم»[1].

٤ ـ **الطبيعة النفسية للإنسان في التأثير على أخلاقه وأفكاره في أجواء التدافع والصراع**، فلا يستوي من ولدت ونشأت أفكاره في استقرار نفسه وركود روحه وبين من ولدت أفكاره ونشأت في حالة نفسية مشحونة بالآثار الفكرية للصراع والتدافع في وجهات النظر المتباينة والآراء المتضادة، بل إن الأمر قد يتطور إلى أن ينعكس على الابتعاد عن الموضوعية العلمية وتكون الأفكار مجردةً من ذلك وتصبح أقرب إلى تصفية الحسابات في أجواء الصراع والتدافع، وقصد الخلاف لأجله وتعزيز الصراع وتغذيته لا البحث عن الصواب والصحة في الفكرة والمعلومة.

ومن ذلك ما روي أنه: «كنا عند المبرد أبي العباس محمد فوقف عليه رجل فقال: أسألك عن مسألة من النحو، قال: لا. فقال: أخطأت. فقال: **(يا هذا كيف أكون مُخطئاً أو مُصيباً ولم أجبك عن المسألة بعد؟)** فأقبل عليه أصحابه يعنفونه **فقال لهم: خلو عنه ولا تعضوا له أنا أُخبركم بقصته، هذا رجلٌ يُحب الخلاف وقد خرج من بيته وقصدني على أن يُخالفني في كل شيء أقوله ويُخطئني فيه فسَبق لسانه بما كان في ضميره»**[2].

٥ ـ **أن تمادي الانفعالات النفسية حال النزاع وأجواء المدافعة والخلاف ليس له حد**، فالأمر قد لا يقف تأثيره على الأفكار والآراء والمعتقدات فحسب، بل إن الأمر قد يتجاوز ذلك بمراحل كثيرة، يصل إلى البغي والظلم

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١١١٣).

(٢) العزلة، تأليف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف: بالخطابي (ت:٣٨٨هـ)، الناشر: المطبعة السلفية ـ القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ. ص٥٩.

والعراك الجسدي حتى تجمح النفس إلى الانتقام بالقتل والحرق أو القصاص على غير وجه حق.

ومن ذلك قول أحدهم عن مخالفيه بوضع الجزية عليهم! يقول: «لو كان لي أمر لوضعت على الحنابلة الجزية»[1].

من ذلك ما حدث في سنة ٤٩٥هـ حين وصل الحال بالأجواء أن سوغت للمتخالفين فيما بينهم حرق مساجد مخالفيهم، وكان من ذلك مسجد في خوارزم؛ فحسدهم المخالفون فأحرقوا المسجد وأغرمهم السلطان خوارزم شاه ما خسره الباني فيه[2].

من شواهد محرك التدافع وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، **ما عاشه العالم الإسلامي المعاصر في الأجواء التي صنعها المستعمر الأجنبي له وفوق بلاده، والتي تحمل هوية الصراع الفكري والعراك الثقافي، تلك الأجواء الاستعمارية التي أنتجت بعض الأفكار التي أصبحت أبعد ما تكون عن العقلية المجردة البناءة والذهنية الموضوعية الهادئة، وإن من أبرز ما أنتجته هذه الحقبة هي: الأفكار التي تنشأ باعتبارها ردة فعل أمام الاستفزاز الثقافي في أجواء توتر الصراع الفكري.**

وقد أبدع بحق المفكر مالك بن نبي رَحِمَهُ اللَّهُ حين صاغ هذا النموذج في حينه، وحكى عن هذا التأثير ومدى وإمكانية التفكير المجرد للمسلم في أجواء الصراع الفكري بينه وبين المستعمر للبلاد العربية، وأن جملة من الأفكار هي في حقيقتها ناجمة عن أجواء الصراع والتدافع، فيقول:

«إن مشكلة الفرد المسلم بالنسبة للصراع الفكري هي أن سلوكه يصبح

---

(١) العبر في خبر من غبر، تأليف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. (٣/ ٥٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨ وما بعدها).

في حكم الفعل الشرطي ـ كما يحدده بافلوف ـ[1] أي أنه لا يستطيع توجيه فكره وعمله باختياره طبقاً لمقاييس يحددها عقله ويعيها ضميره، والخطة التي يطبقها الاستعمار تهدف إلى هذه النتيجة النفسية عن طريق بافلوف. وهذا السلوك الشرطي ينتج عند المسلم ـ بصفة طبيعة ـ من جراء الدوافع المتعلقة بغريزة الدفاع عن النفس، وهي الدوافع التي انطلقت منذ الهجوم الاستعماري، في غزة القرن الماضي.

كما ينتج أيضاً ـ وبصفة صناعية ـ من الإيحاءات التي تسلطها على مشاعره، ومن وقت إلى آخر، المختبرات المختصة، كي ترفع توتر طاقات الدفاع عن النفس فوق الدرجة اللائقة، حتى يكون الفرد في حالة توتر شاذة»[2].

ثم بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ في تقرير أن ذلك من صناعة المستعمر ليقطف ثمرة هذا الشعور والتوتر، وليعيش أصحاب النضال في هذه الأجواء مشاعر النصر والهزيمة الفكرية وغيرها، واعتبر أنها معارك وهمية ليست حقيقة، وإنما المراد منها ما سبق تقريره، وقام بضرب النماذج الناجمة عن هذه الأجواء والتي عبر عنها بالمعارك الوهمية:

«وهكذا تستطيع المختبرات المختصة أن تصرف كل إمكانياتنا الفكرية والمادية إلى معارك وهمية، فنسمع فيها قعقعة السلاح، ودوي الحرب، ولكنا نتصارع فيها مع أشباح تحركها أمام أبصارنا المسحورة يد خفية ماهرة. فحينما تصعد صرخة الانتصار في الفضاء، فإن ذلك يعني أن شبحاً قد اختفى عن المسرح حتى يتيح لنا الشعور بالانتصار عليه.

---

(١) يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى النظرية النفسية التي صاغها عالم النفس الروسي (إيفان بافلوف) وهي: «الاستجابة الشرطية» والتي تعني أنها تجعل الإنسان وتضعه في ظروف تجعل منه تفكيره وأفعاله ردود تلقائية وآلية. راجع: بافلوف وفرويد (دراسة نقدية)، تأليف: هاري ويلز، ترجمة: شوقي جلال، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الأولى: ١٩٧٨م.

(٢) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ سلسلة مشكلات الحضارة ـ، تأليف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ص٦٦ وما بعدها.

والتاريخ الإسلامي الحديث لا يخلو من هذه المعارك الوهمية، التي ننتصر فيها على الأشباح، كتلك المعركة[(١)] التي خاضها جمال الدين الأفغاني[(٢)] ومحمد عبده[(٣)] ضد أرنست رينان[(٤)] وجبرايل هنوتو[(٥)][(٦)].

بعد ذلك بين ضريبة تلك المعارك الوهمية، وما تكلفه تلك الأفكار التي أنتجتها أجواء الصراع الفكري، وكون أن المستعمر هو الذي يقطف ثمرة استنزاف الأوقات والجهود وهذه الأفكار التي لا تخرج عن أطر الصراع المرسومة لها، فقال:

---

(١) يشير رحمه الله إلى سلسلة من الأحداث والمناظرات والنقاشات والردود المطولة في جريدة ديبتس الفرنسية الواقعة في مارس سنة ١٨٨٣م، والتي جرت بين الأفغاني ورينان بعد إلقاء الأخير محاضرة له في السوربون بعنوان (الإسلام والعلم) وما تبعه من إشغال الرأي العام فيها وفي تبعاتها من سلسة الدفاعات خاصة مع سيلان الطعن الذي خرج عن الإطار الموضوعي. راجع: الإسلام والعلم بين الأفغاني ورينان، تأليف: الدكتور محمد عثمان الخشت، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م.

(٢) هو محمد بن صفدر الحسيني جمال الدين، ولد في أسعد آباد بأفغانستان، سنة ١٢٥٤هـ، ونشأ بكابل، وقد ظهر أثره في النهضة الإسلامية الحديثة، ومن أبرز تلامذته محمد عبده، وقد أصدر معه في باريس صحيفة (العروة الوثقى)، توفي في الآستانة سنة ١٣١٥هـ، من مؤلفاته: الرد على الدهريين، وتاريخ الأفغان. الأعلام للزركلي (٦/ ١٦٨).

(٣) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ولد في مصر سنة ١٢٦٦هـ، أجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، وهو من طلاب جمال الدين الأفغاني، عاد إلى مصر سنة ١٣٠٦هـ، وتوفي في الإسكندرية ودفن في القاهرة سنة ١٣٢٣هـ، من مؤلفاته: الرد على هانوتو، رسالة الواردات، الإسلام والرد على منتقديه. الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٢).

(٤) هو أرنست رينو (١٨٢٣م ـ ١٨٩٢م)، مؤرخ وكاتب فرنسي، رمز من رموز فرنسا الجمهورية العلمانية القومية، وأطلق اسمه على كثير من المدارس والمباني العمومية، اشتهر بطعنه بالإسلام. انظر: ابن رشد والرشدية، تأليف: أرنست رينان، ترجمة: عادل زعيتر، الناشر: دار التنوير ـ لبنان، الطبعة الأولى: ٢٠٢١م، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، جمع وترتيب: أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، الناشر: دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ـ جدة، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ. (٢/ ٤٣٥).

(٥) هو أوغست غابرييل هانوتو، مؤرخ ورجل دولة فرنسي، أحد وزراء خارجية فرنسا في الجورنال الفرنسية عام ١٩١٠م، ولد في ١٨٥٣م وقد كتب عدة مقالات في طعنه على الإسلام. أعلام وأقزام في ميزان الإسلام (٢/ ٤٣٥).

(٦) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص٦٨.

«وهذا هو ما نشعر به أولاً إزاء بعض المشاريع ذات الشأن، حينما يحاول من يقوم بها، أن يجند الأفكار والأقلام والأموال للدفاع عن الإسلام من هجمات المستشرقين.

فإذا بالاستعمار يبدي ارتياحه لمثل هذه المشاريع حينما يأتيه نبؤها، إن لم نقل أنه أوحى، من بعيد بفكرتها لأنها سوف تصرف الأموال والأقلام والأفكار عن الأشياء الجدية.

كما نشعر أيضاً أنه سوف يبدي قلقه، لو أن أحداً انفلت من تأثير سحره، وحاول أن يقول إن المشكلة ـ ليست في الدفاع عن الإسلام الذي يجد في جوهره حصانته، من عطاء الله إليه ـ ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم بما في الإسلام من وسائل الدفاع... إنه لمن ترف القول إذا قلنا إن كل ما يحدث اضطراباً في خطة الاستعمار المطبقة أو يحدث أثراً يناقض السلوك الشرطي الذي أصبحت أفكارنا وأفعالنا خاضعة له، بمقتضى تلك الخطة، قد يصبح موضع كل اهتمام من طرف الاستعمار»[1].

---

(١) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ص٦٩.

الاعتبار الشرعي لمحرك سنة التدافع

لقد اعتبرت الشريعة الإسلامية سنة التدافع من حيث حضورها في المشهد الفكري والعقدي بين الناس، وجعلت منها حتمية الوقوع والتأثير على العقول والأحداث، ويمكن أن أبين الجوانب التي توضح ذلك الاعتبار فيما يلي:

١ ـ التقرير الشرعي لحقيقة وحتمية وأزلية سنة التدافع في الوجود البشري، فقد أكدت الآيات والأحاديث على هذه الحتمية وكون أن الحياة بطبيعتها كذلك، وأن من أهم قوانينها هذا التدافع والتجاذب بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين الصالح والفاسد ومثيلاتها من المعاني المتباينة.

فتأكيد الشريعة الإسلامية لهذه الحقيقة تأكيداً لآثارها وتحقيقاً لأجوائها على الأفكار والآراء، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

وفي قوله تعالى في أزلية الصراع بين الحق والباطل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، «والتدافع بين الحق والباطل أي بين أصحابهما أمرٌ لا بد منه وحتمي لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، فلا يتصور إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعلة كضعف أصحابهما أو جهلهم بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم»[١].

---

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، تأليف: الدكتور عبد الكريم زيدان، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ص٤٦.

وفي واقعية وأزلية التدافع الفردي وكون أن المرء لا ينفك عن المدافعة في الحياة وكونها من السنن الجارية على الأفراد كما هي على المجتمعات والثقافات.

في التعبير عن ذلك يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «**أما العز والجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغني عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه المشاغل بالعز والجاه، ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان**»[1].

٢ ـ المقتضيات الشرعية المقررة لواقع أزلية الصراع بين النفس وصاحبها، فمن يستقرئ النصوص الشريعة يجد أنها قررت وأكدت في غير موضع أن من الشيء الذي أصعب ما ينفك عنه المرء هو النفس الأمارة بالسوء.

فالتأكيد على جهادها والكفاح لتطويعها جزء لا يتجزأ من التعامل مع هذه الأزلية القائمة، ويمكن أن أبين بعض ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الأحكام التي رسمت طبيعة هذا التدافع ومدى تأثيره على الأفكار والآراء:

ـ تقرير أن التدافع أمر وجودي جاء مع خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٦]، فمن هذه اللحظة كانت حقيقة التدافع بين الإنسان والشيطان والخير والشر والحق والباطل حتى قيام الساعة.

ـ أن من المقتضيات للغاية من الخلق (العبودية) هي مدافعة المرء هواه ونفسه، فلا عبودية تتحقق للمسلم بلا مدافعة منه للباطل والشر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور وترك المحظور وأن يكون مستعينا بالله على ذلك، **وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير، ودفع ما يريده الشيطان ويسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير...، وكل هذا من باب**

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٠٤).

دفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير، وهذا واجب تارة ومستحب تارة»[١].

ـ **مفاهيم المدافعة بين النفس وصاحبها**، فالذي يقرأ في أحاديث النفس عند أهل العلم وكفاحهم وجهادهم يجد روح المدافعة بينهم وبين ما يحملون في أنفس يسوقونها إلى الحق والخير سوقا، وقد جاءت جملة من المفاهيم عن أجواء الصراع بين النفس وصاحبها والتي تؤكد واقعية تأثير المدافعة على حياة المسلم ومنها: **(محاسبة النفس، والتوبة، والزهد، ومجاهدة النفس، خوف من الله وخشيته، الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، كبح جماح النفس من الصيام والإلزام وغيره)** فهذه المفاهيم ومرادفاتها جاءت لتقرر اصطحاب حال المدافعة بين المرء ونفسه في حياته كلها.

ولذلك كانت النفس الأمارة بالسوء هي أيقونة العدو الأقرب للمرء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يُوسُف: ٥٣]، واعتبرت الشريعة الإسلامية هذه المجابهة والمدافعة جهاداً، قال ﷺ: **«أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»**[٢]، وقوله ﷺ في تقرير مبدأ هذا الجهاد القائم الأزلي: **«المجاهد من جاهد نفسه في الله»**[٣].

ويحكي ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أنواع الجهاد في مساحات النفس بقوله: **«وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبيل رضاه..»**[٤].

وقد نقل عن شيخ الإسلام قوله أن: **«جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه..»**[٥] **وعليه «كان جهاد النفس مُقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم**

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٥٤٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وأحمد (٢٣٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٧٩).

(٤) الفوائد لابن القيم ص٥٩.

(٥) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٤٧٨.

يمكنه جهاد عدوه في الخارج»[1]، فحضور هذه المفاهيم وسياسة الرجل في جهاده لنفسه هو إقرارٌ لأزلية أجواء المدافعة وواقع تأثيرها على السلوك والفكر والنتاج العقلي.

٣ ـ التوجيهات الشرعية الحاكمة لسيلان الأفكار في أجواء الخلاف والتدافع، فالمتتبع للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة يجد مادة لا يستهان بها تسهم في تهذيب السلوك الفكري والحد من جموح الفكر والرأي في حال تأثير أجواء التدافع فيه..

فلم تأت الشريعة الإسلامية بهذه التعاليم التي تقف أمام هذه السلوكيات إلا إدراكاً منها بأن أجواء الخلاف والتدافع المنهجي والفكري العام له أثره على النفوس والأخلاق فضلاً عن أن يكون أثره على الأفكار والآراء.

الضبط للانفعالات النفسية والسلوكية في أجواء المدافعة الفكرية:

يمكن فيما يلي أن أبين أبرز التعاليم والتوجيهات الشرعية التي جاءت للحد من تأثير أجواء التدافع على الموضوعية الفكرية والعلمية:

ـ **الضبط الشرعي للانفعالات النفسية في حالات الغضب**، فجاء التعامل النبوي مدركاً لطبيعة الإنسان في احتمالية انفعالاته حال المنازعة والمدافعة، وما يفضي ذلك إلى التأثير على الأفكار والآراء والأحكام الصادرة منه فتكون ناجعة النتيجة، يقول ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2].

ـ **التأكيد على العدل وعدم الظلم حال نيل الاستحقاق وإنفاذ المستحق**، فإنه إذا أُوكل المرء لنفسه وانفعالاتها فإنه يعتريه ويطاله الظلم والبغي على العباد في أجواء المدافعة، وهنا جاءت الشريعة الإسلامية لتقرر منهج العدل في أجواء النزاعات والمدافعة حتى مع الكفار والظالمين، إقراراً منها بأن هذه

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

الأجواء لها تأثيرها على الأفكار والآراء، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له**»[١].

ـ **التأكيد على الغاية من الدعوة وهي التبليغ دون الهداية**، فقد جاءت الشريعة الإسلامية في غير موضع على تحديد أطر الواجب من الفعل؛ كي لا يتحمل الفعل أكبر مما هو مرسوم له، فينفعل ليتجاوز عملية البلاغ إلى ما بعده من الإرغام على النتيجة أو الإسراع في قطف ثمرة البلاغ، كل ذلك جاء ليحد من الانفعالات التي تكون في أجواء المحركات الثقافية والعقدية، قال ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. «**قال المفسرون: المعنى أنك لم ترسل مسلطاً عليهم قاهراً لم جبار كالملوك بل أنت عبدي ورسولي المبلغ رسالاتي فمن أطاعك فله الجنة ومن عصاك فله النار**»[٢].

---

(١) الاستقامة لابن تيمية (١/٣٨).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/٦٩).

المحرك الرابع

الظرف الاجتماعي

«إننا نؤدي الدور الذي عينه لنا المجتمع، ونتبع الطريق الذي رسمها لنا، ثم نسلم قيادنا لهذه الطريق، نترسمها كل يوم، بنوع من العادة لا يكاد يخالطه تفكير، أشبه بغريزة النحلة أو النملة»

الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

المقصود من محرك الظرف الاجتماعي

أن يكون سبب قبول الفكرة المطروحة وانتشارها أو رفضها وانحسارها هو ما يعيشه المجتمع الذي نشأت فيه هذه الحركة الفكرية، فتكون البيئة الاجتماعية هي التي تدفع بهذا النمط من الأفكار والآراء والمعتقدات إلى النشوء والظهور والانتشار.

فكم من بيئة اجتماعية دفعت بجملة من الأفكار التي راجت في أصقاع المجتمعات الأخرى، وكم من فكرة ما نشأت لولا بيئة حضنتها وآوتها حتى قامت على سوقها تعجب الألباب وأصحاب الرأي، ورُب فكرة يرى الشخص قالب انطلاقها الموضوعي فما يلبث يفتش وينقب عن مكامن بواعثها حتى يجد بيئتها ومهدها في وسط زخم من القيم الاجتماعية المحركة.

وكما هو معلوم بالبداهة والضرورة أن الإنسان ابن بيئته يتخلق بأخلاق من حوله، ويتأثر بسلوكهم وأقوالهم وأحكامهم، ومن غير الممكن أن نستثني من هذا التأثير ما يتعلق بالأفكار والمعتقدات، فإن تأثير البيئات الاجتماعية وما يمر عليها من الظروف لا يكاد يكون واضحاً فحسب بل لافتٌ للألباب والأفهام.

تأثير محرك الظرف الاجتماعي في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ولعلي فيما يلي أوضح أبرز جوانب تأثير ذلك على صناعة الأفكار والآراء في الفضاء الفكري:

١ ـ الحالة الإنسانية المندمجة بين الشعور والحاجة للمجتمع والإنسان الآخر في عموم الحياة، فكما هو معلوم ما يقال وهو شائع أن الإنسان مدني بطبعه، حيث إنه من الصعب على الإنسان أن ينفرد لوحده في الحياة ولا يحتاج إلى غيره البتة، ومن نشد ذلك لا يستقر له حال، إذ لابد له من أمر يطلبه من أحد أو يصنعه له غيره من أكل وشرب ودواء وخدمة وغير ذلك، ومن هذا الاحتياج جاء الاتصال المتجذر بين الإنسان بمفرده وبين مجتمعه الذي يعيش فيه والناس الذين يعيشون من حوله.

وإذا تم التسليم بهذا الأمر وصحته لزم منه العلم بأنه كما وقع احتياج الإنسان للطعام والشراب والعلاج وغيره ووقع سد ذلك ممن حوله ومن يعيش معهم، لابد ألا تستبعد الأفكار والمعتقدات من ذلك الاحتياج والإشباع ومدى تقديم المجتمع لأفراده والأفراد لمجتمعاتهم في الاتصال الفكري المتبادل واحتياج الأفكار لبعضها دعماً وتكاثرا وتطويرا، ومن هنا يقع التأثير على صناعة هذه الأفكار قوة أو ضعفا وقلة أو كثرة وصياغة الفضاء الفكري تبعاً لذلك.

٢ ـ الواقعية التاريخية لحقيقة تأثير البيئة الاجتماعية وما تمر به من ظروف على الأفكار والمعتقدات، فالحديث عن قوة تأثير المجتمع على أفكار وآراء أفراده لا ينكره من يقرأ أصول الأفكار ويفتش عن جذور الآراء.

فقد «**استطاع الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون[١]، في تحليله العميق لقضية الإلزام الأخلاقي أن يكشف عن مصدرين: أحدهما: قوة الضغط**

(١) هو الفيلسوف الفرنس هنري برجسون (١٨٥٩م ـ ١٩٤١م)، فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٧م، له أثره في مجال الفكر الفلسفي والأدبي، من مؤلفاته (التطور الخلاق، الفكر والمتحرك) وغيرها. راجع: هنري برجسون الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة: د. سامي الدروبي، تصدير: د. محمد عناني، مراجعة: د. عبد القادر القط. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠٠٧م.

الاجتماعي، والآخر: قوة الجذب ذي الرحابة الإنسانية المستمدة من العون الإلهي، وهي أوسع مدى من سابقتها.

وقد فسر ذلك قائلاً: إننا نؤدي الدور الذي عينه لنا المجتمع، ونتبع الطريق الذي رسمها لنا، ثم نسلم قيادنا لهذه الطريق، نترسمها كل يوم، بنوع من العادة لا يكاد يخالطه تفكير، أشبه بغريزة النحلة أو النملة، وذلكم هو ما يسمى عادة: بالوفاء بالواجب.

ولو أننا قاومنا ذلك لحظة، أو حاولنا أن نعدل من سيره فإننا لا نلبث أن ترتد إليه، شئنا أم أبينا، بفضل تلك القوة القاهرة للحياة الجماعية»[١].

٣ ـ أن الباحث في شأن الرجال أول ما يجب عليه ذكره حال دراسة أمرهم وشأنهم هو تنشئتهم الاجتماعية، فمن يدرس الأفكار من الصعب عليه أن يتجاوز تنشئة أصحابها وكيف كانت ظروف مجتمعاتهم وتأثيرها على تكوين أفكارهم، فتجاوز حقبة التنشئة والظرف الاجتماعي يورث غلطاً في التصور السببي للفكرة من جهة، وفي فهم سياقاتها من جهة أخرى، فاجتزاء الفكرة عن حال صاحبها وقطعها عن السياق الموضوعي والمكاني لها لابد أن يكون له أثره في التحليل الفكري وفي قراءة الأفكار والآراء حتى في فهمها وإدراك الغاية منها ومن إيرادها وطرحها.

ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما يذكر من أهمية في أسباب النزول للآيات وعموم الأحكام الشريعة، إذ إن معرفة أسباب النزول تعطي تصوراً عن الحالة الاجتماعية والظرف المكاني الواقع والحاصل حال نزول واستحقاق الحكم، لا لتخصيص الحكم بمطابقة هذه الواقعة بعينها، بقدر ما هو محاولة في تحقيق المقاصد الشرعية من التشريع والهدف الشرعي للأحكام الشرعية.

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن (دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن)، تأليف: الدكتور: محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: الدكتور: عبد الصبور شاهين، مراجعة: د. السيد محمد بدوي. الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت. الطبعة العاشرة: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. ص٢٣.

وقد سبك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه العلاقة بين السبب والمسبب بقوله:

«والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص وغيره، ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً. ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها. وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به أنه سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا»(١).

٤ ـ أنه لا يمكن للفكرة أن تعيش في مجتمع يرفضها، كما أن النبتة لا يمكن أن تنمو في تربة غير صالحة لها، فالمتأمل في تاريخ المجتمعات من الصعب أن يجد نموذجاً راجت فيه الأفكار المجتمعية وهو لا يقبل بها وليس لها أرض خصبة لانتشارها، بعد استبعاد سياقات الإكراه والقهر في فرض الأفكار، أو ما كان من جهد حثيث في تطويع المجتمع لها ومحاولة تكيفه معها.

من شواهد محرك الظرف الاجتماعي وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هي الحقبة الزمنية والحالة الاجتماعية التي عايشتها المجتمعات العربية في بوادر الاستعمار.

وذلك أن الحال الاجتماعي الذي كانت تعيشه المجتمعات العربية بعد مرحلة أواخر الدولة العثمانية وتحديداً في نهايات القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين والتي كانت تسمى بـ (**الرجل المريض**)؛ حيث أسهم الظرف الاجتماعي آنذاك في تمرير بعض الأفكار الاستعمارية والتي لو لم تكن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

تلك الظروف الاجتماعية بهذه الحال لما تم قبولها وتمريرها والرضا بها أو أن تجد لها موطئ قدم في البلاد العربية.

ولعل أبرز من تحدث عن أن هذا المعطى والسبب هو الذي دفع بالأفكار الاستعمارية أن تجد لها حضوراً في الوسط الفكري العربي ـ كما هو معلوم ـ **هو المفكر الجزائري المنقب عن الأفكار مالك بن نبي** رحمه الله **حيث صاغ ذلك الرأي والاكتشاف وعلى إثرها النتيجة في نظريته التي عبر عنها بـ (القابلية للاستعمار)**[1].

وذلك حين أوضح مالك بن نبي رحمه الله مدى تأثير الظرف الاجتماعي الذي أسهم في تلقي الأفكار الاستعمارية وتحدث عن الأهلية المجتمعية آنذاك وخضوعها للاستقبال الفكري والثقافي، فقال رحمه الله: «**ونحن في هذا الفصل نريد أن نتعرض لعامل آخر ينبعث من باطن الفرد الذي يقبل على نفسه تلك الصبغة، والسير في تلك الحدود الضيقة التي رسمها الاستعمار وحدد معها حركاته وأفكاره وحياته**»[2].

وأسهب بعد ذلك في توضيح جملة من الأفكار الاستعمارية ومدى حضور هذا المحرك (الظرف الاجتماعي) في قبول الأفكار وحقيقة الميل إليها فيقول: «**إن المستعمر يريد.. منا انحطاطاً في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا، تلك الرذيلة التي تكون نفسية رجل القلة، فيجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة التي يحاول نشرها العلماء في بلادنا، وهو يريد تشتيت مجتمعنا وتفريق أفراده شيعاً وأحزاباً، حتى يحل بهم الفشل من الناحية الأدبية، كما هو فاشلون في الناحية الاجتماعية، فيجدنا متفرقين بالسياسات الانتخابية، التي نصرف في سبيلها ما لدينا من مال وحكمة، وهو يريد منا أن نكون أفراداً تغمرهم**

---

(١) راجع: وجهة العالم الإسلامي، تأليف: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الناشر: دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق. الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م. ص٩٩. شروط النهضة، تأليف: مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمرو كاسل مسقاوي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر ـ سوريا ـ دمشق. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م. ص١٥٢ ـ ١٥٦.

(٢) شروط النهضة، مالك بن نبي ص١٥٢.

الأوساخ، ويظهر في تصرفاتهم الذوق القبيح، حتى نكون قطيعاً محتقراً يسلم نفسه للأوساخ والمخازي فيجدنا ناشطين لتلبية دعوته.

وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملاً باطنياً يستجيب للمعامل الخارجي ويحط من كرامتنا بأيدينا»[1].

كرر مالك بن نبي هذه الفكرة في غير موضع من كتبه ومقالاته وهي كون القابلية الاجتماعية للاستعمار هي التي تدفع الفكرة الاستعمارية للانتشار والنفوذ إلى العقول والأفهام في أفراد المجتمع العربي، حيث أكد على أن السبب الحقيقي لذيوع الأفكار الاستعمارية ليس فقط حضور الاستعمار ذاته، ولذلك لن تضمحل فور خروج الجيوش الاستعمارية من الأراضي العربية، بل إن السبب في ذلك أقرب من أن يكون مشكلة اجتماعية ثقافية يقول رَحِمَهُ اللهُ:

«هكذا نرى أنفسنا أمام ضرورة ملحة كثيراً ما ألحنا إليها في مقالات سابقة، ألا وهي تصفية الاستعمار في العقول قبل كل شيء، فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة، فهي لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، ومجرد إعلان الاستقلال وتحرير دستور»[2].

---

(١) شروط النهضة ص١٥٣.

(٢) بين الرشاد والتيه، تأليف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر ـ سوريا ـ دمشق. الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م. ص٣٣.

الاعتبار الشرعي لمحرك الظرف الاجتماعي

لقد أولت الشريعة الإسلامية شأن البيئة الاجتماعية وما تمر بها من ظروف أولوية في الخطاب والتوجيه، وراعت هذا الاعتبار كونه أحد أهم المؤثرات على الأفكار والآراء وتقبل المعتقدات ورفضها، ولقد تبينت أهمية كون الظرف الاجتماعي محركاً لدوافع الأفكار من خلال جوانب عديدة، منها ما يلي:

١ ـ **التقرير الشرعي في تأثير الظرف الاجتماعي المباشر على الأفكار والمعتقدات**، فمن أعظم الأدلة الشرعية التي أوضحت قوة التأثير وكون البيئة الاجتماعية بظرفها الحاصل لها تدفع بالمرء إلى فكرة معينة هو ما أخبر به النبي ﷺ من أن ذلك التأثير حقيقة واقعة وحاصلة لا محالة للإنسان فيه، وكأنه من قبيل السنن الإلهية في إقرار هذا التأثير، فقد قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..**»[(١)]. فهذا الإقرار النبوي عن مدى تأثير محرك الظرف الاجتماعي للإنسان في تشكل أفكاره ومعتقداته والذي يصل به إلى القناعة التامة بالمعتقد بسبب حضوره في حياته وبيئته.

٢ ـ **نقل الشريعة الإسلامية لقراءة الأفكار والآراء من ناحية الفحص الاجتماعي لها**، فحين يعلم الباحث بأن الشريعة الإسلامية نقلت التحليل الذي يقر بتأثير الظروف الاجتماعية على الأفكار يدرك أهمية هذه القراءة الفاحصة لمنشأ الأفكار والمعتقدات.

ولذلك جاء هذا النموذج للقراءة والفحص حين قال تعالى على لسان قوم مريم عليها السلام: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مَريَم: ٢٨].

(١) سبق تخريجه.

فهذه القراءة التي تجاوزت الفكرة والفعل إلى منشئها وأصل مصدرها المعبر عنها بالأبوين هي محاولة للبحث عن المحرك لهذه الفكرة، ويشير ذلك إلى إدراكهم لمحرك الفكرة وهو ما كان عليه الحال في البيئة الاجتماعية.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «**أي: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟ وذلك أن الذرية ـ في الغالب ـ بعضها من بعض في الصلاح وضده، فتعجبوا ـ بحسب ما قام بقلوبهم ـ كيف وقع منها..**»[1].

ومن ذلك ما صدق النبي ﷺ قوله في مدى تأثير العزوة الاجتماعية على الفكر والمعتقد في أجلى صورة وأوضحها حين قال ﷺ: «**يا حاطب ما حملكَ على ما صنعت؟!» قال: يا رسول الله، والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله، ولكني أردت أن تكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي، ولم يكن أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من قومه من يدفع الله تعالى به عن أهله، وماله. قال ﷺ: «صدقت، فلا تقولوا له إلا خيراً».. الحديث.**[2]

٣ ـ عدم تسوية الحال بين ظروف المجتمعات المتغايرة، فقد أدركت الشريعة الإسلامية هذا التأثير واعتبرته، ففرقت بين الظروف المجتمعية المواتية للأفكار الشرعية حيث تحرض تلك الظروف للفكرة والأخذ بها والعمل لأجلها، وبين الظروف المجتمعية التي تحابي الفكرة الإسلامية ولا توجد سبيلاً لها في الوصول إلى العقول والأفهام، مما يستوجب على حامل الفكرة هنا كفاحه ونضاله في سبيل الوصول إلى العقول والتأثير عليها، فإذا فرقت الشريعة الإسلامية بين هذين الحالين وأثرهما على الأفكار والمعتقدات فقد اعتبرت الظرف الاجتماعي محركاً من محركات الأفكار والمعتقدات.

ومن أعظم اعتبارات الشريعة للظرف الاجتماعي وتفريقها بين الظروف

---

(١) تفسير السعدي ص٤٩٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٦)، ومسلم (٢٤٩٤).

المجتمعية، هو ما فرقه الله تعالى بين المنفقين للصدقة في الظرف الاجتماعي قبل صلح الحديبية وبعده، قال ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠].

فالعطاء والإنفاق هو ذاته لم يختلف غير أن الفارق هو التوقيت واختلاف الظرف الاجتماعي فيه، فـ «**أحدهما بادر بالإنفاق في الظروف الشاقة، على حين جاء الآخر من بعد، عندما تضاءلت المشقات كثيراً**»[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تحقق الأشياء على الظروف والأحوال المتلاقية لها: «**والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوماً ويهجر آخرين...، وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنة تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح...**

ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدر في البصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك»[٢].

٤ ـ أن المتأمل في دعوات الرسل صلوات الله عليهم يجد إدراكهم لأثر البيئة الاجتماعية على دعوتهم، فكم من سياق دعوي لرسل الله صلى الله عليهم وسلم يُظهر حرصهم على المسألة الاجتماعية وإلحاحهم على الانتماء الاجتماعي، فمنهم من ألح على أبيه، ومن ألح على قومه، وعلى عمه.

وأعظم مشهد في تأكيد مدى أهمية البيئة الاجتماعية وتشكيلها في استقرار الأفكار وتحقيق مسارها الآمن إلى الأفهام، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسولنا الكريم ﷺ حيث قال: (مكث رسول الله ﷺ يتبع الناس في منازلهم بعكاظ، ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: «من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»[٣].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٦٢١.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٤٥٦)، وابن حبان (٦٢٧٤)، وصححه الألباني على شرط مسلم في السلسلة الصحيحة (١/ ١٣٣).

ومن أهم الاعتبارات النبوية لقيمة البيئة الاجتماعية وما تمر بها من ظروف: هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، رغم صعوبة الأمر وطي صفحة حقبة مكية شاقة غير أن أهمية الظرف الاجتماعي المدني ومدى أثره في إقامة الدعوة وطرح الأفكار والأحكام الشرعية هو من الاعتبارات المدروسة في هذه الخطوة النبوية.

ولذلك من يتأمل في الظرف الاجتماعي الذي تعيشه قريش مع رسول الله ﷺ في مكة يجد أنه من الصعب جداً أن يكون لأفكار النبي ﷺ وما تحمله من الحق والنور قبولاً وانتشاراً أو تطوراً للمشهد الفكري والعقدي فضلاً عن أن يكون لها التمكين والغلبة.

فالهجرة إلى المدينة كانت طريقاً إلى رسوخ المعتقد وإقامة الفكر والمنهج، فلا يستوي ظرف اجتماعي يرمي النبي ﷺ بعد كل فكرة يصرح بها بالسحر حيناً وبالجنون أحايين أخرى والطعن في أهدافه وغايته، وبين ظرف اجتماعي آخر يردد فيه الأنصار بعد كل فكرة قولهم: **(سمعنا وأطعنا)،** ويتجاذب المهاجر مع أخيه ذكرى ما عانوه من بأس وقهر في الظرف الاجتماعي السابق، فكان هذا الظرف الاجتماعي المدني يقوم على السمع والطاعة والمحبة والإيثار والاستسلام لله ورسوله ﷺ.

ومن قبله نبي الله أبونا إبراهيم عليه السلام يوم جاء قراره عليه السلام في الهجرة عن قومه وتركه لهم ومفارقتهم وخروجه عنهم بسبب رفضهم لدعوته، فسأل الله سبحانه وتعالى أن يهبه أهلاً يعينوه على الأفكار والدعوة التي يحملها بين جنبيه، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مَريَم: ٤٨]. قال القرطبي رحمه الله: «**وأعتزلكم: أي العزلة المفارقة، وقوله عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا. قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولداً يتقوى بهم، حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه**»[1].

وعلى إثر ذلك الإلحاح والطلب لإدراكه أهمية البيئة في الأفكار والدعوة

---

(١) تفسير القرطبي (١١/١١٣).

عامة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مَريَم: ٤٩ ـ ٥٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**يقول تعالى فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق**»(١).

٥ ـ بدء الدعوة النبوية في المحيط الأسري ثم الدائرة الاجتماعية الأوسع، فالقارئ لبدايات الدعوة النبوية في مكة يجد أن النبي ﷺ حرص أشد الحرص على مبدأ البداية في التأثير على القريب قبل البعيد وعلى الأقرب في البيئة المشابهة له قبل غيره من البيئات المخالفة، كأهل بيته ﷺ ثم بالأصدق والأقرب بين أصدقائه وخلانه وهكذا، وذلك إيماناً منه ﷺ بما لهذه الخطوة من التأثير البالغ في الأفكار النبوية في تلك المرحلة.

يروي هذه الخطوة النبوية المباركة علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فيقول: (**لما نزلت هذه الآية** ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] **قال: جمع رسول الله ﷺ من أهل بيته فاجتمع له ثلاثون رجلاً فأكلوا وشربوا قال: فقال لهم من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي، فقال رجل لم يسمه شريك يا رسول الله أنت كنت بحراً من يقوم بهذا قال ثم قال لآخرٍ فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي: أنا**)(٢).

ومن الهدي النبوي في مراعاته لأهمية تهيئة البيئة الاجتماعية لنبوغ الأفكار واستمرار استمدادها وسلامة نشوئها ووصولها إلى العقول والأفهام، ما سعى إليه ﷺ بعد هجرته ﷺ إلى المدينة من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في محاولة ناجحة منه ﷺ لإيجاد بيئة اجتماعية تمر بظرف ملائم ومناسب لتحقيق الأفكار الإسلامية وتقرير الأحكام الشرعية بما يناسبها من التهيئة والصلاحية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد من طرق (٨٨٣)، والبزار (٤٥٦) وغيرهم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده جيد، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: مؤسسة المعارف، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ. (٩/ ١١٦).

٦ ـ **الاختلاف الشرعي المعتبر في مصائر أطفال الكفار**، فالذي يقرأ في الخلاف الحاصل في مسألة مصير أطفال الكفار هل هم إلى الجنة أو النار، يجد أن الخلاف جاء من استحضار الأحاديث التي جعلت من البيئة الاجتماعية والظرف الذي ينشأ عليه الطفل اعتباراً وأولوية، وكأن الوزر في ذلك على التنشئة ذاتها وذلك لقوة التأثير بين البيئة الاجتماعية وبين المعتقد والفكر حتى أصبح يعذر بالمعتقد مقابل غياب العقل المدرك المتمثل في البلوغ والإدراك.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ **ملخصاً هذه المسألة: «ولهذا لما تنازع الناس في أطفال الكفار فطائفة جزمت بأنهم كلهم في النار وطائفة جزمت بأنهم كلهم في الجنة، كان الصواب الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة وهو قول أهل السنة: أنه لا يحكم فيهم كلهم بجنة ولا بنار بل يقال فيهم كما قال النبي** ﷺ **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء. قيل: يا رسول الله أفرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين)**[(١)](٢).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لما كان الطفل غير مستقل بنفسه لم يكن له بُد من ولي يقوم بمصالحه، ويكون تابعاً له، وأحق من نُصب لذلك الأبوان، إذ هما السبب في وجوده، وهو جزءٌ منهما، **ولهذا كان لهما من الحق عليه ما لم يكن لأحد سواهما، فكانا أخص به، وأحق بكفالته، وتربيته من كل أحد، وكان من ضرورة ذلك أن ينشأ على دينهما كما ينشأ على لغتهما»**[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) باختلاف يسير.

(٢) الصفدية، تأليف: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ. (٢/ ٢٤٤).

(٣) أحكام أهل الذمة، تأليف: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادي للنشر ـ الدمام، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م. (٢/ ٨٩٥).

٧ ـ الأحكام الشرعية المتعلقة بفقه الأقليات الإسلامية، فكما هو معلوم شرعاً أن للأقليات الإسلامية في البلاد الكافرة من رمت بهم الأقدار من المسلمين ولأسباب متعددة ومختلفة في الدول الكافرة؛ إذ كان لهم من الأحكام الشرعية ما يميزهم عن غيرهم ممن يعيش في البلاد والدول المسلمة. وهذا التمييز هو تميزٌ اعتباري وليس في ذات الحكم الشرعي ومن قبيل المصالح والمفاسد والاعتبارات الشريعة للظروف الاجتماعية التي يعيشها المسلم في الدول الكافرة[١].

ويمكن أن أذكر أبرزها فيما يلي:

- **جواز استئجار ملهى لصلاة الجمعة والعيدين بشرط تطهير المكان.**
- **جواز خطبة الجمعة والعيدين بغير العربية للحاجة.**
- **جواز التعزية للكافر دون الدعاء للميت بالمغفرة.**
- **جواز دفن المسلم في مقابر غير المسلمين للضرورة.**

وغيرها من المسائل والأحكام الشرعية والتي تم فيها مراعاة الظرف الاجتماعي للدول الكافرة التي تعيش فيها الأقليات الإسلامية، والتي بانعدام هذه الظروف لا تصح تلك الأحكام؛ إذ إنها تختص بهذه الحالات عن غيرها.

٨ ـ اشتراط العلماء لحاضن الطفل اتفاقهما في الدين، فاشتراطهم للحاضن وإن كان يرغب الحاضن بالطفل لصحة وأمان الجانب الفكري والعقدي له، وجاء ذلك من إدراكهم ما على البيئة والوصية المنهجية على الطفل من تأثير.

وفي سياق هذه المسألة يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا حضانة لكافر على مسلم لوجهين: أحدهما: أن الحاضن حريص على تربية الطفل على دينه، وأن**

---

(١) أحكام أهل الذمة، تأليف: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادي للنشر ـ الدمام، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م. (٢/ ٨٩٥).

ينشأ عليه، ويتربى عليه فيصعب بعد كبره وعقله انتقاله عنه، وقد يغيره عن فطرة الله التي فَطرَ عليها عباده، فلا يُراجعها أبداً، كما قال النبي ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» فلا يؤمَنُ تهويد الحاضن للطفل المسلم. فإن قيل: الحديث إنما جاء في الأبوين خاصة، قيل: الحديث خرج مخرج الغالب إذ الغالب المعتاد نشوء الطفل بين أبويه، فإن فقد الأبوان أو أحدهما قام ولي الطفل من أقاربه مقامهما»[1].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥/ ٤١٠).

المحرك الخامس

سلطة الأقران

«وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء، لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد»

ابن القيم الجوزية

المقصود من محرك سلطة الأقران

هو أن يكون المحرك الحقيقي للفكرة ـ المذاعة والمصرح بها من الشخص ـ هو الصديق والقريب منه في المنزلة والمكانة، فتكون الفكرة بمجملها أشبه ما تكون عربون صداقة وتودد للصاحب والصديق من أن تكون فكرة نابعة من رأي سديد أو بحث عن حقيقة علمية وفكرية، فكم من الأفكار جامل أصحابها أصدقَاءهم وزملاءهم، وكم من فكرة نافح عنها صاحبها فقط لكونها فكرة انبثقت من صديق عمر ضحى الأخير من أجل صاحبه الكثير فكان رداً للجميل أن يقف معه في هذه الفكرة، وكم من فكرة نشأت من حسد بين أقرانٍ في الفكر والعلم أو في ميادين أخرى، ويبقى الضحية المغلوب على أمره ذلك الذي يبحث عن المنطقية والعقلانية في منابع الأفكار في الوقت الذي هي أبعد ما تكون عن ذلك إذ أنها ترتكن إلى تأثير من حولها من الأقران والأصحاب.

ووجوه هذه السلطة كثيرة منها من جعل من أي الأشياء حوله قريناً وصاحب يتودده ويرجو منه ديمومة قربه، ومنها من كان قرينه في مضمار حياته عمرا أو حالا وأمرا وبذلك يكون التأثير ولا يشترط تودد أحدهما للآخر، بل قد

يكون التأثير في جزء منه يدخل بحسد الأقران والأصحاب وغير ذلك، ومنها ما كان تأثيراً مباشراً ومنها من لا يكون كذلك، وقد يتأثر صاحب الفكرة في حال جهله وحال السلطة وهيمنتها عليه، وقد يعلم بأمرها ونطاق تأثيرها عليه ويستمر في تلك الحدود الثقافية التي رسمتها سلطة الأقران له.

والاقتران بالشيء محدد بعدا وقربا، وقد تتعدد الأسباب والظروف فمنها «**ما يقع بالاتفاق كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار وإلى ما ينشأ اختياراً ويقصد..، والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة**»[1]، والمعتبر في ذلك عدم المفارقة أو كثرة المجالسة والمجاورة والغدوة والروحة وما إلى ذلك، ولا يلزم ذلك وجود المشاعر من حب أو ميل أو خلافهما.

تأثير محرك سلطة الأقران في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

لا يخفى على ذي لب وفهم وعلم ما للصديق من سطوة وقوة تأثير على مجمل الحياة وشؤونها فضلاً عن الأفكار والمعتقدات وتفاصيل الآراء وما يتعلق بها، ويمكن أن أبين فيما يلي بعض الجوانب التي تؤكد علاقة التأثير في كون الصداقة والقرب في المودة والتآلف أو عكس ذلك محركاً إلى الأفكار والمعتقدات والآراء:

١ ـ أن التأثير على الأفكار جزء لا يتجزأ من التأثير الأكبر على الجوانب الأخرى، فتأثير قرب الأشياء فضلاً عن الأشخاص فيما بينهم ملحوظ ومشاهد، وعلى ذلك لا يمكن استثناء التأثير الفكري أو فصله عن تأثير قرب الشخص من الآخر، فإذا كان التأثير بين الصديق وصديقه وبين القرناء على جوانب تتعلق بالنفس أو الحياة العملية وواقعية ملامسة هذا التأثير، فكيف بالجوانب الفكرية والعقدية التي تنمو وتتشكل وتتأثر بين القرناء وفي مجالسهم وما يرتادونه من أماكن ونزل.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦١).

«وقد قال الأوائل: الإنسان مدني بالطبع، وبيان هذا أنه لا بد له من الإعانة، والاستعانة، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه، وهذا ظاهر، وإذا كان مدنياً بالطبع كما قيل فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ، والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سبباً لانتشار الأمر»[1]

٢ ـ أن ديمومة الأشياء وقربها مؤثرة في طبيعة الحال والأمر على ما يقربها ويدوم معها، فخاصيتي الديمومة والقرب من الصعب جداً أن يهون المرء من قوة تأثيرهما إذا اجتمعا، فإذا كان قطر الماء دائمٌ ـ وإن قل ـ حَفرَ في الصخر الصلب ونكأ فيه من جراء قطراته المتتابعة والمستدامة، فكيف بأفهامٍ معنوية هي أوهن على كل حال من ذلك الصخر، ومدى تأثير ديمومة القرين على قرينه قرب منه أو بعد.

٣ ـ التراث المعرفي الإنساني المؤكد لشأن محرك سلطة الأقران ومدى تأثيره على السلوك والأفكار، فالمطلع على التاريخ الإنساني بأكمله لن يجد حكيماً أنكر تأثير القريب الدائم من البشر، أو استهان بمدى تأثيره على من استدام قرناءه، حتى الخطابات المنادية بالعزلة والانكفاء تنطلق من كون ديمومة القرناء فيه تأثير سلبي على الشخص المنكفئ على فكره وسلوكه.

فجملة من حديث الحكماء عن مكانة القرين وحسن اختيار الصديق وما إلى ذلك من أخلاقيات الصداقة والقرابة، انطلقت من استحضار حقيقة تأثير هذا العنصر الخارجي على المكونات الداخلية للإنسان، وكما قيل:

«عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه — فكل قرين بالمقارن يقتدي»[2]

---

(١) الصداقة والصديق، تأليف: أبي حيان التوحيدي (٣١٠ ـ ٤١٤هـ)، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، الناشر: دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الثانية: ١٩٩٦م، ص١٦١.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، تأليف: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري، أبو عمرو الشاعر الجاهلي (٥٦٤م)، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م. ص٣٢.

من شواهد محرك سلطة الأقران وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

وشواهد حضور ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي متعددة وكثيرة، وقد يكون ذلك مباشراً أو لا، وقد يكون سلباً وفي أحايين أخرى إيجابا، ويمكن فيما يلي أذكر بعض الشواهد في كون سلطة الأقران وقوة من جالسوهم دفعتهم هذه السلطة إلى أفكارٍ وآراء ومعتقدات:

- **الموقف العقدي لعم رسول الله ﷺ أبوطالب حال وفاته**، فالمتأمل لموقف عم رسول الله ﷺ من دعوة النبي ﷺ يجد أنه موقف دفاعي لفكرة الإسلام، فقد كان محركاً عن النبي ﷺ لذاته ولرسالته، ولا يمكن أن ينكر أي مسلم نصرته للنبي ﷺ وتصديقه لرسالته وكتابته للشعر في ذلك، إلا أن القارئ لاتساق هذا الموقف يستنكر غياب إسلامه ولحاقه بالإسلام، فما إن يفتش الباحث في مقولاته الفكرية ومواقفه العقدية حتى يدرك أن سلطة الأقران من قومه ومن حوله كانت هي الحيلولة التي وقفت بينه وبين تلك الخطوة المتسقة مع السياق الفكري والعقدي، **فبعد أن أثبت أبو طالب لرسول الله ﷺ تصديقه في أبياته قال:**

(لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً)[1]

وقد روي في الصحيحين هذا المشهد الذي أوضح المحرك في عدم اتساق النصرة والتصديق مع عدم اللحاق بركب الإسلام فحين «**حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أُحاج لك بها عند الله ﷻ. فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يُكلمانه حتى كان آخر شي كلمهم به: على ملة عبد المطلب**. فقال له النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠١).

ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾»[1] [القَصَص: ٥٦].

فإشارة الحديث إلى إلحاح القرناء ممن كانوا حول عم رسول الله ﷺ وأنهم هم الذين ما زالوا به حتى عدلوه عن عرض رسول الله ﷺ له، أعظم شاهد على أن محرك فكرة الرفض الفكري وإقراره عدم الإسلام وإظهاره للموقف العقدي هو ليس تكذيبه للدعوة النبوية، ولا لخسارة دنيوية أو طلباً لمكانة اجتماعية أو غيرها من الدوافع، بقدر ما هي تحقق سلطة الأقران وأثرها على الأفكار والآراء والمعتقدات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هذا وكم جلبت خطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء، لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٣).

الاعتبار الشرعي لمحرك سلطة الأقران

لقد أولت الشريعة الإسلامية أهمية لشأن الصداقة والأخوة والمجالسة في الخطاب والتوجيه، وراعت هذا الاعتبار كونه أحد أهم المؤثرات على الأفكار والآراء وتقبل المعتقدات من رفضها، ولقد تبين هذا الاعتبار والمراعاة من كون سلطة الأقران والخلان محركاً من محركات الأفكار من خلال جوانب عديدة ومتعددة، ومنها ما يلي:

١ ـ منزلة الصداقة والملازمة في الشريعة الإسلامية، فقد جعلت الشريعة الإسلامية من الصداقة والمزاملة والمعية بين الأشخاص والأفراد منزلة عظيمة من ناحية التأثير ومن ناحية الحقوق والواجبات كذلك. وأيضا التبعات والآثار المترتبة على هذه المقاربة والصداقة، فلو لم تكن هذه الآثار ذات أهمية على دين المرء ومعتقد المسلم لما عظمت هذه المنزلة.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**حق المسلم على المسلم ست**» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**»[1].

ومن النصوص الشرعية التي تبين منزلة المؤمن للمؤمن ومقام الأخوة بينهم، ما جاء من الأدلة على فريضة النصرة والتعاطف والتراحم فيما بينهم، حتى رسمت الشريعة الإسلامية **تلك الصورة النمطية وهي (الجسد الواحد) للمجتمع الإسلامي** بأكمله كناية على قوة الوصل والمنزلة الرفيعة في الهرم الشرعي ومدى تأثيرها على التوحيد والعقيدة والدين في المجتمع.

قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»[2]،

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً**»[1].

٢ ـ مخاطبة القرآن الكريم المكلفين من خلال قدر الأقران فيما بينهم، فحين أدركت الشريعة الإسلامية ما للقرناء والأصحاب من الثمرة والتأثير في النفوس بين بني البشر، كرست لهذا القدر والمنزلة أحكاما وتوجيهات تعمّق الفكرة الإسلامية في أذهانهم، من حيث ضرب الأمثلة ورسم الأحكام الشرعية على غرار الصورة النمطية في أفهام الناس.

ويمكن بيان أمثلة هذا الاعتبار الشرعي فيما يلي:

ـ **المشهد القرآني لمرتكب الغيبة في حق أخيه المسلم،** فلتشنيع المنكر وتعظيم الذنب جاءت الصورة لهذا الملف العظيم في الأخوة ومنزلتها وتبشيعها في أكل لحمه بعد موته، لما له من عظيم الأثر في المشاعر والأفئدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الحُجرَات: ١٢].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبّه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزاً عن نفسه بكونه غائباً عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يُقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولمّا كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه، ولما كان المغتاب متمتعاً بعرض أخيه مُتفكهاً بغيبته وذمه مُتحلياً بذلك شُبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه...، فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتاً...، فاحتج**

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧).

عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يُحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نفرة عنه..»[1].

ـ المشهد القرآني في تخلي الصديق الحميم يوم القيامة عن صاحبه، حيث جاءت الصورة النمطية في مؤازرة الصديق الحميم لصديقه واستحضاره حال مناصرته في الدنيا فكان مقتضى حضوره التأثير على الأفكار والمعتقدات.

ولذلك جاء به القرآن الكريم ضمن المشهد النهائي لجزاء العصيان العقدي؛ حيث إنه لو كان تأثير الصديق جزء هامشي في سياق الضلال العقدي لم تجعل الشريعة الإسلامية منه حضوراً في مشهد تخليه عن صاحبه في الضلال، قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٤ ـ ١٠١].

يقول ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولا صديق حميم: وفي هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء**»[2].

«وروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **أن الصديق أكبر من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات فقالوا:** ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٠ ـ ١٠١]»[3].

٣ ـ التقرير الشرعي لحضور محرك سلطة الأقران في الفكر والعلم، فقد جاءت الشريعة الإسلامية في غير موضع لبيان الأثر الذي يتركه الأقران والأصحاب إن خيراً أو شراً في مخيلة وأذهان أقرانهم.

وفي ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم إشارة صريحة في أخذ العلم

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٣٠ وما بعدها).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٣٦).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية. الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ. (٩/ ٤١٠).

والمعرفة من الصاحب والقرين، ففي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام من الدروس والفوائد ما لا يقدر قدره، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

وفي مشهد قرآني آخر لتحميل الصديق صاحبه وقرينه تبعة الضلال العقدي والفكري، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين في كتابه العزيز هذا المشهد الأخروي، حين يتقاذف الأصحاب والقرناء فيما بينهم الأسباب، ويعلوهم الندم والتحسر في أن أحدهم اتخذ الآخر صديقاً له، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفُرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

ولتوثيق الشريعة الإسلامية أمر تأثير القرين على قرينه، وللتأكيد على أن المجالسة لها أثرها في المجالس، ما قاله صلى الله عليه وسلم في تشبيه بليغ عن بالغ الأثر في المجالسة: «**مثل الجليس الصالح كحامل المسك، إلا يهب لك تجد ريحه، ومثل الجليس السوء كالكير، إذا جلست إليه نفخ لكيره، فيُصيبك من دخانه وشرره**»[1].

وفي حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يبين مدى تأثير الصديق على صديقه في الخلق والفكر والسلوك، حين قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل**»[2].

٤ ـ التوجيه الشرعي للصبر على الصديق المعين على الحق والخير، فقد جاءت الشريعة الإسلامية بالحث على الصبر على الصديق المؤمن المعين على الطاعة لما يترتب على ذلك من تأثير إيجابي على المؤمن في عبادته ومدى تحقق الغاية من خلقه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٣٩٨)، وصححه ابن باز في الفتاوى (٧٦٥٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٣٣).

ولذلك قال ﷻ في محكم التنزيل: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: «**أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرةً وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء**»[١].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «**فيها** ـ أي هذه الآية ـ **الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى**»[٢].

ولذلك كان من الغايات الشيطانية التفريق بين الأقران والخلان المتعاونين على الحق والمعين بعضهم للآخر على الخير والطاعة، فالتفريق «بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة العصيان من محابه...، فبهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفساق محذورة، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضاً محذورة، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم، وفي الابتداء قد سلم، فالمهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضا، فكان الوفاء بحق الأخوة أولى، هذا كله في زلته في دينه. **أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن، ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة**»[٣].

بل إن النبي ﷺ أوضح ما للصبر على الناس مع مخالطتهم من أفضلية مقابل هجرانهم والانكفاء على ذات المرء ووحدته، قال ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر**

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٤٧٥.

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨٥).

على أذاهم»[1].

٥ ـ النهي الشرعي المتكرر عن اتخاذ قرناء السوء أصحاباً، فقد تكرر في القرآن الكريم والسنة النبوية التأكيد تحذيراً من مقاربة أهل الفساد والإفساد ومخالطة أهل الأهواء والضلال، وما ذاك إلا لما يترتب على هذه المخالطة والمقاربة من التأثير البين والذي أوضحته الأدلة الشرعية. ومن ذلك ما حذر الله ﷻ النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وإذا رأيت يا محمد، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناه إليك، وخوضهم فيها كان استهزاءهم بها، وسبهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها، فأعرض عنهم فصد بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم حتَى يخوضوا في حديث غيره، حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم وإما ينسيك الشيطان، وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم، والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا**»[2].

ولذلك نهى السلف الصالح رحمهم الله عن مصاحبة قرناء السوء بسبب تعديهم للشر والسوء الخاص بهم إلى من صاحبهم وقرنهم، وذلك إقرارا منهم بعظم أثر المجالسة والمصاحبة على الطبع فضلاً عن الأفكار والآراء والمعتقدات.

يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسةُ الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢)، صححه الألباني في صحيح الترمذي في لفظ قريب (٢٥٠٧).

(٢) تفسير الطبري (١١/٤٣٦).

الزاهد تزهد في الدنيا فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٣).

المحرك السادس

العصبية للقبيلة والأشياخ

«حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السماوات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق»

الإمام أبو حامد الغزالي

المقصود من محرك العصبية للقبيلة والأشياخ

هو أن يكون أساس الفكرة وانطلاقها وانبعاثها تقليد الآباء والأجداد أو الانقياد والانصياع لذات الانصياع للأشياخ ومن يعلوهم في العلم والقدر.

ويشمل ذلك التقليد المذموم في المذاهب والمدارس العلمية، فكم من فكرة راجت في الفضاء الفكري كان أساسها وأصلها تحيزاً إلى مذهبٍ أو مدرسة، فتكون الفكرة أبعد ما تكون عن الجانب الموضوعي أو معيار الصواب والخطأ بقدر ما هي مقبولة لدى أشياخه أو أجواء مذهبه ومدرسته، ثم لا تسأل عن جملة من الأفكار والآراء التي تكون قرباناً يرتقي من خلالها المريد إلى شيخه أو الساعي إلى مكانته المنهجية، وحدث ولا حرج في صور حقيقة هذا المحرك وتغلغله في الأفكار والمعتقدات والآراء، والله المستعان.

والذي أعنيه بالتعصب أو التحيز هو من حيث الجهة فيكون التعصب للقبيلة مقابل الفكرة الموضوعية، ومن التعصب ما يحمله المتعصب من الاقصاء للفكرة المقابلة ومحاربتها والوقوع بصاحبها، والتحيز إلى شيخ المذهب والملة من حيث هو دون ما يقابله من الأفكار الموضوعية، ومن ذلك

التقليد المذموم المعطل للعقل والمهمش للنظر والتفكر وليس نبذه الذي يراد به تمجيد العقل والاعتماد عليه.

والتقليد الذي نحن بصدده ذلك الذي يهمش الدليل مقابل التعصب للطريقة والمذهب، وهو مغاير للتقليد المذهبي الذي جوزه العلماء فالفرق بين واضح، «**ومع هذا فلا نقول فيمن لم يصرح باعتقاد العصمة إنه يعتقدها، وإنما وقعوا فيما وقوا فيه بالتعصب ومحبة النفس، فإن أحدهم يحب نفسه حتى لا تطاوعه نفسه إلى الاعتراف بأن آباءه أو مشايخه أو أهل مذهبه أخطأوا، فلذلك تجده لا يميل إلى الاعتراف بأن إمامه أخطأ، وإن قامت الحجة عليه، بل يذهب يحرّف الحجج ويؤولها، وليس هذا بالتقليد الذي أجازه العلماء في الفروع وأنكره بعضهم، وإنما التقليد المجوَّز أن تأخذ بقول مجتهد لا تعلم حجته، ولكن قد قام عندك دليل يفيد الظن بأن قوله صواب، فإذا أُخبرت بدليل أقوى من الدليل الأول يدل على أن ذلك المجتهد أخطأ، وأن الصواب قول مجتهد آخر، لزمك أن ترجع إلى قول الآخر**»[1].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين**»[2].

والمتابع للشأن الثقافي والفاحص للأفكار في الفضاء الفكري يدرك مدى وماهية تأثير التعصب والتحيز والتقليد على الأفكار والمعتقدات، فلم يؤثر في الأفكار والآراء مثل ما أثر هذا المحرك في تشكلها وصنعها والحكم عليها.

تأثير محرك العصبية للقبيلة والأشياخ في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ويمكن من خلال ما يلي أن أوضح مدى توغل هذا المحرك في الأفكار والمعتقدات، وكيف يكون تأثيره بالغاً في الفضاء الفكري وفي الحالة العلمية:

---

(١) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٢/ ٢٢٠).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٧).

١ ـ تحذير العارفين في العلوم والأفكار من استيلاء التعصب على محط التفكير والعمل العقلي، فإن التعصب إذا اجتاح بعسكره عمل العقل حوره وغير شأنه وحاله، فلا يستقيم للعقل والفكر حال وصلاح أمر إذا غلب عليه التعصب لأي شيء للقبيلة أو للأشياخ وغيرهم.

بل إن العقل قد يكون من جنود التعصب حال استيلائه، فيظهر للرائي والقارئ أن ذلك ناتج عن العملية العقلية والذهنية المجردة، ولكن هي في حقيقتها تخدم الفكرة الأساسية للغاية من التعصب؛ ولذلك نبه العارفون في العلوم والأفكار من هذا الداء أن يكون محركا ومؤثراً على الأفكار ومتحكماً على العقل والفكر.

يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحاً: «**ولو أن امرأ نصح نفسه فأقصر عن التلبيس في الدين وإضلال المساكين المغترين، وشغل نفسه بالقرآن كلام الله تعالى وبيان رسوله ﷺ افترض الله تعالى علينا طاعته، وترك التعصب لقول فلان وفلان كان أسلم لمعاده وأبعد له من الفضيحة في العاجلة**»[١].

«**ومن الناس من ألف قولاً واعتاده وتقلده عن بعض المعظَّمين في قلبه، مثل تقلده أن الباري ليس في جهة أو أنه ليس بمتحيز أو ليس بجسم ولا جوهر أو هو جسم أو جوهر، فيكون هذا التقليد مانعاً له من أن يكون عقله صريحاً**»[٢].

٢ ـ أن التعصب والتقليد المذموم أثره في الأفكار والآراء والمعتقدات مباشرٌ لها وحاضرٌ فيها، فإن تقرير التعصب من خلال التصريح بالأفكار والآراء، فالتعبير عن التحيز إلى الآباء والأجداد أو الأشياخ هو من خلال تكرار أفكارهم والتصريح بآرائهم والدفاع عنها وعقلنتها والحفاظ عليها، فالتعصب مناطه الأفكار ومحله الآراء فلا يمكن أن يُعرف أن داء التعصب مستشرٍ في ذهن الباحث إلا بعد إدلائه بأفكاره وآرائه.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/٢١٩).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/١٥٨).

ومن جهة أخرى أن التعصب يُبعد الفكرة عن الموضوعية ويجرها إلى ساحة التحيز ومساحة التجاذبات العصبية فتُزهق روح الموضوعية في الفكرة أمام الجميع في الفضاء الفكري بسكين التعصب، فالتعصب يحمل روحاً تختلف عن الروح الموضوعية في الفكرة، ولكلٍ أبجدياته الأخلاقية والقيمية.

يعبر الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن روح المتعصب وكيف يؤثر سلباً على الأفكار، وأنه يحور بهذه الروح من الموضوعية العلمية للفكرة إلى أخلاقيات التعصب وما تستلزم هذه الروح، فيقول:

«إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لا نجحوا فيه؛ ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس»(1).

ويكرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك مؤكداً على أن التعصب يورث الأخلاقيات التي لا يصح أن يتخلق بها المسلم المصارع للأفكار في الفضاء الفكري والعلمي، فيقول: **«التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً»**(2).

٣ ـ أن التعصب والتقليد المذموم يحول بين الفكرة العلمية وبين العقل العامل، فالتعصب حجاب يحول بين التعامل الصحيح الذي ينبغي وبين العقل الواعي مع الفكرة العائمة في الفضاء الفكري، حيث إنه بمجرد جثوم التعصب

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٤٠).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٥).

على العقل فقد صنع هذا الحاجز الذي يحول بينه وبين الفكرة المقابلة.

فهذا «حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، **بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السماوات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق**»[1].

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله كيف يكون التقليد والتعصب للمذهب حائلاً وحاجزاً دون قبول الفكرة أو حتى عرضها أو البحث فيها، فيقول:

«ولذا تورد على بعض العوام مسألة عقلية جليلة فيقبلها، فإذا قلت هذا مذهب الأشعري أو الحنبلي أو المعتزلي نفر عنه إن كان يُسيء الاعتقاد فيمن نسبته إليه.

وليس هذا طبع العامي خاصةً، بل طبع أكثر العقلاء المتسمين بالعلوم إلا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه»[2].

علق الشيخ عبد الرحمن المعلمي رحمه الله على ذلك بقوله: «فأما ما ذكره الغزالي أن الإنسان قد تُذكر له مسألة عقلية جليلة فيقبلها، فإذا قيل له: هذا قول الأشعرية وكان يسيء الظن بهم نفر عنها، فقد يكون لما ذكر بأن يكون هذا الإنسان طالب علم...، **وقد يكون سمع كثيراً ممن يحسن الظن بهم يذمون الأشعرية، وقد يكون وجد آباءه وأشياخه على الاعتزال ونشأ عليه، فصار يكره أن يُنسب الغلط إلى مذهبه ومذهب آبائه وأشياخه. وهذا هو التعصب، وهو أوْخَم هذه الأمور، فلقد بلغ بكثير من الناس إلى ما يظهر منه اعتقاد العصمة في فرد من أفراد الأمة؛ فإنك تجد كثيراً من المقلدين للشافعي مثلاً لا يجوزون الخطأ عليه، فإن قيل: إنهم لا يصرحون باعتقاد العصمة. قلت: نعم، ولكن ألا تراهم كلما عُرضَ عليهم قولٌ من أقوال الشافعي اعتقدوا أنه الحق،**

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤).

(٢) المستصفى ص٤٨.

ولا يترددون فيه، ولو خال القرآن أو خالف الأحاديث الصحيحة أو خالف أكابر الصحابة، أو خالف جمهور الأمة؟ فلولا أنهم يعتقدون له العصمة لكانوا إذا بُينت لهم الحجة على خلافه خضعوا لها»[1].

يقول ابن خلدون رحمه الله عن تأثير التحيز والتعصب على استقبال الأفكار والأخبار: «**فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيّع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله»**[2].

٤ ـ أن التعصب يؤثر على ما هو أشد من الأفكار والآراء فضلاً عنها، فعلى سبيل المثال أن يقود التعصب إلى القبلية أو المذهب والملة إلى الدفاع عنه والمقاتلة دونه، بل يصل الحال والتأثير إلى أن تُزهق روح المرء في سبيل العصبية التي تحركه وينافح عنها.

كما في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**ومن قاتل تحت راية عميَّة، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل، فقتله جاهلية..**»[3]، فإذا كان التعصب يدفع المرء إلى إزهاق الروح، فمن باب أولى يحقق التأثير على الأفكار والآراء والمعتقدات.

٥ ـ واقعية تأثير التعصب على الأفكار والآراء والمعتقدات، فقد ذكر أهل العلم نماذج ممن زاغ به عقله وأحكمته عصبيته، فصار يُصدر الأحكام انطلاقاً منها، ويتناول الأدوات العقدية معتمداً عليها، وهذا حاضر في العلوم والتاريخ الإسلامي.

وفي واقعية حصول ذلك في الفضاء الفكري وفي حيز الأفكار والمعتقدات قد برع شيخ الإسلام رحمه الله في رصد عدد من أقوال الطوائف التي توارثتها أجيالهم، ومنها قوله:

---

(١) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٢/ ٢١٩).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦٦).

«فإن كثيراً من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد لرؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول الله ولا عن السلف المتقدمين»[1].

ويقول رحمه الله في موضع آخر عن هذه الحقيقة في الوقوع: **«فإن عامة الطوائف، وإن ادعوا العقليات، فجمهورهم مقلدون لرؤوسهم، فإذا رأوا الرؤوس قد تنازعوا واعترفوا بالحق، انحلت عقدة الإصرار على التقليد»**[2].

ـ من شواهد محرك العصبية للقبيلة والأشياخ وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، ما كشفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أن استعمال أهل الكلام لمصطلحاتهم، وجملة من عباراتهم ومفاهيمهم هي في حقيقتها تعصب لأئمتهم وتقليد واتباع محض لأسلافهم وأسيادهم من أهل الكلام، ومن سبقهم في المنطق اليوناني.

وأحسب أن شيخ الإسلام رحمه الله أبحر بسعي حثيث خلف أطروحات أهل الكلام غاية في تحقيق قولهم ورد زعمهم، فما إن يتجلى له الشأن والأمر في سعيه بالتنقيب عن الشبهة الكلامية المطروحة إلا ويتضح له ما يعبر عنه (**بالتقليد لأسلافهم**)، فكم من طريق علمي فلسفي سلكه ابن تيمية مقارعاً به أهل الكلام حتى يصل به إلى حقيقة هذا القول وهو التعصب لقول الأسلاف من الفلاسفة السابقين.

وفيما يلي أبرز مواضع الكشف التيمي في كتابه (درء تعارض العقل والنقل):

ـ يقول رحمه الله عن المتكلمين في الأمور الإلهية، أنهم: **«خاضوا فيها**

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٦٥٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٧٧).

بحسب أحوالهم، وقالوا فيها مقالات بعبارات طويلة مشتبهة، لعل كثيراً من أئمة المتكلمين بها لا يحصلون حقائق تلك الكلمات، ولو طالبتهم بتحقيقها لم يكن عندهم إلا الرجوع إلى تقليد أسلافهم. وهذا موجود في منطق اليونان وإلهياتهم، وكلام أهل الكلام من هذه الأمة وغيرهم، يتكلم رأس الطائفة كأرسطو مثلاً بكلام، وأمثاله من اليونان بكلام، وأبي الهذيل والنظام وأمثالهما من متكلمة أهل الإسلام بكلام، ويبقى ذلك الكلام دائراً في الأتباع، يدرسونه كما يدرس المؤمنون كلام الله، وأكثر من يتكلم به لا يفهمه»[1].

ـ ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ عن تقليديات أهل الكلام: «**وهكذا الفلاسفة تجد أحدهم إذا سمع أئمته يقولون: الصفات الذاتية والعرضية والمقوم والمقسم والمادة والهيولي، والتركيب من الكم والكيف، وأنواع ذلك من العبارات، عظمها قبل أن يتصور معانيها، ثم إذا طلب معرفتها لم يكن عنه في كثير منها إلا التقليد لهم. ولهذا كلن فيها من الكلام الباطل المقرون بالحق ما شاء الله، ويسمونها عقليات، وإنما هس عندهم تقليديات، قلدوا فيها ناساً يعلمون أنهم ليسوا معصومين، إذا بين لأحدهم فسادها لم يكن عنده ما يدفه ذلك، بل ينفي تعظيمه المطلق لرؤوس تلك المقالة، ثم يعارض ما تبين لعقله فيقول: كيف يظن بأرسطو وابن سينا وأبي الهذيل، أو أبي علي الجبائي ونحو هؤلاء أن يخفي عليه مثل هذا؟**»[2].

ـ ويحكي شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ملاذهم وطوق نجاتهم حال محاجتهم إلى التقليد مع ادعائهم التزامهم بطريق العقليات أول مناظرتهم، فيقول: «**وهذا القدر قد تبينته من الطوائف المخالفين للكتاب والسنة ـ ولو في أدنى شيء ممن رأيت كتبهم، وممن خاطبتهم، وممن بلغني أخبارهم ـ إذا أقيمت على أحدهم الحجة العقلية التي يجب على طريقته قبولها، ولم يجد له ما يدفعها به، فر إلى التقليد، ولجأ إلى قول شيوخه، وقد كان في أول الأمر يدعوا إلى**

---

(١) (٥/٣١٥).

(٢) (٥/٣١٦).

النظر والمناظرة والاعتصام بالعقليات، والإعراض عن الشرعيات، ثم إنه في آخر الأمر لا حصل له علم من الشرعيات ولا من العقليات»[1].

ـ ويذكر كذلك شيخ الإسلام نهايات ولوجهم الكلام، فيقول: «**من كان منهم فاضلاً ذكياً قد عرف نهايات أقدامهم كان في حيرة وشك، ومن كان منهم لم يصل إلى الغاية كان مقلداً لهؤلاء، فهو يدع تقليد النبي المعصوم وإجماع المؤمنين المعصوم، ويقلد رؤوس الكلام المخالف للكتاب والسنة، الذين هم في شك وحيرة»**[2].

ـ وبذلك لخص ابن تيمية رحمه الله هذه الحقيقة المنسوبة إلى الخبرة الحاصلة له بقوله: «**ومن كان له خبرة بحقيقة هذا الباب تبين له أن جميع المقدمات العقلية التي ترجع إليها براهين المعارضين للنصوص النبوية، إنما ترجع إلى تقليد منهم لأسلافهم، لا إلى ما يعلم بضرورة العقل ولا إلى فطرة»**[3].

(١) (٥/٣١٧).

(٢) (٧/٢٨٣).

(٣) (٤/٢٧٩).

الاعتبار الشرعي لمحرك العصبية للقبيلة والأشياخ

لقد أولت الشريعة الإسلامية للتعصب القبلي والمشيخي أهمية في كونه حائلاً بين الحق وبين المخاطب، وجاء القرآن الكريم والسنة النبوية ليؤكدا مدى تأثير وتغلغل هذا المحرك في الفضاء العقدي والفكري، وأن باستطاعته أن يصنع الأفكار ويصدّر العقائد والآراء ليس لأنها كذلك بقدر كونها ثمرة من ثمرات التعصب سواءً للقبيلة أو لشيخ النحلة والملة.

ويمكن أن أبين ذلك من خلال ما يلي من الجوانب الشرعية:

١ ـ التقرير الشرعي أن جملة من الأفكار المناوئة للإسلام محركها هو التعصب للقبيلة والأشياخ، فقد ذم الله تعالى في القرآن الكريم من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه وأجداده، وقد بين الله ﷻ نماذج أمم سالفة جعلت من التعصب لما كان عليه آباءهم ورؤساءهم وسادتهم حائلاً بينهم وبين اتباع الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المَائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يُونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبيَاء: ٥٢ ـ ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزَاب: ٦٧].

«**ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛** لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلاً فكفر وقلد آخر

فأذنب وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يُشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه»[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلي وحب الغلاة لشيوخهم وأئمتهم، مثل من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو مستويان في الرتبة، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد، الذين يوالون بعض الشيوخ والأئمة دون بعض، وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان**»[2].

٢ ـ التحذير الشرعي المتكرر من أن يعتري المؤمن هذا الأمر فيتشكل فيه هذا المحرك، فالتراث الشرعي يعج بالتحذير من التقليد والتعصب للعالم وللآباء والأجداد، والتحذير جاء متكرر في وجوه متعددة، ولكن كلها جاءت لغاية حفظ الدين والعلم في نفس المؤمن من أن ينقص أو يعارض شيئاً لم يأمر به الله ﷻ أو أن يفعل شيئاً نهى عنه في كتابه العزيز وسنة رسوله ﷺ المطهرة.

«**وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة؛ فقال الشافعي: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري**»[3].

٣ ـ أن التعصب من الدعاوى الجاهلية التي جاء الإسلام لنبذها والنهي عنها، فلم يجعلها الإسلام في محل الذم والتحذير إلا لأن تأثيرها بالغ الوقوع على المعتقدات والأفكار، وحيث إنها قديمة الداء في عقول وأفهام الأمم السالفة، وأنها من ضمن الحجج الجاهلية التي كانت مهيمنةً على عقول العرب

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢/ ١٣٢).

(٢) مجوع الفتاوى (١١/ ٥٢٥).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٢/ ١٣٩).

آنذاك، لما لها من سطوة التأثير وقوة المحجة على أصحابها كما يزعمون أو كما يخيل إليهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فصل الألفاظ التي كان رسول الله ﷺ يكره أن تقال: «**ومنها: الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزي بعزائهم، كالدعاء إلى القبائل والعصبية لها وللأنساب، ومثله التعصب للمذاهب والطرائق، والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسباً إليه، فيدعو إلى ذلك ويُوالي عليه، ويُعادي عليه، ويزن الناس به، كل هذا من دعوى الجاهلية**»(١).

ومن ذلك ما قررته الشريعة الإسلامية من المساواة بين الناس، وعدم الاعتراف لهم بالامتيازات الطبقية أو النفوذ الموروث أو النسب المكتسب، فأساس التفاضل بين العباد هو التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وفي تقرير من النبي ﷺ بالحد من تغلغل العصبية والطبقية في النسب وتجاوزها إلى الأفكار والمعتقد فيما روته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**»، ثم قام فاختطب، فقال: «**أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(٢).

ومن الأمور التي أخبر رسول الله ﷺ عنها وأنها من خصال الجاهلية، وأنها ستظل في أمته ﷺ، ولا يدعها أهل الإسلام؛ منها التفاخر بالأحساب،

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٤٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

والطعن في الأنساب، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية؛ لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1]

٤ ـ التوجيه الشرعي للاجتماع والائتلاف والتحذير من الفرقة والاختلاف، فقد أكدت الشريعة الإسلامية في غير موضع على أهمية الاجتماع ونبذ التفرق حيث يدعو ذلك إلى التعصب والعصبية، فمقتضى العصبية هو الفرقة والتشرذم والذي هو نتيجتها، فتأكيد الشريعة الإسلامية على الوصول لذلك هو سعيٌ للحد من تأثير التعصب على الأفكار الإسلامية والأحكام الشرعية وكيان المجتمع المسلم. **قال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢ ـ ١٠٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف...، فأئمة الذين هم على منهاج الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين، وإن تنازعوا في بعض فروع الشريعة في الطهارة، أو الصلاة، أو الحج، أو الطلاق، أو الفرائض، أو غير ذلك فإجماعهم حجة قاطعة.**

ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين. كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة. وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون. . .

فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبهٌ من هؤلاء، سواءٌ تعصب لمالك، أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١٠٨/٢).

المحرك السابع

الفقر

«الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا فدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر»

الإمام أبو حامد الغزالي

المقصود من محرك الفقر

هو أن تكون الفكرة أساسها وأصلها منطلق من الفقر والعوز والمسكنة، سواءٌ على المستوى الفردي أم المجتمعي العام.

فيكون الطابع العام هو الفقر الذي يدفع بالأفكار المنعدمة في أجواء الرغد والرخاء للخروج، وكذلك حالة الفقر الفردية قد تدفع المرء إلى قناعاتٍ وأفكارٍ لا تتنامى به حال غناه ورخائه، وعليه فالفقر في هذا السياق هو المحرك لهذه الأفكار والآراء وليس سبباً آخر، وهذا يختلف عن أن يطلب المرء استرزاق يومه أو يسعى في إشباع طمعه ـ كما سأبين في المبحثين التاليين ـ.

فكم من فكرة يظن الظان بها أنها موضوعية متجردة عن الأسباب الجانبية لها والخارجية عنها، لكنه ما يلبث إلا أن ينكشف له أن فقر صاحبها وعوزه هو الذي دفعه إلى هذه الفكرة والتصريح بها أو الدفاع عنها، وكم دفع الفقر بأصحابه إلى أفكارٍ هي أبعد ما تكون عنهم لولا أن الفقر انتهى بهم إلى ذلك.

والفاحص للمؤثرات الخارجة عن الأفكار والآراء والمعتقدات من

الصعب أن يجعل من الفقر والحاجة والعوز عند الشخص أو المجتمع موضعاً هامشياً ليس له نتيجة على الأفكار، أو أنه شيء له قيمته الاقتصادية أو المالية فقط دون تأثيراته الفكرية والعقدية في الذهن لدى الفرد أو في الفضاء الفكري والثقافي العام في المجتمع.

تأثير محرك الفقر في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

وللتأكيد على تحقق الفقر في كونه من الدوافع الفكرية والتي تكون خلف الفكرة وتدفع بها إلى الفضاء الفكري والثقافي، ومدى تأثير هذا المحرك في الأفكار والآراء، أبين ما يلي من الجوانب:

١ ـ من طبيعة الإنسان أن يتأثر بمن حوله من الظروف والأحوال خاصة ما يمس الشيء الضروري في حياته، فتأثير الفقر على الإنسان هو جزء لا يتجزأ من إنسانية الإنسان وطبيعة حاله، وأن من غير الطبيعي أن تكون جبلة الإنسان أن يجعل من الفقر أو الغنى أمراً ثانوياً ليس له علاقة وتأثيراً على حياته وشأنه.

يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر، وأشدها كلها إيلاماً للنفس الهم للفقد من المحبوب وتوقع المكروه، ثم المرض، ثم الخوف، ثم الفقر. ودليل ذلك أن الفقر يستعجل ليطرد به الخوف، فيبذل المرء ماله كله ليأمن، والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما ألم المرض، فيغرر الإنسان في طلب الصحة ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت ويود عند يقينه به بو بذل ماله كله ويسلم ويفيق..**»[1].

٢ ـ أن حالة الفقر تأخذ حيزاً ذهنياً في محاولة تجاوزها، فكما هو معلوم ومشاهد أن الفقير يستحكم عقله ويستولي على تفكيره هاجس تجاوز هذا الفقر والخروج منه، ويستغرق همه في ذلك، فكما أن الفقير يستهلك وقته وجهده الجسدي تسخيراً لفك عوزه، فهو يستهلك جهده الذهني والفكري في هذا التسخير الأكبر بالنسبة له.

---

(١) رسائل ابن حزم (١/ ٤٠٣ وما بعدها).

وهذه الحالة في الاستغراق اللحظي للذهن وطغيان الهاجس الأكبر عليه من الصعب أن ينكر أحدنا مدى تأثيرها على الأفكار والآراء، أو العملية الذهنية المنتجة للأفكار والمعتقدات.

فالإنسان له حيز ذهني محدد كلما امتلأ هذا الحيز بما يشغله ويستملئ فيه جهده وعملية تفكيره، أثناه ذلك عن أن يعمل هذا الحيز الذهني المنتج للأفكار على غير ما استفرغ لأجله، فضلاً عن التشويش الذهني الحاصل له حال محاولته في مجاوزة الفقر والفاقة، وفي المواكبة بين هاجسه الأكبر وبين أفكار وآراء أخرى خارج ما يشغله ويهم فيه.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا فدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر**»[1]

٣ ـ أن المجتمعات التي ذاع وانتشر فيها الفقر والعوز أسوء حالاً من المجتمعات التي قل فيها الفقر من الناحية الفكرية، فالقارئ للتاريخ البشري يدرك أن المجتمعات التي انتشر فيها الفقر والعوز كان الجوع والفاقة وقلة الثمار وخيرات الأرض مصطحب لحالها، ولذلك أثره على العطاء العلمي والفضاء الفكري العام لهذا المجتمع الذي يعتريه مثل هذه الأمراض والأسقام الحضارية، والتي بلا شك لها تأثيرها واعتبارها بين المجتمعات، والشعوب، والدول، والأفراد.

٤ ـ إذا كان تأثير الفقر وحاله على الإنسان والمجتمع في أمور أعظم من الأفكار والذهنيات فمن باب أولى تأثيره على الأفكار والمعتقدات، فكما هو معلوم لمن درس ظاهرة الفقر في المجتمعات البشرية على الصعيد الشخصي أو المجتمعي العام، بأن للفقر تأثير على جسم الإنسان من ناحية العلاج والصحة وسلامة الأجساد والأرواح والأفئدة هذا على الصعيد الشخصي لذات الإنسان.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٠٥).

وأما على الصعيد الاجتماعي والمجتمعي العام فمن الصعب جداً تصور كون دولة أو مجتمع من المجتمعات يعلوه الفقر ويضرب في زواياه العوز وهو في الهرم من أعلى سلالم الدول والمجتمعات الحضارية، فالتخلف الحضاري أحد الآثار الناجمة عن ضلوع ظاهرة الفقر في المجتمع.

«فالتخلف والفقر صنوان، هذه حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها، إذا وضعناها في سياق منطقي قلنا: إن التخلف في أي مجتمع من المجتمعات يؤدي حتماً إلى فقره، ومعيار التخلف والفقر لا يعد بكل تأكيد مجرد قياس مستوى دخل الفرد..»[(١)].

فإذا كان للفقر تأثيره على الحضارات والأمم والشعوب والمجتمعات بالوجه العام، وبالوجه الخاص على الأجساد والغذاء والدواء والأرواح فمن باب أولى تأثيره على ما دون ذلك من الأفكار والآراء.

من شواهد محرك الفقر وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

من أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هو نموذج الصنف المستحق للزكاة (المؤلفة قلوبهم) حيث إن العنصر الاقتصادي والمالي متحقق فيهم، في مقابل الجانب الآخر في الاستمالة إلى الأفكار الشرعية والعقيدة الإسلامية.

ويمكن أن أبين تفصيل النماذج من خلال ما يلي:

ـ «بعث علي رضي الله عنه، إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش، والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: إنما أتألفهم. فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوق، فقال:

---

(١) أمراض الفقر (المشكلات الصحية في العالم الثالث)، تأليف: الدكتور: فيليب عطية، الناشر: عالم المعرفة، المجلس الوطني للقافة والفنون والآداب ـ الكويت. (١٦١)، الطبعة الأولى: ١٩٩٢م. ص٨.

اتق الله يا محمد، فقال: من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني فسأله رجل قتله، ـ أحسبه خالد بن الوليد ـ فمنعه، فلما ولى قال: إن من ضئضئ هذا، أو: في عقب هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[1].

ـ «أعطى رسول الله ﷺ أباسفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مئة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس: أتجعل نهبي ونهب العبيد... بين عيينة والأقرع فما كان بدر ولا حابس... يفوقان مرداس في المجمع وما كنت دون امرئ منهما... ومن تخفض اليوم لا يرفع قال: فأتم له رسول الله ﷺ مئة»[2].

ـ «أن رجلا سأل النبي ﷺ غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[3].

ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمؤلفة قلوبهم نوعان: كافر ومسلم. فالكافر: إما أن يرجى بعطيته منفعة: كإسلامه؛ أو دفع مضرته إذا لم يندفع إلا بذلك. والمسلم المطاع يرجى. بعطيته المنفعة أيضا كحسن إسلامه. أو إسلام نظيره أو جباية المال ممن لا يعطيه إلا لخوف أو النكاية في العدو. أو كف ضرره عن المسلمين إذا لم ينكف إلا بذلك.

وهذا النوع من العطاء وإن كان ظاهره إعطاء الرؤساء وترك الضعفاء كما يفعل الملوك؛ فالأعمال بالنيات؛ فإذا كان القصد بذلك مصلحة الدين وأهله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣١٢).

كان من جنس عطاء النبي ﷺ وخلفائه وإن كان المقصود العلو في الأرض والفساد كان من جنس عطاء فرعون؛ وإنما ينكره ذوو الدين الفاسد كذي الخويصرة الذي أنكره على النبي ﷺ حتى قال فيه ما قال»[1].

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩٠).

الاعتبار الشرعي لمحرك الفقر

لقد أولت الشريعة الإسلامية شأن الفقر وحال الفقير أولوية في الخطاب الشرعي في القرآن والسنة، وذلك من خلال اعتبارات متعددة ومتنوعة، ومن يبحث في اهتمام الشريعة الإسلامية لملف الفقر كمادة والفقراء كأشخاص يجد مدى إدراك أن الفقر له تأثيره على الأفكار والمعتقدات والآراء العقلية.

ويمكن أن أبين هذا الاعتبار الشرعي لمكانة وموضع الفقر في الخريطة الذهنية المنتجة للأفكار والمعتقدات والآراء من خلال ما يلي:

١ ـ السعي الشرعي في معالجة ملف الفقر في المجتمع الإسلامي، فحين يرى الباحث المعالجة الشرعية لمسألة الفقر وكونها ليست بالقضية الهامشية في المجتمع، يدرك مدى الاعتبار الشرعي في تأثير هذا الملف والقضية على أفراد هذا المجتمع.

ومتى قل الفقر بين أفراد المجتمع أصبح حال الأفكار فيه والتزام أصحابها بها أوثق من حال عوزه وفاقته.

ويمكن فيما يلي أن أعرض أبرز الجوانب التشريعية والإجرائية في المعالجة النبوية لمشكلة الفقر في المدينة المنورة:

ـ مبدأ المؤاخاة المجتمعية بين المهاجرين والأنصار، فالتقرير الشرعي لمبدأ مناصفة الأموال بين فقط من يجمعهم منطلق المعتقد ومن يلتقون في دائرة الإسلام، هو اعتبارٌ مهم وملمح ضروري في حفظ هذه الدائرة والكينونة بين أصحابه، فمن ضمن الحفاظ على الأفكار الإسلامية هو الحفاظ على شأن وحال أفراده المنتمين له، ومن ذلك جاء هذا المبدأ الشرعي في تقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ولذلك امتدحهم الله من فوق سبع سماوات على هذه الخطوة المباركة منهم، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وجاء فيما روي عن النبي ﷺ أنه (**قالت الأنصار: اقسمْ بيننا وبين إخواننا النخيل؟ قال: لا؛ قالوا: أفتكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا**)[1].

ـ **تكوين الملجأ الاقتصادي المتمثل في (أهل الصفة)**، وهو أن النبي ﷺ جعل بقعة في أرض المدينة وهي مسجده ﷺ للفقراء المهاجرين الذين لم يجدوا ما ينزلون إليه من البيوتات والمنازل كي يأكلوا من أكلهم وينامون في مكانهم، فوجود مكان يلجأ إليه الفقير في الدائرة الإسلامية حتى يجد ما يؤويه ويأكله وما يجود عليه المسلمون من الصدقات لا شك أن في ذلك مواساةً وصوراً للأخوة الإسلامية التي لا يجمع بينها وبين أفرادها سوى أفكار وأحكام وتشريع[2].

ـ **التقرير التشريعي في الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وترد إلى الفقراء في ذات المجتمع**، حيث إن هذا التقرير التشريعي في البيئة الجاهلية وبين العرب انتشر صداح في ذلك الوقت، وكان أيقونة للعدل وتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والتي لفتت انتباه القبائل والعشائر حول رسول الله ﷺ وإلى أحكامه وتشريعه.

كما جاء في الحديث عن ذلك الأعرابي الذي جاء مستفهماً عن المبدأ التشريعي في أركان الإسلام والتي دفعته إلى الإسلام واللحاق برسول الله ﷺ، فقد روي عن النبي ﷺ: «**إن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ بالله الذي أرسلك آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتُقسمها على فقرائنا؟ قال ﷺ: «نعم»**»[3].

٢ ـ التقرير الشرعي لتأثير الفقر على الأفكار والآراء والمعتقدات، فالباحث في النصوص الشرعية يجد جملة من الاستنباطات التي يتحصل بها وعلى ضوئها أن الشريعة الإسلامية بتقريرها لبعض الأحكام الشرعية وتكريسها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيح، تأليف: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة السادسة: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، (١/٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢).

لجملة من المفاهيم والتصورات ـ التي لابد وأن تتشكل في الذهنية المسلمة ـ أقرت بأن الفقر له تأثيره السلوكي والنفسي على الأفكار والمعتقدات. ويمكن بيان موطن هذه الاستنباطات فيما يلي:

ـ **البيان الشرعي في تلويح الشيطان بعامل الفقر أمام المؤمن**، فقد جاءت النصوص الشرعية لتوضح استغلال الشيطان في المعركة الفكرية والعقائدية بين الحق والباطل الذي معه لملف الفقر والحاجة والعوز، وكيف أنه من ضمن المحاولات الشيطانية الخاسرة أنه يجعل من الفقر وسيلة للتأثير على المؤمن في أفكاره وعقيدته وقوة إيمانه بربه، وأن الله ﷻ قابل هذا المكر والكيد الشيطاني الفكري بأنه ﷻ لديه الفضل وأنه هو واسعٌ عليم.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٢٦٨﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨]. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**معناه يخوفكم الفقر، أي بالفقر لئلا تنفقوا...، وأن الشيطان له مدخل في التثبيط للإنسان عن الإنفاق في سبيل الله**»[١].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإن أحدهم يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعيا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك، حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه..**»[٢].

ـ **النهي عن الأثر الفكري لحالة الفقر**، فالاعتبار الشرعي لحالة الفقر وما تثمر من تصورات ومفاهيم جاء من حيث النهي المباشر عن فكرة ازدراء واحتقار ما قسمه الله من الرزق للعبد والنعمة التي هي بين يديه في حال فقره.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/٣٢٨).

(٢) تفسير القرآن الكريم لابن القيم، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ. ص١٧٠ وما بعدها.

ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[1].

ومن ذلك الفكرة المفجعة والتي قد تجم وتأتي من وقوع حالة الفقر، وهي التي تقوم على التخلص من الولد مخافة زيادة الفقر وحالته على الأب، ولذلك جاء التحذير الشديد في الشريعة على هذا الأثر الفكري الخطير للفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١]، وجاء عن النبي ﷺ أنه سئل: «يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟» قال ﷺ: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» «قلت: ثم أيٌّ؟» قال ﷺ: «أن تَقتلَ ولدكَ خشيةِ أن يأكل معك» «قلت: ثم أيٌّ؟» قال: «أن تُزاني حليلة جارك» «وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾»[2] [الفُرقان: ٦٨].

ـ **التوضيح الشرعي أن الغنى غنى النفس لا المال،** فالتصحيح المفاهيمي الشرعي لمدلول الفقر والغنى له بُعده في اعتبار النتائج من جراء هذا التصحيح، فالغنى النفسي في حال الفقر يقلل النتائج السلبية على الذهن والعقل في توليد الأفكار الناجمة من حالة الفقر والفاقة، ولذلك حين تغتني النفس وإن كان صاحبها فقير يكون ذهنه وحاله العقلي أدعى لصوابية الأفكار منه إلى الفقير المفتقر نفساً وحالا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس**»[3].

ومن ذلك الأحاديث الواردة في مراعاة الحالة النفسية التي تعتري الفقير من الانكسار والمسكنة، ومحاولة التخفيف عنه بالأمر بالصبر على القضاء والقدر، وكذلك ما روي عن النبي ﷺ من تخصيص الفقراء ببعض البشارات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠١)، ومسلم (٨٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

المؤنسة لهم ولجبر خواطرهم، ومراعاة لنفوسهم، فمنها ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء..**» الحديث[1].

ومن ذلك ما أوضحه النبي ﷺ للحد من نشوء الانحرافات الفكرية، فالحكمة تقتضي تحقيق العدل في الأحكام الشرعية بين المكلفين، والتي تأتي نتيجة لحالة الفقر التي طالت بعض صحابته ﷺ، فإيجاد النبي ﷺ البديل التكليفي للفقير عن العطاء والصدقة ونيل ثوابهما هو ذاته اعتبارٌ للآثار المفاهيمية للفقر.

فقد جاء في الحديث أنه: «**جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العُلا، والنعيم المقيم، يُصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموالٍ يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون، قال ﷺ: «ألا أحدثكم إن أخذتم أدركتم من سبقكم ولم يُدرككم أحدٌ بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله، تسبحون وتحمدون وتُكبرون خلف كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين»**»[2].

وفي الحديث الآخر المروي عنه ﷺ قال في معالجة هذه المفاضلة والمقارنة في نيل الثواب والأجر: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عيه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[3].

٣ ـ تأليف النبي ﷺ قلوب المعتبرين للمال إلى الدين الإسلامي، وهذا من أعظم الشواهد والنماذج الشرعية في أن المال له تأثيره في الأفكار والمعتقدات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٠٦).

حيث إنه ﷺ جعل من المساعي التي يصل إليها استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من خلال العطاء والإحسان المالي، فعنه ﷺ: أنه (**غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، قال صفوان: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي**)[1].

قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: «**ونبينا كان يُعطي المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان، وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام، فيحبوا الله. فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله** ﷻ، وصرفها عن ضد ذلك، ولهذا كان يعطي أقواماً خشية أن يكبهم الله على وجوههم في النار، فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله»[2].

٤ ـ الأحكام الشريعة المرتبطة بتجاوز حالة الفقر، فمن الجوانب والتي تبين اعتبار الشريعة الإسلامية لطبيعة حال الفقير وما يلزمه من الأحكام والواجبات، هي أن الشريعة لم تقرر بعض الأحكام الشرعية إلا بعد انتفاء وصف الفقر والعوز والفاقة عن المكلف، فإذا كان التشريع الإسلامي اعتبر بأحكامه الفقر فدفعها إلى عدم إلزام المكلف أو استحقاقها عليه، فكيف

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣١٣).

(٢) الزهد والورع والعبادة، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: حماد سلامة، ومحمد عويضة، الناشر: مكتبة المنار ـ الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ، (٤٦/١).

بالعملية الفكرية والتي ترتبط بالمكلف وتأثيره على أفكاره وتصوراته، ومن جملة هذه الأحكام الشرعية المعتبرة:

- **استحضار عامل الاستطاعة بأنواعها في فريضة الحج**، فمن المعلوم بالضرورة الشرعية أن الفقير الذي لا يملك المال في السعي إلى حجة الإسلام له فإنه يسقط عنه التكليف الشرعي في وجوب الحج إلى بيت الله العتيق، وفي ذلك مراعاة للحالة التي يمر بها الفقير في أعظم ركن من أركان الإسلام فما بال ما هو أقل من ذلك شأناً سواءً من الدائرة التشريعية أو خارجها في أثر الفقر على الأفكار والأحكام والآراء.

- **استحقاق الفقير للزكاة والصدقة فضلاً عن وجوبها ووقوعها عليه**، فتأثير الحالة التي تمر على الفقير في تكاليفه الشرعية جزء لا يتجزأ من التأثير، ومن الاعتبار الشرعي ومراعاته لمحرك الفقر، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ لمعاذ يوم أرسله إلى اليمن: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[1].

- **اعتبار القدرة في الزواج ومنها القدرة المالية**، في توفير الالتزامات الزوجية من توفير المسكن والمأكل والمشرب وغير ذلك، حيث إن الاعتبار الشرعي قد استحضر هذا المكون في استحقاق الزواج على الشاب وفي المعالجة الشرعية له، قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**»[2].

٥ ـ استحضار النبي ﷺ اعتبار تأثير الفقر على الأفكار والمعتقد، فالمتتبع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠).

لهدي النبي ﷺ في توزيعه للأعطيات أو الغاية من ذلك يجد أن النبي ﷺ يدرك مدى تأثير العطاء المالي على الأفكار والمعتقدات، كما ذُكر في استمالته قلوب من يجد في أنفسهم حاجة ورغبة إلى ذلك.

ومن الاعتبار النبوي لتأثير هذا المحرك في العقول والأفئدة أن جعله مقابلاً للمعتقد والإيمان، وذلك فيما روي عنه ﷺ أنه:

«أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظلعهم وجَزَعهم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخبر والغنى»، منهم عمرو بن تغلب، فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم»[1].

وكذلك حيث شرح مشهد المدافعة لفكرة العطاء والصدقة في ذهن صاحبها، وكيف يكون الفقر محرك لفكرة رفض الصدقة، ففي الحديث أنه **«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان»**[2].

٦ ـ استعاذة النبي ﷺ من الفقر في الأدعية المأثورة عنه ﷺ، فخطر الشيء على الفكر والمعتقد، وقوة ومدى تأثيره على الأفكار والمعتقدات يكمن في تسميته الشرعية أنه فتنة ويُستعاذ منه.

ففي الحديث «أن النبي ﷺ كان يتعوذ: **«اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ومن عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٧٦).

المحرك الثامن

الاسترزاق المعيشي

في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»

المقصود من محرك الاسترزاق المعيشي

هو أن يكون أصل الفكرة والرأي ومنشأهما يقوم على طلب الرزق من صاحب الفكرة والرأي لغاية العيش وتحسين الحال.

فالمحرك يقوم على طلب المال للعيش، كأن يكون هذا الرأي أو الفكرة في مكانة الوظيفة في مصطلح الحوكمة المعاصرة، فيخرج من ذلك أن يكون فقيراً أو أن يكون ذلك محركه الجشع والطمع في ازدياد ومضاعفة رزقه وقوت يومه، فكم من الأفكار كانت قرابين تقدم عوضاً عن السير الذاتية ومعايير الكفاءة، وكم من الآراء كانت جسراً يصل صاحبها عابراً إلى مكانته الوظيفية، وكم من فكرة ضمرت وغابت بسبب سعي الناس عنها إلى طلب أرزاقهم.

فلا يخفى على المطالع في التاريخ الإنساني والإسلامي في الأجواء الثقافية العامة ظهور أناسٍ يقتاتون على فتات الأفكار وما يروج منها، خاصة أنه من سنة الحياة أن يسعى الإنسان إلى رزقه ويطلبه في مظانه، والحاصل أن يكون ذلك الدأب والسلوك المعيشي للإنسان يدفع به إلى أفكارٍ لولاه لما حمل لواءها أو صرح بها، **فهذا هو المراد والمقصود من محرك (الاسترزاق المعيشي)**.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**فالعبد لا بد له من رزق وهو محتاج**

إلى ذلك فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا إليه وإذا طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا إليه ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة»[1].

وفي توضيح المراد والمقصود أكثر كان ولابد من بيان أوجه التأثير بين طلب الإنسان رزقه وسعيه في الأرض لتحقيق ذلك وبين الأفكار والمعتقدات والآراء التي يعتنقها أو التي في الفضاء المجتمعي العام الذي يعيشه.

تأثير محرك الاسترزاق المعيشي في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ولبيان هذا التأثير ومراتبه وكيف يصل إلى أن يكون محركا نحو الفكرة المصرحة بها أوضح ما يلي من جوانب التأثير والصلة بين الاسترزاق المعيشي وبين الأفكار والمعتقدات والآراء على كافة الأصعدة:

١ ـ أن طلب الرزق محتومٌ في أبجديات الحياة والعيش، فهي من الضرورات البشرية في الوقت المعاصر حيث إن المرء من الصعب أن يقتات من دون أي خطوات يقوم بها، فالسماء لا تمطر ذهباً؛ وعلى ذلك فإن السعي وراء الرزق والقيام بطلبه أمرٌ حتمي وخطوة ضرورية لا بد منها.

فإذا كان العيش لا يستقيم إلا بالرزق، وإذا تم اعتبارها ضرورة حياتية لا يمكن للشخص أن يتجاوزها أو يتغاضى عنها أو يُهمل مرتبتها، كان ولا بد من الاختلال المعيشي بفقدها أو الإخفاق بالوصول إليها وتحقيقها، ومن المقتضيات البديهية في الاختلال المعيشي الاختلال في المنظومة المفاهيمية والفكرية والثقافية ما لم تنشأ الأسباب والمحددات التي تحد من تنامي هذا الاختلال الثقافي جراء الاختلال المعيشي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا بد لكل مخلوق من الرزق..، حتى إن ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الرزق فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ويرزقون رزقا حسنا وقد لا يرزقون إلا بتكلف وأهل التقوى**

(١) العبودية ص٨٢.

يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ولا يكون خبيثا والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به وإحسانا إليه؛ فإن توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه وتقديره يكون رحمة لصاحبه»[1].

٢ ـ تفضيل الاسترزاق الحر عن الاسترزاق المقيد في الطبيعة الإنسانية، ووجه ذلك في التأثير على المنظومات الثقافية أو الأفكار والتصورات والآراء هو أنه إذا كان الإنسان بطبيعته وكما هو معلوم يتطلع إلى الحرية في عمله وحياته، ومن ذلك تطلعه إلى أن يطلب رزقه ويناله من ذات الطريق في ألا يكون عليه من الوصاية المقيدة لأفعاله وتصرفاته، وعلى ذلك يفضل الإنسان ـ في الجملة ـ أن يختار الحرية في الاسترزاق ونيل أجره وقوته، عن العمل المقيد في هذا الأمر؛ فإذا كان هذا التأثير خارجاً عن الأطر الاقتصادية والمالية إلى مفاهيم أقرب إلى الأفكار والأطر الثقافية كالحرية والعدالة والاستقلال وغيرها كانت تلك هي البوابة التي يؤثر فيها سعي الإنسان وطلبه للرزق في حياته وهو يحمل بطبيعته وبين جنباته كماً من المفاهيم والتصورات.

٣ ـ أن الحالة التي عليها يقوم الاسترزاق أو الطريق الذي يسير فيه الطالب للرزق مؤثرٌ عليه بطبيعة الحال، فلا يستوي الأمر بين من كان طريقه في طلب رزقه لا يبذل فيه الصعاب ولا يواجه فيه المشاق وإنما هو في طريق منال وغدق، وبين من هو في سعيه يحمل من المشقة والجلد وتجاوز الصعاب ما يصعب على من هذه حاله أن ينعم برخاء فكرٍ أو إسهاب تعلم أو مدارسة أو غير ذلك من المؤثرات على الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية.

ناهيك عن أن الإنسان يتأثر ـ كما سبق بيانه ـ في فكره وحال عقله بشأن شعوره، وكون أن وعورة طريق الكسب والرزق سريع وعميقٌ في التأثير على شعور سالكه فإنه يتحتم بذلك تأثيره على الأفكار والآراء.

٤ ـ أن القعود عن طلب الرزق والبطالة تعد من أخطر الظواهر تأثيراً

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣).

على المجتمعات المعاصرة، فالمتأمل في الدول والمجتمعات المعاصرة يدرك قيمة هذا الملف وخطورة تناميه وتطوره وانتشاره بين فئات المجتمع، وما كان هذا التخوف يعمر التصورات إلا لأن التأثير الذي يتركه في المجتمع ليس بالأمر السهل، فمن الصعب أن يغض الطرف عن آثار البطالة في أفراد أي مجتمع، حتى وإن كان اقتصاده قوياً ومتعافياً.

فإذا كانت البطالة لها تأثيرها على الدوائر الصلبة والصعبة كالجانب الأمني أو المتعلق بالأرواح فكيف هو الحال بما نحن بصدده في دوائر الفكر والأفكار في الفضاء الثقافي، حيث «**تعد البطالة واحدةً من أخطر المشاكل التي تواجه معظم دول العالم، ولا سيما الدولة النامية، وهي بمثابة أخطبوط يشكل تهديداً واضحاً للاستقرار الاجتماعي، والاقتصادي، والأمني.**

لذلك تشير البيانات المتوافرة عن اقتصاديات الدول الصناعية المتقدمة، والتي تضم دول أوربا الغربية والولايات المتحدة وكندا واليابان؛ أن البطالة أصبحت واحدةً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي أخذت تتبوأ رأس قائمة الأولويات في مجال رسم السياسات الاقتصادية»[(١)].

من شواهد محرك الاسترزاق المعيشي وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

من أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هي التجربة الشرعية في التاريخ الإسلامي لتأسيس ما يصرف لمنفعة الوقف من حمل المؤونة المالية عن المهتمين في العلم الشرعي وتخصيص الأوقاف لكفالة طلاب العلم.

فالنموذج الشرعي في تفريغ طالب العلم والمهتم في العلم الشرعي والمتمثل في الأوقاف الشرعية هو من أوثق الشواهد للسعي في تكريس

---

(١) مشكلة البطالة وعلاجها، (دراسة مقارنة بين الفقه والقانون)، تأليف: جمال حسن أحمد عيسى السراحنة، تحقيق ومراجعة: أحمد خليل جمعة، يوسف علي بديوي، الناشر: اليمامة للطباعة والنشر ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، ص١٩ وما بعدها.

الأفكار الشرعية والعقيدة الإسلامية في القلوب المؤمنة وفي فضاء الأمة الإسلامية، ولو لم يعلم أصحاب الأوقاف أهمية تفرغ الطالب للعلم والناشد له وكفاية همه في الاسترزاق لم يكن لهذه النماذج في التاريخ الإسلامي حضور وتكرار عبر العصور والحقب التاريخية، ولو لم يعلموا عن آثار ذلك على المستوى الشخصي للمتعلم والصعيد العام في الأجواء الثقافية والفضاءات الفكرية لم يشتد حرصهم على ذلك، ويمكن فيما يلي ذكر بعض ما يتعلق بذلك:

- يقول ابن خلدون رحمه الله: «**ومن تشوّف بفطرته إلى العلم ممّن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدّنة فلا يجد فيها التّعليم الّذي هو صناعيّ لفقدان الصّنائع في أهل البدو...، واعتبر ما قرّرناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لمّا كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفنّنوا في اصطلاحات التّعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتّى أربوا على المتقدّمين وفاتوا المتأخّرين. ولمّا تناقص عمرانها وابذعرّ سكّانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتّعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام.**

ونحن لهذا العهد نرى أنّ العلم والتّعليم إنّما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أنّ عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السّنين، فاستحكمت فيها الصّنائع وتفنّنت ومن جملتها تعليم العلم.

وأكّد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السّنين في دولة التّرك من أيّام صلاح الدّين بن أيّوب وهلمّ جرّا. وذلك أنّ أمراء التّرك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلّفونه من ذرّيّتهم لما له عليهم من الرّقّ أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته.

فاستكثروا من بناء المدارس والزّوايا والرّبط ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال.

فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلّات والفوائد وكثر طالب العلم

ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل إليها النّاس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها»[1].

ـ «شجع الوقف على المتعلمين الانخراط في التعليم والاستفادة من التسهيلات التي وفرت في المساجد والمدارس والمكتبات من خلال تكفله بتأمين احتياجات المتعلمين من اللوازم الدراسية المختلفة؛ حيث خصصت بعض الأوقاف لتعليم الطلاب والصرف عليهم مجاناً وإسكانهم في الأقسام الداخلية والوقف على التعليم يستوي في الاستفادة منه الصغير والكبير والغني والفقير؛ فلا يحرم منه أحد، ويرحل الكثير من طلاب العلم إلى أماكن هذه الأوقاف لطلب العلم كما حدث في القاهرة، حيث أدت التسهيلات الوقفية إلى أن يفد إلى القاهرة طلاب العلم والعلماء من مغرب العالم الإسلامي ومشرقه.

وعندما زار الرحالة ابن جبير المشرق، ورأى تعداد المدارس والأوقاف التي تنفق عليها بوفرة، مما شجع طلاب العلم على الاستمرار، ناشد أبناء المغرب أن يرحلوا إلى ديار المشرق لتلقي العلم، إذ نجده يقول: تكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد الشرقية كلها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة وأدلها فراغ البال من أمر المعيشة»[2].

ـ «ومن الملاحظ أنه في صدر الإسلام لم يكن المدرسون يتقاضون راتباً لقاء تدريسهم ولكن بمرور الزمن وكثرة المدارس وابتداء إيقاف الأوقاف عليها، كل ذلك جعل للمدرسين رواتب شهرية وكان رؤساء الكليات بالجامعة من خيرة علماء المسلمين وأكثرهم سمعة واشتهرت مدارس كثيرة بشهرة من درس فيها، وكان هؤلاء العلماء يتسلمون رواتبهم من الأموال الموقوفة على هذه المدارس التي يدرسون بها؛ فالإمام النووي وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير كانوا ممن يدرسون في دار الحديث بدمشق.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٥٤٢.

(٢) الدور الاجتماعي للوقف د. عبد الملك أحمد السيد ـ وقائع الحلقة الدراسية لتثمير ممتلكات الأوقاف ـ نشر المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب ـ البنك الإسلامي للتنمية، ١٤٠٤هـ ـ جدة، ص٢٠ ـ ٢٢.

أما حجة الإسلام الغزالي وإمام الحرمين الجويني والخطيب التبريزي والفيروزابادي وغيرهم فكانوا أصحاب كراسي وعمداء للمدرسة النظامية في بغداد.

أما ابن خلدون فكان ممن درس في الأزهر ثم في المدرسة القمحية، وكان الشيخ نجم الدين الخبوشاني يدرس في المدرسة الصلاحية، وكلاهما أسسهما صلاح الدين الأيوبي وأوقف عليها الوقوف، واختلفت رواتب المدرسين بين الكثرة والقلة، بحسب الإحصاء والمدارس والأوقاف وبحسب ما اشترطه الواقفون لهذه الوقوف، كما أنه قد خصصت للمدرسين مخصصات انتقال وللإنفاق على الخيول والبغال التي تنقلهم بين مراكز سكناهم ومراكز تدريسهم، كل ذلك لأجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية في سبيل تشجيعهم على الإنتاج العلمي والفقهي، وتنمية قدراتهم العلمية، إن هذه النفقات في عصور الإسلام السابقة كانت تجرى من أموال الأوقاف وليست من الخزينة العامة»[1].

ومن له علم ودراية في حال وتأثير الأوقاف على أهل العلم وتفرغهم للطلب أو الدعوة ونشر العلم يدرك حجم تأثير ذلك على الأفكار والآراء، يقول الإمام الغزالي في معرض ذكره عن المنشغلين في العلم والتعلم والطلب: «**والشاهد فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب**»[2].

ومما لا شك فيه أنه متى انشغل نخب وعلماء الأمم في طلبهم لأقواتهم، وتكريسهم لأوقاتهم وقدراتهم وكل ما يملكون من إمكانياتهم في الكسب والسعي، قل تأثيرهم وضمر عطاؤهم الثقافي والعلمي، ولأجل ذلك قد تسعى بعض الدول الحديثة في الإفقار المجتمعي أو رفع حالة الرفاه

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف ص٢٣٦.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٣).

الاقتصادي للحد من الرفاه الفكري والثقافي، حتى تنصرف الأذهان للسعي والكسب عن الانشغال بالعلم والعطاء، فالوقت والجهد والعقل أوعية متى امتلأت بالانشغال في الاسترزاق لم تجد لأي فكرة خارجة عن هذا الهدف حيزاً ومكاناً.

ومن الشواهد التي يلتمس بها تأثير محرك الاسترزاق المعيشي على الأفكار والعملية الفكرية في الفضاء الثقافي هو تأثيره على عميلة التأليف والطباعة والنشر، ففي التراث الإسلامي جاء استحضار معنى الدوافع في عملية التأليف والتصنيف، حتى صُنف في دوافع التأليف وبواعثه العديد من الدراسات تحت مسمى (دوافع البحث والتأليف..)، إلى أن أصبحت ديباجة أكاديمية يسطرها الباحث في أسباب اختياره لموضوع بحثه حتى يعبر عن شيء من دوافعه تجاه ما اختاره.

وفي تأثيره على عملية التأليف وطباعة الكتب ونشرها، فإن المتابع للحالة الثقافية المعاصرة يلتمس حضور هذا المحرك مقابل المحركات العلمية لتأليف المخرج النهائي للكتاب ونشره، فكم من دار نشر تبدأ بنشر علمٍ ما ثم يؤول حالها المالي إلى الخروج عن هدفها في النشر إلى اختيار منفذها الاقتصادي والمالي في نشر وطباعة ما هو أبعد ما يكون عما يسمى علماً ينتفع به أو ما ابتدأته من نشر[1].

ومن الشواهد التي تؤكد على تأثير محرك الاسترزاق المعيشي في أولوية النشر وإخراج المادة العلمية وبثها في الفضاء الثقافي والعلمي هو نموذج (لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر) في حقبة مضت والتي كانت بواكير نشأتها في بدايات القرن العشرين، حيث يعبّر عن نشأتها في تلك الحقبة أحد أعضاء اللجنة فيقول: «فلم يكن بد في مصر من طلب النهضة من أوثق السبل وأقربها من مظاهر المسالمة والسلام، من طريق بث العلم بكل وسائل البث،

---

(١) ومن له أدنى ارتباط في المراكز البحثية والعلمية وما يرتبط بها من دور النشر للكتاب العربي يدرك مدى تأثير الجانب المالي على أولوية النشر في الفضاء العربي الفكري العام والله المستعان.

ونشر الثقافة بكل أساليب النشر، فتألفت لجنة التأليف والترجمة والشر من نفس ذلك النفر الذي كوته الحوادث، وصهرته التجارب، وميزته الآلام **(كم ربحنا من الحلبة هذا العام يا فريد؟) و(كم خسرنا في الفول يا يوسف؟) تلك كانت بضاعة اللجنة الأولى**، وذلك رأس مالها الذي كان، جمعته من قروش بقدر ما سمحت به أكياسهم الخفيفة منذ عشرين عاما، ولم يكن لها مقر إلا بيوت متواضعة هي منازل أعضائها. **وارتأوا تأليف الكتب المدرسية والشعبية، وفاضوا بينها، ونزلوا بحكم الحاجة إلى المال إلى أقرب الصنفين مكسبا، فبدأوا بالمدرسية، رجاء أن ينفق من أرباحها على الكتب الشعبية، فكان أول كتاب أخرجته كتاب (مبادئ الكيمياء للمدارس الثانوية)»**[1].

والمتتبع لحال اللجنة ومسيرتها يدرك حجم هذه الخطوة في نشر وطباعة وتوزيع الكتب المدرسية وأن محركها الحاجة إلى المال، لأن النتاج العلمي والثقافي للجنة لم يخرج عن وصفه نشراً للفكر العربي والإسلامي. (يظهر ذلك في منشورات الأستاذ أحمد أمين وزكي نجيب وترجمة الكتب المتعلقة بالحضارة الأوروبية والإسلامية).

---

(١) مجلة الرسالة (العدد ٦٩)، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٣٤م، مقال: «لجنة التأليف والترجمة والنشر بمناسبة عيدها الفضي، بقلم: د. أحمد زكي ـ وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية وعضو اللجنة حينها ـ ص٦٨.

الاعتبار الشرعي لمحرك الاسترزاق المعيشي

لقد أولت الشريعة الإسلامية شأن الرزق والسعي إليه وطلبه أولوية في الخطاب الشرعي في القرآن والسنة، وذلك من خلال اعتبارات متعددة ومتنوعة، ومن يبحث في اهتمام الشريعة الإسلامية لمعاني العمل وعمل المؤمن بيده والكف عن السؤال ومؤنة العيال وغيرها من المظان الشرعية يجد أن عملية طلب الرزق في الحياة لها تأثيرها على الأفكار والمعتقدات والآراء العقلية.

ويمكن أن أبين هذا الاعتبار الشرعي لمكانة وموضع الاسترزاق المعيشي في الخريطة الذهنية المنتجة للأفكار والمعتقدات والآراء من خلال ما يليَ:

١ ـ حث الشريعة الإسلامية على العمل وطلب الرزق، فحث الشريعة الإسلامية المؤمن على السعي في طلب الرزق، هو اعتبارٌ لمرتبة وشأن المحرك في الهرم المعيشي لدى الفرد، وإدراكٌ لأهمية الموازنة الشرعية في عدم الاختلال الحاصل حال العطالة وما إلى ذلك من الآثار المترتبة على هذا الأمر.

ويمكن أن أبين بعض النصوص الواردة في هذا الحث الشرعي تجاه العمل والسعي إلى الرزق:

ـ الأمر بالعمل حتى في أحوال وأهوال يوم القيامة حال وقوعها وحدوثها، قال ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[1].

ـ الأمر الشرعي المباشر في السعي للرزق، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وحتى في الأجواء التعبدية قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٦٠١).

فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٩﴾ [البَقَرَة: ١٩٨ ـ ١٩٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثّموا أن يتّجروا في المواسم فنزلت** ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨] في مواسم الحج»[١].

ـ التأكيد على النعمة الحاصلة في تحقق الرزق ونيله، والإشارة إلى أنها من النعم التي تستوجب الشكر، بل الوصف البليغ في حيازة الدنيا في قول رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، مُعافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**»[٢].

ـ التقرير النبوي لمبادرة الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف في اكتسابه للرزق والعمل في التجارة كما روى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «**لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجها. قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع. قال فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن. قال: ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله ﷺ تزوجت؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال كم سقت؟ قال: زنة نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ: أولم ولو بشاة**»[٣].

٢ ـ التقرير الشرعي لوقائع تأثير العطالة على الأفكار والآراء، فإذا كان

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٥١٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجة (٤١٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٤٨).

التقرير الشرعي على أن البطالة والعطالة لها تأثيرها الفكري والثقافي كان ولا بد أن خلاف ذلك له خلاف الأثر، فإذا كان تأثير العطالة سلبياً على المرء أصبح تأثير الشروع في العمل والاسترزاق إيجابياً عليه.

وكما جاء فيما روي أنه «**كان رجلاً بطالاً، قال: مرت بي جاريةٌ في بعض طرق المدينة فأهويت بيدي إلى خصرها، فلما كان الغد أتى الناس رسول الله ﷺ يبايعونه، فأتيته، فبسطت يدي لأبايعه، فقبض يده، وقال: «أنت صاحب الجُبيذة أمس؟»، قال: قلت يا رسول الله، بايعني فوالله لا أعود أبداً. قالك «نعم»**»[1].

٣ ـ التحذير الشرعي المتكرر من العطالة وعدم العمل، فلم تأت الشريعة الإسلامية مراراً على المنهيات إلا بحكمة معتبرة خاصة إذا تعلق الأمر في علاقة العباد فيما بينهم، ومن ذلك ما نحن بصدده.

فحين حذرت الشريعة الإسلامية من أن يكون المؤمن عالةً على أهله وعاطلاً عن العمل قاعداً بلا اهتمام ولا انشغال في السعي الصحيح لرزقه، فهو اعتبارٌ للأثر الناجم عن ذلك من الحاجة إلى الاسترزاق المعيشي عن الطريق الخاطئ في المساومة على الأفكار والمعتقدات.

ومن ذلك ما استنكره واستكرهه صحابة رسول الله ﷺ في أن يكون الرجل من سماته القعود عن العمل والركون إلى البطالة والعطالة، **فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دُنيا ولا آخرة»**[2].

٤ ـ النهي الشرعي عن تغليب السؤال على السعي إلى الرزق والعمل،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥١٢)، وقال اسناده قوي ابن حجر في الإصابة (٤/١٠٣)، وصححه الوادعي في دلائل النبوة (١٧٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة. الطبعة الثانية، (٩/١٠٢) (٨٥٣٨)، وأبو الحسن الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي ـ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. (٤/٦٣)، (٦٢٣٥).

فقد جاءت الشريعة الإسلامية لتؤكد على أن الكف عن سؤال الناس المال والسعي في طلب الرزق ومناولة المرء من عرق عمله ونصيب كدحه هو من أولويات المسلم، وأن سؤال ما في أيدي الناس ليست حالة سليمة وصحيحة في كل الأحوال، وما ذاك إلا ادراكاً لخطورة التسول المالي على شخصية السائل وفكره ومعتقده وما يحمله من مفاهيم، فمن اعتاد استرخاص نفسه في سؤاله الناس قد تقل لديه قوة تمسكه بأفكاره ومعتقداته.

ولذلك جاء الهدي النبوي منه ﷺ في التأكيد على خلق الكفاف والرضا بما قسمه الله من الأرزاق والأقوات بين العباد، وما إلى ذلك مما يصقل أفكار الساعي إلى رزقه من أن يمتهن ما يحمله من قيمة إنسانية وشرعية، وفي الحديث قول رسول الله ﷺ: «ما أكل أحدكم طعاماً قطُّ خيراً من عمل يده»[1].

ومن ذلك قوله ﷺ: **«لأن يحتطب أحدكم حُزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فيعطيه أو يمنعه»**[2].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن أهل الصفة رضوان الله عليهم: **«وأما المسألة فكانوا فيها كما أدبهم النبي ﷺ حيث حرمها على المستغني عنها وأباح منها أن يسأل الرجل حقه مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله أو يسأل إذا كان لا بد سائلا الصالحين الموسرين إذا احتاج إلى ذلك ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقا حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد: ناولني إياه»**[3].

٥ ـ التقرير الشرعي لعمل الأنبياء وأصحاب الدعوات والرسالات بأيديهم وكسبهم من عرق جبينهم، حيث إن النصوص الشرعية جاءت متوافرة في تقرير أن الأنبياء صلوات الله عليهم ما كانوا عالة على أحد أو أنهم

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٤)، ومسلم (١٠٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٥).

يتوسلون أحداً، إذ رسمت الشريعة الإسلامية الصورة النمطية في الاستقلالية المالية لديهم.

فكلما كان الفكر والرأي والمعتقد مستقلاً بذاته عن غيره كلما كان ذلك أقوى وأوثق لصاحبه، وعلى ذلك نهج الأنبياء صلوات الله عليهم هذا الأمر، قال ﷺ: «**ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط**»(١).

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**»(٢).

قال ابن حجر رحمه الله: «**والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد**»(٣).

وقد عمل نبي الله زكريا عليه السلام في مهنة النجارة، حيث كان يأكل من كسب يده، جاء فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**كان زكريا نجارا**»(٤). **وكذلك قال ﷺ: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة»**(٥).

٦ ـ **نهي الفقهاء عن قبول الهدية للقاضي**، سواء كانت عينية أو مالية أو مرتبة ومكانة وما إلى ذلك من القوالب والأحوال، ووجه النهي الحاصل هو التأثير في الرأي والفكرة والحكم، فعدم قبول الهدية اعتبارٌ لحال تأثير العطاء والرزق على صاحب الفكر والرأي.

ولذلك أوضح موقفه رسول الله ﷺ في هذا الأمر بكل صراحة وقوة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢)، وابن ماجة (٢١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٣) فتح الباري (٤/٢٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٧٩).

(٥) أخرجه ابن ماجة (٢١٣٨)، وأحمد (١٧١٩٠)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٧٥٢).

حين وبّخ من استعمله على عمل فجعل يقسم بين ما هو مالٌ وما هو هدية له، فيما روي أن رسول الله ﷺ استعمل «رجلاً على صدقات بني سليم يُدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هديةٌ. فقال رسول الله ﷺ: **«فهلا جلست في بيت أبيك وأمك، حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً»**، ثم خطبنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولّاني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تيعر ثم رفع يده حتى رُئي بياض إبطه، يقول: اللهم هل بلغت بصر عيني وسمع أذني»**[1].

ومن ذلك لا يجوز قبول الهدية للمفتي بعرض الترخيص له في الفتيا والفتوى المتعلقة بالمهدي.[2]

٧ ـ النهي عن الرشوة ولعن الراشي والمرتشي في الشريعة الإسلامية، فالتأثيم الشرعي الحاصل للراشي والمرتشي؛ لعظم الفعل المرتكب والأثر المترتب على ذلك، ومضمون الرشوة تغيير الرأي والحكم مقابل المال، فقد روي عن النبي ﷺ: **«أنه لعن الراشي والمرتشي»**[3].

قال الإمام أبو حامد الغزالي في مسألة التفريق بين الرشوة والهدية، وبيان الغرض من دفع الأموال والعطايا: أن «**باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض، ولكن الغرض إما آجل كالثواب وإما عاجل والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته إما للمحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار، تأليف: ابن عابدين. محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (١٢٥٢هـ)، الناشر: دار الفكر ـ بيروت. (٥/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٨٧)، أخرجه الترمذي في سننه (١٣٣٦)، وصححه ابن باز في الفتاوى (٢٣/ ٢٣٢).

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ١٥٤).

٨ ـ **الأوقاف الإسلامية المصروفة على العلماء وأهل الرأي**، فما يوثق الصلة بين الأفكار والعلوم والنتاج الحاصل بهما ما يحصل من رفع الكلفة عن طالب العلم أو العالم المنشغل بالعلم الشرعي في مسألة الاسترزاق والانشغال بالكسب مقابل ما يقدمه وما ينشغل به من العلم والتعلم، ولو لم يكن هذا مؤثراً عليه في النتائج لما وقع في التاريخ الإسلامي اعتباره وإقراره.

المحرك التاسع

الطمع والجشع المالي

«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»

علي بن أبي طالب ﷺ

المقصود من محرك الطمع والجشع المالي

هو أن يكون أساس الفكرة والذي يدفع صاحبها إلى التصريح بها أو القناعة بها والإدلاء فيها هو جشعه المالي وطمعه في الاستزادة من الأموال علاوة على ما هو عليه من الرزق، فيدفعه عدم قناعته وتطلعه الحثيث إلى جشعٍ يسترخص أمامه ويسخر له كل شيء حتى يعتري الأفكار والمعتقدات ما يعتري كل نقص دون ذلك الجشع، فلم يكن إدلاؤه للفكرة وقناعته بها من فقرٍ يريد رفعه أو قوت يومٍ ورزق يريد تحقيقه ونيله، وإنما هو الجشع الدائم الذي لا ينتهي إلا بالتوبة والأوبة وما يستطاب به في القلوب والأفئدة.

يقول ابن القيم رحمه الله: «**كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه؛ لأن أحكام الرب سبحانه وتعالى كثيراً ما يأتي على خلاف أغراض الناس**»[1].

ولكي أوضح المراد أكثر من محرك الطمع والجشع المالي، وكيف يكون له حضور في الساحة الفكرية على الصعيد العام، وعلى الأفكار

---

(١) الفوائد، تأليف محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٣م، (١/ ١٠٠).

والمعتقدات على الصعيد الخاص، لا بد من ذكر الجوانب التي من خلالها يتضح كونه محركا من محركات الأفكار.

تأثير محرك الطمع والجشع المالي في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

ويمكن فيما يلي أن أبين أبرز الجوانب التي تؤكد أن الطمع والجشع المالي عند المرء مؤثرٌ على أفكاره وآرائه وسلوكه:

١ ـ أن روح الطامع والجَشِعْ لا تبقي فكره وذهنه على حاله، فمن الصعب على من يعلوه ويملؤه الجشع والطمع بما في أيدي الناس أن يستقر ذهنه في تحرير المسائل أو الوصول إلى الفكر الصحيح أو إنتاج الأفكار والآراء دون أن يكون لروحه المشحونة أثر في ذلك، بل إنه قد تشْبه هذه الروح ـ من حيث إشغالها وتغيب الصواب عن صاحبها ـ الخمر وسكرته، **كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع»**[1].

«والطمع تعلق البال بالشيء من غير تقدم سبب له فينبغي للعالم أن لا يشين علمه وتعليمه بالطمع ولو ممن يعلمه بنحو مال أو خدمة وإن قل ولو على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لو يهدها وقد حث الأئمة على أن لا يدنس العلم بالأطماع ولا يذل بالذهاب إلى غير أهله من أبناء الدنيا بلا ضرورة إلى من يتعلمه منه وإن عظم شأنه وكبر قدره وسلطانه والحكايات عن مالك وغيره مشهورة فعلى العالم تناول ما يحتاجه من الدنيا على الوجه المعتدل من القناعة لا الطمع وأقل درجاته أن يستقذر التعلق بالدنيا ولا يبالي بفوتها فإنه أعلم الناس بخستها وسرعة زوالها وحقارتها وكثرة عنائها وقلة غنائها»[2].

---

(١) المستطرف في كل فن مستطرف، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ. ص٨٣.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: زين الدين محمد المدعو بعبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، الطبعة الأولى ـ ١٣٥٦هـ، (٤/ ٢٩٠).

ولذلك علم من له باع في العلم والمعرفة وحال وشأن العلوم وأهلها أن الطامع والجشع لا يصفو له النظر، بل إنه يلتبس عليه الأمر قوة في تأثير الطمع على صاحبه، فهذا الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ضرب مثالاً على تأثير الطمع على صاحبه قال: «**وهذا مثال لفرط طمع الآدمي؛ فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون**»[١].

٢ ـ من المعلوم بالتجربة والحكمة عند أهل العلم والفكر أن طمع المرء بدنياه يحرمه من سداد رأيه وصواب فكره، فالمطلع على جملة من أقوال العلماء والحكماء في التاريخ الإسلامي يجد تحذيرهم من الطمع والجشع في السياق الفكري والعلمي، وما ذاك إلا إدراكاً منهم للأثر المترتب على التخلق بالطمع في النتاج الفكري والعملية العقلية.

ومن ذلك قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»[٢]، وسئل أحدهم: «**ما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس**»[٣].

ومن ذلك ما قاله أبو حامد الغزالي: أن «**من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك**»[٤].

ولذلك شبهه بعضهم بالقيد والغل، فيقال: أن «**الطمع غلٌ في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل**»[٥].

٣ ـ أنه في حالة تمكن الطمع في قلب صاحبه يتغير مناط تفكيره وفكره

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٤٠).

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق (٢/ ٢٣٥).

(٥) العبودية، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة السابعة: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م ص٨١.

من الفكرة إلى ما يطمع إليه، فبمجرد تغير ذلك المناط والبوصلة في التفكير والعملية العقلية تتغير النتائج والأفكار، فالطمع يحور بنظر صاحبه من الغاية العلمية للفكرة إلى ما يطمع به وما يطمح إليه من نيل مال أو غيره.

ولذلك اعتبر جملة من أهل العلم والرأي أن الطمع في أصله فقرٌ مقابل لليأس الجالب للغنى، أي أن الطامع لا يزال يشعر بالفقر والافتقار إلى مالك الشيء المفقود لديه، ويروى عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**الطمع فقرٌ واليأس غنى وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه**»[1].

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: على ذلك بقوله: «**وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع فيه ولا يبقى قلبه فقيرا إليه ولا إلى من يفعله وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه فإن قلبه يتعلق به فيصير فقيرا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك**»[2].

ويقول رحمه الله: «**وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.**

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه وإما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره وإما على ساداته وكبارئه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت»[3].

---

(١) العبودية ص٨٢.

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ص٨٦ وما بعدها.

٤ ـ وقائع التاريخ الإسلامي والإنساني الشاهدة على تأثير الطمع والجشع في المنظومة الإدراكية والفكرية، وممن دون ما يفعل الطمع بصاحبه في الفكر والرأي والعقل الإمام ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث بين ما يؤول الطمع بصاحبه وكيف يخلق التصورات للأشياء من حوله وكيف تتوالد الأفكار منه:

«إن الطمع سبب إلى كل هم، حتى في الأموال والأحوال، فإننا نجد الانسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأم وابن أخيه لأم وجده أبو أمه وابن بنته، فاذ لا مطمع له في ماله، ارتفع عنه الهم بفوته عن يده، وان جل خطره وعظم مقداره فلا سبيل إلى أن يمر الاهتمام بشيء منه بباله؛ حتى إذا مات له عصبة على بعد أو مولى على بعد حدث له الطمع في ماله وحدث له من الهم والأسف والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم.

وهكذا في الأحوال: فنجد الانسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لإنفاذ غيره أمور بلده دون أمره ولا لتقريب غيره وإبعاده، حتى إذا حدث له طمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والفكر والغيظ أمر ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه. فالطمع اذاً أصل كل هم، وهو خلق سوء ذميم. وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة متركبة من النجدة والجود والعدل والفهم لأنه فهم قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها، وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزه، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته، وكانت فيه طبيعة عدل حببت اليه القنوع وقلة الطمع. فاذا نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات، فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الأربع الصفات، وهي الجبن والشح والجور والجهل»[1].

من شواهد محرك الطمع والجشع المالي وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني

---

(١) رسائل ابن حزم (١/ ٣٧١).

والإسلامي، هو ما رصده المنقبين عن بواعث ومحركات الأفكار والآراء المبثوثة في الفضاء الفكري الإسلامي، **ومنهم الإمام أبو حامد الغزالي** رحمه الله.

ففي تأثير الطمع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رصد الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله ذلك، إذ يقول: «**إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٣).

الاعتبار الشرعي لمحرك الطمع والجشع المالي

إن القارئ للنصوص الشرعية والتوجيهات النبوية يدرك أن الشريعة الإسلامية جاءت باعتبار نزوات النفس ونوازعها، ومن أهمها تأثيراً على الأحكام الشرعية من جهة المكلفين هو ما يعتري المؤمن حين استغراقه بالدنيا وملذاتها فينتهي حاله إلى الطمع والجشع فيها حتى تصبح دنياه تلتهم يومه وأمسه وغده.

ولذا حين اعتبرت الشريعة الإسلامية هذا المدخل على النفوس جعلت منه خطراً على الأفكار والآراء، حيث يتغير هدف المرء وصيده عن الغاية التي خُلق لها وما يجب أن يسعى إليه في حياته.

ويمكن أن أبين هذا الاعتبار في تأثير الطمع والجشع على الأفكار والمعتقدات فيما يلي من الجوانب الشرعية:

١ ـ الذم الشرعي لخلق الطمع والجشع أن يتطبع به المؤمن، ففي غير موضع جاءت الشريعة الإسلامية بالذم العام للطمع والجشع، وذلك لما له من آثارٍ سلبية على قلب المؤمن، وإيمانه، ويقينه بربه ومعتقده.

ومن ذلك ما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم**»[(١)].

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والشح هو البخل مع الطمع فيكون الإنسان بخيلاً في بذل ما يجب عليه طامعاً فيما ليس له وهذا سبب للهلاك إذ أن الإنسان إذا كان بخيلاً منع ما يجب عليه من حقوق الله وحقوق عباده وإذا كان ذا طمع وحرص على اكتساب المال تعدى على غيره فأخذ أموالهم بغير حق**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) فتاوى نور على الدرب، لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ـ عنيزة. الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ (٢/ ٥٠٤).

٢ ـ التحذيرات الشرعية الشديدة والمتكررة من آفة الطمع والجشع، فقد جاءت جملة من النصوص الشرعية لتحذر المؤمن من أن يسيطر عليه الطمع والجشع فيؤثر على ايمانه ويقينه بربه، وبذلك تصريح مباشر على أن الجشع والطمع المالي له تأثيره في الأفكار والمعتقدات، ومن هذه النصوص الشرعية:

ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها، من حرص المرء على المال، والشرف لدينه»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«هذا مثلٌ عظيم جداً ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشَّرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين يأتيا في الغنم، وقد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.**

ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل، فأخبر النبي ﷺ أن حرصَ المرء على المال والشرف: إفساده لدينه ليس بأقل من إفسادِ الذئبين لهذه الغنم؛ بل إما أن يكون مساوياً وإما أكثر، يشير إلى أنه لا يسلم من دينِ المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنّه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المثلُ العظيمُ يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا»[٢].

ـ قوله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»[٣]، فالنبي ﷺ بمعرفته لطبيعة الإنسان وشرهه وطمعه حذر أمته من أن يدخل أحدهم في هذا النفق

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (٣/٤٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٢٠).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تأليف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، البغدادي الحنبلي (٧٩٥هـ)، تحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، (١/٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٣٦).

الذي لا ينتهي إلى ما يطمع به القلب ولا منتهى في ذلك الأمر والشأن، «**ففيه تنبيه نبيه على أن البخل المورث للحرص مركوز في جبلة الإنسان، كما أخبر الله تعالى عنه سبحانه في القرآن حيث قال أبلغ من هذا الحديث والمقال:** ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فهذا يدل على أن حرص ابن آدم وخوفه من الفقر الباعث له على البخل حتى على نفسه أقوى من الطير الذي يموت عطشا على ساحل البحر خوفا من نفاده، ومن الدودة التي قوتها التراب وتموت جوعا خشية من فراغه، لأن ما ذكر من الماء والتراب في جنب خزائن رحمة رب الأرباب كقطرة من السحاب»[1].

- ما روي عن النبي ﷺ في تصنيفه للمال على أفراد الأمة أنه من الفتنة عليهم، قال رسول الله ﷺ: «لكل أمةٍ فتنة، وفتنة أمتي المال»[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**هكذا أيضا طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان: منها ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده فيكون هلوعا إذا مسه الشر جزوعا؛ وإذا مسه الخير منوعا.**

ومنها ما لا يحتاج العبد إليه فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها؛ وربما صار معتمدا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ «تعس

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. (٨/٣٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٢٣)، والترمذي في صحيحه (٢١٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٤٢١٨).

عبد الدرهم تعس عبد الدينار؛ تعس عبد القطيفة؛ تعس عبد الخميصة»[1][2].

ـ بيان النبي ﷺ لأصحابه حال استبشارهم بتحسن حال دنياهم بأن ما يحذر منه ليس ذلك بقدر ما هو الاستغراق بالدنيا واللهث وراءها، ففي الحديث عندما «قدم أبو عبيدة بمال من البحرين، سمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، **وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟»، قال: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمّلو ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»»**[3].

٣ ـ التقرير الشرعي بواقعية مقايضة الأفكار بالمال بمحرك الطمع، فقد جاءت الشريعة الإسلامية بتقرير أن البعض يبيع أفكاره ومعتقداته ويتاجر بها، كما يبيع التاجر سلعته وبضاعته في السوق ويقبض على بيعها الثمن، فقد قال تعالى في خطاب بني إسرائيل: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٤١ ـ ٤٢]، أي: «**لا تأخذوا طمعاً قليلاً وتكتموا اسم الله، وذلك الثمن هو الطمع، فتأويل الآية إذاً: لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابي وآياته بثمن خسيسٍ وعرض من الدنيا قليل**»[4].

ولذلك أصبح أهل الكتاب نموذجاً لمن يبيع المعتقد والفكرة أمام طمعهم بالمال وجشعهم، وهو أن أحبار اليهود كانوا يصرحون بفكرة إنكار نبوة محمد ﷺ مقابل ما يتلقونه من المال والأعطيات على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧)، وابن ماجة (٤١٣٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٣٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٨).

(٤) تفسير الطبري (١/ ٥٦٦).

﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٤].

والمقصود بذلك هم «**أحبار اليهود الذين كتموا الناس أمرَ محمد ﷺ ونبوته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، برُشًى كانوا أُعطوها على ذلك**»(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البَقَرَة: ١٧٤] «**أي: الذين يخفون شيئا مما أنزل الله من كتابه فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه، أو يخفون معناه عنهم بتأويله أو تحريفه أو وضع غيره في موضعه برأيهم واجتهادهم، ويستبدلون بما يكتمونه ثمنا قليلا من متاع الدنيا الفاني كالرشوة، والجعل على الفتاوى الباطلة، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع الموقتة إذ اتخذوا الدين تجارة**»(٢).

ولذلك قال تعالى في وصف أهل الإيمان مقارنةً بأهل الانحراف من أهل الكتاب: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٨ ـ ١٩٩].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنا قليلا وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو: أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم**

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٢٧).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٨٢).

بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب»[1].

(١) تفسير السعدي ص١٦٢.

المحرك العاشر

الغلبة الحضارية

«انظر إلى كلّ قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زيّ الحامية وجند السّلطان في الأكثر لأنّهم الغالبون لهم حتّى أنّه إذا كانت أمّة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتداء حظّ كبير»

ابن خلدون

المقصود من محرك الغلبة الحضارية

هو أن تكون الفكرة والرأي ناشئاً عن الهزيمة الحضارية ونتيجة صعود الغالب السياسي في الأمم والشعوب على المغلوب عليهم، فتتكون جملة من الأفكار والمعتقدات لدى المغلوب ما كانت لتكون وتصبح لولا حالة الغلبة الحضارية وهيمنتها على واقع هذه العقلية المنتجة لهذه الأفكار.

فكم من فكرة ظن المتلقي لها أنها منبثة من حصافة علمية وتحريرٍ معرفي، ولكن هي في أصلها صورة من صور الهزيمة الحضارية، وكم تحت تلك الغلبة نُحرت معتقدات وأفكار كان أصحابها أمام ظرف الانكسار الحضاري.

ولعل أول من صاغ قاعدة التأثر الثقافي والفكري في أطر الغلبة الحضارية هو العلامة ابن خلدون رحمه الله حيث بوب بقوله: «**في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده**»[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٨٣).

يقول ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ عن أسباب هذا الولع بالتأثر، ومدى طوله إلى الفكر والمعتقد وإن كانت الغلبة ليست في الجانب العلمي: «**والسّبب في ذلك أنّ النّفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوّة بأس وإنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأوّل.**

ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دائما وما ذلك إلّا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر إلى كلّ قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زيّ الحامية وجند السّلطان في الأكثر لأنّهم الغالبون لهم حتّى أنّه إذا كانت أمّة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التّشبّه والاقتداء حظّ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتّى في رسم التّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتّى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء والأمر لله»[1].

تأثير محرك الغلبة الحضارية في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

من تتبع حقيقة ذلك التأثير في الفضاء الفكري والعملي يجد حضوره وشواهده، وفي محاولة لشرح وبيان كون الغلبة الحضارية لها أثرها على الأفكار والمعتقدات ونشوء التيارات الفكرية وتوالد أفكارها، حتى تصل لدرجة أن تكون محركا من أحد الدوافع الحضارية التي تدفع المرء إلى أفكارٍ هو في افتقارٍ إليها حال زوال هذا المحرك.

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٨٤).

ويمكن أن أبين ذلك من خلال ما يلي:

١ ـ التقرير المعرفي من الحكماء وأهل العلم والمعرفة في تأثير الغلبة الحضارية على الأفكار والمعتقدات، فمن يطلع على من درس التاريخ بأداة التحليل والفحص يجد قرار أصحابه بأن أي أمة من الأمم لها أفكارها التي نشأت بها حال ضعفها وهوانها وغلبة غيرها عليها، وأفكارها حال عزتها وصولتها وغلبة أمرها وحالها، وعلى الصعيد النفسي للفرد فإن شعوره المنهزم حال التغلب عليه ينشئ له أفكاراً لم تكن تنشأ لولا هذه الغلبة من مقابله، وحيث ينشأ ذاك على المستوى النفسي للفرد، فكيف على المستوى العام لأمة من الأمم وحضارة من الحضارات.

يذكر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله **شيئاً من ذلك التأثر عند من انشغل بالأفكار الفلسفية وأن من جملة ما يصير إليه الانهزام والانبهار هو (مجاملة الأفكار المهيمنة على نفوسهم) قال** رحمه الله: «**فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين...، وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة، كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاوطاليس وأمثالهم، وأطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم..، وحكاياتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة.**

فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم، وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء..»[١].

٢ ـ أن من طبيعة الحال أن الأفكار تتأثر إذا كان هناك مؤثر أقوى منها، وكما هو معلوم في معظم الأحوال أن غلبة الحضارة والسياسة تكون أقوى

---

(١) تهافت الفلاسفة ص٧٣ وما بعدها.

تأثيراً في الأفكار المبثوثة في الفضاء الفكري وذلك على الصعيد العام المشترك؛ إذ إنه على المستوى الشخصي أو الفردي لصاحب الفكرة أن تتغلب هي بجذرها في عقله وقلبه على الغلبة الحضارية، غير أنه عند قبولها أو انتشارها قد تتغير هذه المعادلة إلى أن الغلبة الحضارية أقوى من كونها متجذرة في ذاته ونفسه، فعلى الصعيد العام والفضاء الكلي الفكري أن محرك الغلبة الحضارية أقوى من الفكرة المفتقرة إلى ذلك.

فعلى سبيل المثال يحكي شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن تأثر بعض المنتسبين للعلم بالأطروحات الفلسفية اليونانية وكيف أنها كانت مؤثراً عليهم أقوى مما يملكونه من أفكار ليصلون إلى نتيجة أنهم «**يغيرون العبارات ويعبرون بالعبارات الإسلامية القرآنية عن الإلحادات الفلسفية واليونانية**»[(١)].

ويقول رَحِمَهُ اللهُ: «**ولا ريب أن القوم أخذوا العبارات الإسلامية القرآنية والسنية فجعلوا يضعون لها معاني توافق معتقدهم ثم يخاطبون بها ويجعلون مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من جنس ما أرادوا فحصل بهذا من التلبيس على كثير من أهل الملة ومن تحريف الكلم عن مواضعه**»[(٢)].

ويذهب شيخ الإسلام في قراءة هذا الانهزام والانبهار الثقافي من أفراد في المحيط الإسلامي بالعلوم الوافدة إليهم حتى يصل إلى أن الأمر لا يقف على الإعجاب فحسب، بل إن الهزيمة الثقافية والفكرية دفعتهم إلى أن يضللوا الأفكار الإسلامية فيما بينهم، فيقول:

«**فيأخذ هؤلاء العبارات الإسلامية ويودعونها معاني هؤلاء وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فإذا سمعوها قبلوها ثم إذا عرفوا المعاني التي قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام وأن هذه معاني هؤلاء الملاحدة ليست هي المعاني التي عناها محمد رسول الله ﷺ وإخوانه المرسلون: مثل موسى وعيسى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين**»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٩٧).

(٢) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص٢٣٦.

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٣٣).

٣ ـ أن أفكار المنهزم وروحه أصعب من أن يتم تسويتها في النوع والتأثير والنفاذ مع أفكار الغالب المنتصر، فكيف يستوي من روحه تعلوها اليأس والذل والخضوع مع روحٍ تملؤها العزة والأنفة والحرية والشعور بالنصر والتمكين؟ إذ كان ولا بد أن يكون لذلك تأثير بطبيعة الحال على نفس صاحبها.

ولذلك يدرك أصحاب الأفكار وصانعيها أن تعاهد روح المنهزم بالصولة الفكرية والحضارية من ضرورات المرحلة للحفاظ على جذور الأفكار في قلب وعقل حامليها، وما كان ذاك إلا بإدراك منهم لما تفعله روح المنهزم بصاحبها فضلاً عن أفكاره وآرائه ومعتقداته.

ولذلك يقول صانع الفكر مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق الإمكانيات الحضارية مستفهماً: «لماذا استطاع ذلك أولئك الأعراب الفقراء في عهد محمد ﷺ؟ لماذا قام أولئك الأعراب الفقراء الأميون بإنقاذ الإنسانية وشعروا أنهم جاؤوا من أجل إنقاذها؟ فقد كانوا يعلنون هذا في أقوالهم ومخاطبتهم للآخرين سواء من أهل الفرس أو من أهل روما، كانوا يقولون لهم: لقد أتينا لننقذكم، إنهم لم يشعروا بمركب النقص، لماذا لم يشعروا بمركب النقص؟

لأن الإمكانيات الحضارية المتكدسة أمامهم في فارس أو في بيزنطة أو في روما لم تفرض عليهم النقص، وبعبارة أخرى لم تُبهرهم، كانوا يشهرون أمام الإمكانيات الحضارية المتكدسة، بإرادة حضارية تفوق كثيراً ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر»(١).

من شواهد محرك الغلبة الحضارية في الفكر والأفكار والمعتقدات:

أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هو الخطاب الانهزامي أمام الغرب في الفضاء الفكري العربي.

---

(١) دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، تأليف: مالك بن نبي، الناشر: دار الفكر ـ الجزائر، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ص٤٩.

فالمتابع للحالة الفكرية في الفضاء العربي المعاصر يجد حضور ذلك في القاعدة الخلدونية حيث ولع المغلوب العربي بالغالب الغربي، والذي يذكر ما مفاده بأن جملة من الأفكار والآراء التي لا يستهان بكمها، بل حتى في عمقها العلمي وصبغتها الفكرية والمعرفية هي في حقيقتها نتيجة الهوان الفكري والهزالة العلمية والضعف في الهوية والانتماء مقابل شراسة الفكرة الغالبة ونمذجتها القائمة في كيانات الدول الغربية وأيقونة النجاح الظاهر للغالب أمام عين المغلوب.

ولعل أبرز من رصد تلك الانهزامية الثقافية في القرن العشرين هو الراصد الفكري الدكتور محمد محمد حسين[1] رَحِمَهُ اللهُ **في كتابه الحصيف (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)** وبعد ذلك في كتابه **(الإسلام والحضارة الغربية)** يقول رَحِمَهُ اللهُ بنَفسه الراصدة عن تلك الحقبة العربية: «**وقد فاضت الصحف في هذه الفترة التي تؤرخها بالمقالات التي تشكك الناس في كل ما يخرج عن دائرة المحسوس، وكان معظم ما يُذاع من ذلك باسم العلم والعلمانية، وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقليد**»[2].

ويمكن فيما يلي أن أذكر بعض المقولات الفكرية والعلمية التي بُثت في الفضاء الثقافي العربي آنذاك حتى أصبحت نموذجاً لولع المغلوب بالغالب الحضاري والسياسي:

ـ «**أما أن نتخذ من الحضارة الغربية عدواً لدوداً وندعو إلى عصبة**

---

(١) هو محمد محمد حسين، أديب إسلامي مصري، ولد في مصر سنة (١٩١٢م) تدرج في وظائف التدريس فقد درس في جامعة ليبيا وجامعة بيروت العربية، وتعاقد مع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة (١٩٧٦م)، له عدة مؤلفات من أبرزها: (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها، وحصوننا مهددة من الداخل، الإسلام والحضارة الغربية.. وغيرها من المؤلفات). توفي سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م). انظر: جهود الدكتور محمد محمد حسين في الدفاع عن الإسلام (رسالة ماجستير في كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى). لإبراهيم بن حميدان الحارثي.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، تأليف: الدكتور محمد محمد حسين، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت. الطبعة السابعة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م. (٢/ ٢٩٢).

للشرقيين، متجاهلين الغرب، ونقف في وجهه، فإننا نسير إلى الاضمحلال لا محالة. فقد كان في الشرق حضارة عمته وامتد إلى الغرب سلطانها، فوقفت الحضارتان وجهاً لوجه، ودام النزاع بينهما قروناً. وها نحن أولاء نرى الغلبة للحضارة الغربية، فهل نعمد إلى السلاح الماضي؟ وهل نُحيي جامعة مثلها أو نعيد الجامعة نفسها لنقف في وجه التيار الغربي؟ نظرةٌ واحدةٌ في التاريخ وفي الخريطة تكفي لأن تقنعنا. .»[1].

ـ «الشرق لا يمكن أن تكون له مدينة خاصة تخالف في أسسها مدينة الغرب، إلا إذا أمكن أن يؤسس مدينة قوية تستطيع أن تسود المدينة الغربية، وتكون مدينة العالم، وذلك ما ليس في مُكنته الآن ولا في المستقبل»[2].

ـ «السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يُرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»[3]!

ـ «كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي من الأدب كما أزاوله، فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأني منها»[4].

ـ «هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهرة، فأنا كافر

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٢٠١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٠١).

(٣) مستقبل الثقافة في مصر، تأليف: طه حسين، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ـ مصر، الطبعة الأولى: ٢٠١٤م. ص٤٣.

(٤) اليوم والغد، تأليف: سلامة موسى، الناشر: مؤسسة هنداوي سي أي سي ـ المملكة المتحدة، الطبعة الأولى: ٢٠١٧م. ص٧.

بالشرق مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب ويتنصلون من الشرق؛ لأني أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح في العالم، بل لا رجاء لنا بأن نعيش عيشة، إذا لم تكن سعيدة فلا أقل من أن تكون غير شقية، إلا إذا تملصنا مما اكتسبناه من العادات الشرقية في نظام العائلة ونظام الحكومة، والنظر للمرأة والنظر للأدب، حتى في النظر للصناعات والمعايش»[1].

ـ «لست أشكُ في أن الخُلق الإنجليزي يمتاز عن سائر الأخلاق بالثبات في العمل، والدأب في بلوغ القصد وحكم الشهوات، والتبصر للمستقبل وكل هذه صفات قد اشتهرت عن الإنجليز..، أما من حيث الجسم فإننا يمكننا أن نعاير تفوقه بثلاثة أشياء: وهي الجمال والصحة والقامة..، ولو اتبعت غريزتي وبصيرتي لقلت: إن عناية الإنجليز بأجسامهم من أكبر الأدلة على رقيهم، فهم أكثر الدول رياضة واستحماماً وتنزهاً..، وميزة أخرى في المزاج الإنجليزي، وهي دليل شيء من التفوق في الأعصاب أو العقل أو أي شيء آخر، هي ما نجده من ميله الدائم إلى الاعتدال والبعد عن الغلو والإسراف، فهو دائم التحفظ والاقتصاد..»[2]!!

ـ «وإذن فالعقل المصري القديم ليس عقلاً شرقياً إذا فُهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار، وقد نشأ هذا العقل المصري في مصر متأثراً بالظروف الطبيعية والإنسانية التي أحاطت بمصر وعملت في تكوينها، ثم نما وربا، وأثر في غير الشعب المصري من الشعوب المجاورة، وتأثر بها، وكان من أشد الشعوب تأثراً بهذا العقل المصري أولاً، وتأثيراً فيه بعد ذلك العقل اليوناني..، كل هذه الأولويات لا معنى لإضاعة الوقت في إثباتها، وإقامة الأدلة عليها، فقد فرغ الناس من ذلك منذ عهد بعيد»[3]!!

---

(١) اليوم والغد ص٩.

(٢) المرجع السابق ص٣١.

(٣) مستقبل الثقافة في مصر ص٢٣.

فقد عبث الكاتب في السياق التاريخي وقدم الفكرة بطريقة توحي أنها من العلمية اليقينية بمكان فقط ليقرر الفكرة المتجذرة في أعماق هذه الفكرة الظاهرة وهي أن العقل المصري ميله إلى الغرب تاريخياً أقرب منه إلى الشرق.

يقول الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقاً عن هذه المقولة: «**ويمضي المؤلف في سائر كتابه على اعتبار صلات مصر بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق، حتى إنه ليَجورُ على التاريخ في بعض الأحيان كي يقيم به مذهبه الذي يزعمه، وذلك في مثل تصوير العرب غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون، في الوقت الذي يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمردون عليه**»[١].

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٢٣٢).

الاعتبار الشرعي لمحرك الغلبة الحضارية

لقد أولت الشريعة الإسلامية شأن الغلبة بين الأمم اعتباراً في أبواب التمكين والصراع بين الحق والباطل، فالمتتبع للنصوص الشرعية يدرك مدى اعتبار الشرع الحكيم بأن المستحكم في أمر المجتمع أو الشعوب أو الأمة له تأثيره على الأفكار والأحكام، فضلاً عن أن تكون الغلبة ذاتها هي مرامٌ لناصر الدين ومعلي رايته.

ويمكن فيما يلي أن أبين المناطات الشرعية التي من خلالها يلحظ القارئ مدى توغل وتأثير الغلبة الحضارية على الأفكار والمعتقدات حتى تكون أحد دوافعها ونشوئها:

١ ـ الهدف الشرعي المتحقق في تحكيم الشريعة الإسلامية ورفع راية الإسلام، فقد جاءت النصوص الشرعية لتأكد الغاية من الجهاد في سبيل الله، والتكرار الدائم في تقرير المرام الشرعي للوصول إلى الغلبة وموقع القوة، من خلال تحاكم الأفراد إلى الأحكام الشرعية فهذا الهدف وتنصيب أولويته في الخارطة الإدراكية لدى المسلم تأكيد على تأثيره المباشر إلى تمكين الإسلام في النفوس والقلوب والعقول، فلا قيمة للأحكام الشرعية دون التحاكم إليها والرجوع لها في المنازعات والنازلات.

قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

قال الرازي: «**أنه لا دين بخلاف الإسلام إلا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع، وإن لم يكن كذلك في جميع مواضعهم، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عباد**

الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند، وكذلك سائر الأديان فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل»[1].

٢ ـ التغذية الشرعية للنفوس المسلمة من خلال نصوص العزة الإسلامية وعلو المؤمن، فالمتجول بين النصوص الشريعة يجد حضور الهدف القيمي في بث روح العزة والاستعلاء في نفس المؤمن.

ولأن تلك الروح لها تأثيرها في الأفكار والآراء والتصورات بات المسلم يتعاهد أخاه المسلم في عزته وأفضليته واستعلائه أمام الكافر وكل من بخس حق الله وشرعه وأحكامه، ويمكن فيما يلي أن أبين جملة من هذه التغذية الشرعية من خلال ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به السنة النبوية:

ـ الربط الشرعي بين الروح المؤمنة وبين صور العزة للإسلام، ففي غير موضع جاءت السنة النبوية برسم الصورة النمطية للإسلام في عزته ومُكنته وانتصاره.

ففي الحديث «شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»»[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث: «**ومعلوم ان هذا انما ذكره النبي ﷺ في معرض الثناء على اولئك لصبرهم وثباتهم وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الامة»**[3].

---

(١) تفسير الرازي (١٦/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

(٣) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٣٣٢).

٣ ـ التقرير الشرعي لمحرك الغلبة الحضارية وتأثيره على الأفكار والمعتقدات، فقد بين الله ﷻ أن من يقف من المنافقين مع الكافرين ويداهن معهم هو في الحقيقة باحث عن العزة لديهم، فجعل ﷻ من العزة والقوة والمكنة والغلبة سبباً للغاوين عن الحق في اتخاذ الكافرين أولياء لهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النِّسَاء: ١٣٩] «**أيطلبون عندهم المنعة والقوة، باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ فإن العزة لله جميعاً، يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاءَ العزة عندهم، هم الأذلاء الأقِلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزَّة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يُعِزّ من يشاء ويذل من يشاء، فيعزُّهم ويمنعهم؟**»[١].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين أيبتغون عندهم العزة، ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى** ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فَاطِر: ١٠] **وقال تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنَافِقون: ٨]، **والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد**»[٢].

٤ ـ المدافعة الشرعية للهزيمة أن تغزو القلوب المؤمنة، فقد حرصت الشريعة الإسلامية أن تدفع عن قلب المؤمن شعوره بالهزيمة أو بالانكسار الحضاري مخافة ما ينتج عن هذا الحال من الأفكار والانتكاسات المتتالية في الفكر والمعتقد، ولذلك كان النبي ﷺ يحافظ على روح الاستعلاء الإيمانية لدى أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ ثباتاً لهم على الحق وضماناً لصلابتهم النفسية.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٥).

ويمكن بيان الحرص الشرعي على دفع الهزيمة في النفوس المؤمنة من خلال ما يلي:

ـ النصوص الشرعية في نصرة المسلم لأخيه المسلم حال انكساره وهزيمته، فقد جاءت الشريعة الإسلامية بهذه النجدة الأخوية لإنقاذ المسلم من أن يعتريه اليأس والانكسار وما يؤول إليه ذلك من الإحباط، جاء ذلك لقطع احتمال التأثير على إيمان صاحبه ومعتقده وما يؤمن به من الأفكار الشرعية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا في الدين، يعني بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، فعليكم أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار النصر، إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، يعني عهد قد وثق به بعضكم على بعض أن لا يحاربه**»[1]. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**» **فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: «تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره»**[2].

ومن أعظم تجليات الأخوة والحفاظ على النسيج الفكري، المحافظة على الروح المؤمنة أن تنكسر في أي حال من الأحوال أو أن تُستمال حال مُصابها، وألا تنشد المناصرة حال حاجتها إلا من الطريق الشرعي وهي الأخوة الإيمانية.

قال رسول الله ﷺ «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه**

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[1].

ولذلك **«إنما أمر كل واحد بنصرة أخيه المسلم، إذا رآه يظلم وقدر على نصره؛ لأن الإسلام إذا جمعهما صارا كالبدن الواحد، كما أن أخوة النسب لو جمعتهما كانا كالبدن الواحد، والدين أقوى من القرابة، وأولى بالمحافظة عليه منها»**[2].

ـ **التحذير الشرعي من الروح الانهزامية**، فقد جاءت النصوص الشرعية بالنهي من أن ينطلي الانهزام على روح المسلم والتحذير من كل ما يعطي الخصم فرصة للاستعلاء.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩]، **«ولا تهنوا ولا تحزنوا كأنه قال إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سببا لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم، بل يجب أن يقوى قلبكم فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة والدولة راجعة إليكم»**[3]. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل؛ عزاً يُعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»**[4].

٥ ـ الأحكام الشرعية بين حال غلبة الإسلام وخلاف ذلك، فبعض

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) شعب الإيمان، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيقهي (٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م (١٠/ ٨٣).

(٣) مفتاح الغيب للرازي (٩/ ٣٧١).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٥٥)، والحاكم (٨٣٢٦)، وحكم عليه شعيب الأرناؤوط (إسناده صحيح على شرط مسلم) في تخريج المسند رقم (١٦٩٥٧).

الأحكام كان هناك اعتبار في إقرارها وإلزامها للمكلفين حال عدم المُكنة الحضارية لفترة من الفترات.

فالفاحص للمرحلة المكية وما قبل الهجرة النبوية يجد أن غياب الغلبة الحضارية أثر على الأحكام الشرعية من حيث لزومها وإقرارها على المكلفين، وكذلك حين تغير الأمر إلى الغلبة الإسلامية والقوة والعزة الإيمانية تغير حالها وعلاقة المكلفين بها.

ومن ذلك ما نقله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن النبي ﷺ قبل أن يؤمر بالجهاد كان يقر الناس على ما هم عليه من اليهودية والنصرانية ويدعوهم إلى الإسلام وأن المرأة كانت تسلم وزوجها كافر فلا يفرق الإسلام بينهما حتى بدأ التدرج بالأحكام الشرعية إلى أن أعز الله دينه فاستقر حال الأحكام.

يروي ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التسلسل وربطه بالغلبة للمسلمين أمام الأديان الأخرى فيقول:

«وكان النبي ﷺ مع الناس في الدعوة مراتب، فإنه أمر أولا أن يقرأ باسم ربه، ثم أمر ثانيا أن يقوم نذيرا فأمر بإنذار عشيرته وقومه ودعوتهم إلى الله تعالى، ثم أمر بإنذار الناس والصبر والعفو والهجر لمن آذاه، ثم أمر بالهجرة، ثم أمر بقتال من قاتله، ثم أمر بالجهاد العام، ثم بضرب الجزية على أهل الكتاب فضربها عليهم وألحق بهم المجوس، وكانت العرب من عباد الأوثان قد دخلوا كلهم في الدين.

وكان ﷺ يقر الناس على ما هم عليه حتى يأتيه الأمر من الله بما يأخذهم به ويفعله معهم، فلما جاءه أمره بالهجرة بادر إلى امتثاله، ثم جاءه الأمر بالجهاد فقام به حق القيام، ثم جاءه الأمر بالتفريق بين المؤمنات والكفار في النكاح، ثم جاءه الأمر بصلح الكفار بتوادعهم، ثم جاءه الأمر بأخذ الجزية منهم وإقرارهم على دينهم ولا يتعرض لهم ما لم ينقصوه شيئا مما شرط عليهم، فلم يكن قبل الهجرة والجهاد يمنع من أراد التهود أو التنصر من أهل الأوثان، فلما علت كلمة الإسلام وصار للمسلمين الغلبة والقهر منع من أراد منهم التهود أو التنصر بعد أن أقر بالإسلام وأمر بقتله إن لم يراجع دين

الإسلام، ولم يمنع يهوديا من نصرانية، ولا نصرانيا من يهودية كما منع المسلم منهما»[1].

(١) أحكام أهل الذمة، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري. الناشر: رمادى للنشر - الدمام، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. (١/ ١٩٨).

المحرك الحادي عشر

الظلم والجور

«كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها»

الشيخ المفسر عبد الرحمن ابن سعدي

المقصود من محرك الظلم والجور

أن يكون أساس الفكرة ومثارها والمحرك الذي يقف وراءها هو الظلم الواقع على صاحبها سواءً كان هذا الظلم متعلق بالفكرة أو بشيء يستلزمها أو كان بعيد الموضوعية عنها.

فكم قادت المظالم إلى أفكار لا يعرفها أصحابها؛ ولولا هذا الظلم الواقع عليهم ما طرأت على مدركاتهم وتصوراتهم، فقد يتبين للمرء في الوهلة الأولى من قراءته للفكرة وطرحها أنها منطلقة من جانب موضوعي وعلمي فما يلبث إلا أن تتجلى له الصورة والحال بأنها أحد تجليات مظلومية كاتبها وسواء كانت نوعاً من أنواع الشكاية أو متنفساً له عن مظلوميته أو محاولة منه في النيل من ظالمه وإلى ما ذلك من التعليلات النفسية للسلوكيات والأفكار الصادرة عن المظلوم والتي بسبب الظلم الحاصل بحقه صرح بها وأدلى.

تأثير محرك الظلم والجور في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

والقارئ المطلع على الفضاء الفكري يجد جملة من الأفكار التي راجت فيه ولاقت قبولاً في العقول والأفهام وأن لمحرك الظلم والجور حضوراً في

سياق تلك الأفكار، فكم أعان الظالم بظلمه من انتشار وإظهار أفكار شعر بذلك أو لم يشعر.

ويمكن فيما يلي أن أبين بعض السياقات المعرفية والدلالية في تقرير حضور الظلم والجور وكونه محركا ومؤثراً على الأفكار والمعتقدات:

١ ـ الترسبات النفسية والمفاهيمية في ذهن المظلوم المؤثرة بطبيعة الحال على أفكاره وآرائه، فمن المعلوم أن المظلوم لابد أن يقع في قلبه شيء على من ظلمه، والناس في ذلك متفاوتين في إظهار الأثر على وجوههم وتقاسيمهم.

يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين انه الظالم المعتدي المفرط في الظلم. ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة. فيسبق إلى نفس بعض من لا يحقق النظر انه ظالم**»[1].

وكذلك يتفاوت الناس في بقاء أثر المظالم في نفوسهم وقلوبهم في بعدها ومداها بأنها تصل إلى الأفكار وتتجاوزها أم هي دون ذلك.

فقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق دفع المظلوم عن نفسه ظلم غيره وأن ذلك من دفع الصائل شريطة ألا يقع بذلك فتنة أكبر من مظلمته، ويتعلل للمظلوم بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**فلا يحل دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة وبما فيه شر أعظم من ظلمه، بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر فإن ذلك في حقه محنة وفتنة، وإنما يقع المظلوم في هذا لجزعه وضعف صبره أو لقلة علمه وضعف رأيه فإنه قد يحجب أن القتال ونحوه من الفتن يدفع الظلم عنه ولا يعلم أنه يضاعف الشر كما هو الواقع وقد يكون جزعه يمنعه من الصبر**»[2].

لذا جاء من الحكمة أن يملك المرء مشاعره وأفكاره وانفعالاته حال

---

(١) رسائل ابن حزم (١/ ٤٠٥).

(٢) الاستقامة (١/ ٤٠).

وقوع الظلم عليه، «**وذلك لأن درجة الحلم والصبر على الأذى والعفو عن الظلم أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة، يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام**»[1].

٢ ـ الظلم له تأثير بأمور أثقل من الأفكار فتأثيره على الأفكار من باب أولى، فالقارئ لعواقب الظلم وآثاره وما ينتج عنه يبصر أن من تلك العواقب ما هو أثقل في معيار التاريخ من الأفكار والآراء البشرية أو التي تحملها عقول البشر، فحين يرى المرء إبادة أمم بأكمها وكون ذلك أحد عواقب الظلم والجور يعلم بأن الأفكار جزء لا يتجزأ من اعتراء الظلم والجور عليها والتأثير بها في خلقها وإبادتها.

فإذا كانت الدول تُباد وتُمحى بالظلم وتُقام وتُنشأ على العدل فما بالك بالأفكار التي هي دون ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام**»[2].

ولذلك حين أدرك العادلون أثر الظلم على الدول فضلاً عن أثره على أفكار الأفراد والشعوب جعلوه صوب أعينهم لتفاديه فقد «**كتب إلى عمر بن عبد العزيز بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته، فكتب إليه: حصّنها بالعدل ونقّ طرقها من الظلم**»[3].

ولذلك كان نموذج العدل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي باليسير، إذا عرف صرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة، لما يعرف من غشم الولاة قبله على**

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٢٣٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٦).

(٣) العقد الفريد، تأليف: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ. (١/ ٣٠).

الناس، ولقد أنفد بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل إليها من الشام»[1].

٣ ـ وقوع الظلم على الأفكار في التأثير عليها كما هو في المواطن الأخرى، فإذا حصل الظلم بين العباد في الأموال والحقوق، كان ولابد أن يقع الظلم فيما بينهم في الأطر الفكرية والثقافية من ناحية الاستبداد بها وقمع وإقصاء الرأي المظلوم، ومن ناحية أخرى خمود وعدم صعود الأفكار الواقع عليها الظلم.

ولذلك كان النموذج الفرعوني في الاستبداد الفكري والثقافي، شاهداً على وقوع الظلم في الأفكار والآراء، فالأفكار الجائرة تلك التي تسطو على عقول من يقابلها وتسلب منها مُكنتها في التعبير أو التصريح وما إلى ذلك من أبجديات الرأي والفكر، وما يؤثر ذلك على السير النهضوي للأمة والأثر السلبي على الفضاء الفكري العام.

وقد رصد هذا الملمح الفكري والثقافي الرائد، شيخ التفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ **وتغمده في جنته ـ في تفسيره لقوله تعالى:** ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣]، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ عن ظلم فرعون وطغيانه:

«كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها»[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، تأليف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي (٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ـ إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت. الطبعة السابعة ـ بيروت. (٢/٢٤١ وما بعدها).

(٢) تفسير السعدي ص٣٠٠.

من شواهد محرك الظلم وتأثيره على الأفكار والمعتقدات:

ومن أبرز شواهد ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هي الفكرة الليبرالية الغربية المتمثلة في الحرية الفكرية والعقدية، والعلمانية الديمقراطية المتمثلة في النظام السياسي، أو النظريات العلمية التي زامنت مع تلك الحقبة أو قبلها، والتي كان محركها الأساسي والذي أدى إلى تشكلها هو الظلم والاستبداد الكنسي والسياسي والاجتماعي في العصور الوسطى، ما قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩م)[١].

فالطغيان الكنسي المتمثل في الأفكار الكنسية الدينية المحرفة أحكم السيطرة على عقول أتباعه، فقد عززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران المسمى بصكوك الغفران، وحق الحرمان والتي سوغت الطغيان والاستبداد وأظلت محاكم الهرطقة والاتهام بالكفرَ، فقد طال هذا الظلم والاتهام والحرمان أفراد المجتمع وخاصة أهل العلم الطبيعي والفلسفي منهم[٢]. ساهم ذلك وبلا شك في ردة فعل عنيفة تجاه الأفكار الدينية برمتها مما أدى إلى نشوء حرية ناقمة على الدين بأكمله والتي أقامت حريتها على رُفات الكنيسة وسقوطها.

وحضور سبب الطغيان الكنسي والظلم السياسي والديني وكونه من أهم الدوافع التي أخرجت وأظهرت الفكرة العلمانية والليبرالية وأسهمت في صناعة قصة الثورة الفرنسية واضحة جلية.

---

(١) للاستزادة: تاريخ الثورة الفرنسية، تأليف: ألبير سوبول، ترجمة: جورج كوسى، الناشر: منشورات بحر المتوسط ـ بيروت، منشورات عويدات ـ بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٨٩م، ص١٠١. وكتاب تاريخ أوربا الحديث، تأليف: جفري برون، ترجمة: علي المرزوقي، الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦. ص٣٥٨. وكتاب تاريخ أوربا في العصر الحديث، تأليف: هـ.ا.ل.فِشر، ترجمة: أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع. الناشر: دار المعارف ـ مصر، الطبعة السادسة. ص٥.

(٢) انظر: المهرطق، تأليف: ماتي ليسولا وجوناثان ويت، ترجمة: د. زيد الهبري، وجاد الله السيد محمود، مراجعة: خالد بن عبد الرحمن الشايع. الناشر: مركز تكوين للدراسات والبحوث ـ السعودية. الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م.

ويمكن فيما يلي أن أورد حضور هذا المحرك عند من درس تلك الحقبة حق دراستها وأفاد بذلك:

- «قد كان أكبر الدوافع إلى الإصلاح هو فساد الكنيسة فساداً عاماً واعتداؤها على الناس اعتداءً منكراً؛ فقد ظلت البابوية دهراً طويلاً وليس لها من مطمح إلا أن تصبح سلطة عالمية وأن تستغل نفوذها الروحي لقضاء مآربها الدنيوية..، لم يكن تمرد لوثر[1] نتيجة لثورة العقل على المبادئ التحكيمية، وإنما كان نتيجة الشعور العام بالسخط على رجال الدين، ذلك السخط الذي نتج من سلوك الكنيسة في ابتزاز الأموال وخاصة في لجوئها إلى بيع صكوك الغفران التي هي أكبر وصمة في ذلك العصر، إن البدع الدينية التي جاء بها لوثر قد كانت عاقبة دراسته لفكرة البابوية عن صكوك الغفران»[2].

- «إن الفلاسفة بصفة وديدرو[3] بصفة خاصة، كانت تعزوهم الحاسة التاريخية، إنهم قليلاً ما توفقوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التي حاربوها، وأية حاجات بشرية، لا ابتداعات كهنوتية أنتجتها وهيأت لها الدوام..، إن تحاملهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً ادعاء النزاهة أو عدم التحيز الذي ينبغي أن نعتبره الآن عنصراً أساسياً..»[4].

---

(١) هو مارتن لوثر (١٤٨٣م ـ ١٥٤٦م)، راهب ألماني. زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا. هاجم متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران، ترجم الكتاب المقدس إلأى الألمانية الدارجة عام ١٥٣٤م، فكان لذلك أثر كبير في تطور الأدب الألماني. انظر: معجم أعلام المورد، تأليف: منير البعلبكي، إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢م. ص٣٨٩.

(٢) حرية الفكر، تأليف: ج.بيورى، ترجمة: محمد عبد العزيز إسحاق، تقديم: إمام عبد الفتاح إمام، الناشر: المركز القومي للترجمة ـ القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠١٠م. ص٦٦.

(٣) هو دوني ديدرو، فيلسوف وناقد وعالم موسوعي فرنسي، ولد سنة ١٧١٣، يعتبر أحد أبرز ممثلي حركة التنوير، حرر هو ودالمبير (الموسوعة الفرنسية) أو (المعجم العقلاني للعلوم والفنون والحرف)، وضع عدداً من الروايات والمسرحيات والدراسات الفلسفية والعلمية، ومن آثاره: (خواطر في تعليل الطبيعة، ومبادئ الفيسيولوجيا)، توفي سنة ١٧٨٤م. معجم أعلام المورد، تأليف: منير البعلبكي، إعداد: الدكتور رمزي البعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢م. ص١٩٥.

(٤) قصة الحضارة، تأليف: ول وايريل ديورانت، ترجمة: محمد علي أبودرة، مراجعة: علي أدهم، =

ـ «إنه في ليلة جمة النشاط من ليالي شهر أغسطس (ليلة ٤) تنازل الأشراف ورجال الدين وأعضاء مجالس المقاطعات والبلديات والشركات والنقابات، في موجة من موجات الفزع والكرب، عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية، وانهار ذلك النظام القديم عند ارتطامه بالعواطف الثورية: تلك العواطف التي كانت الجمعية تساهم فيها إلى درجة كبيرة، ولكنها لم تفعل شيئاً لخلها أو توجيهها. ولم يحدث قط من قبل أن مجتمعاً شهيراً نبذ بعنف وشدة ماضيه التاريخي، كما فعل الآن المجتمع الفرنسي. . ، فقد وهبوا حق الحرية، وحق الملكية، وحق الكلام والخطابة، وحق مقاومة الظلم والتعسف.

كان هذا هو المنطلق، وتلك كانت العواطف التي استهوت فرنسا، واستحوذت على عقول أبنائها في صيف ١٧٨٩، وكان هذا هو نداء الديمقراطية الجديدة الذي وجهته شعوب أوربا..»[1].

= الناشر: دار الجيل ـ بيروت، بالتعاون مع المنظمة العربية للثقافة والعلوم ـ تونس. الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م. (٣٨/ ٦٤).

(١) تاريخ أوربا في العصر الحديث، تأليف: ه.ا.ل.فِشر ص١٤ ـ ١٦.

الاعتبار الشرعي لمحرك الظلم والجور

لقد جعلت الشريعة الإسلامية من الظلم والجور في هرمها التشريعي أولوية واهتماماً بالغاً فحرصت على منع وقوعه على المسلم من ناحية، ومن ناحية أخرى منعت أن يصدر من المسلم حتى لو كان عدوه، وغيرها من الاعتبارات الشريعة التي تؤكد للمسلم مدى قوة تأثير الظلم على أهله ومن وقع عليهم، ومن ذلك ما يعتنقونه من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات.

ويمكن فيما يلي أن أبين أبرز الجوانب الشرعية التي توضح هذه النتيجة والمراد:

١ ـ التحذير الشرعي من الظلم ومرتكبيه، فجاءت الشريعة الإسلامية مراراً في التحذير من الظلم وما يؤول أمره إلى عاقبة لا يحمد حالها وشأنها، وبقدر نتيجة الشيء وما يترتب عليه من الضرر يكون التحذير المتكرر على مزاولته والوقوع فيه.

ومن ذلك من يتأمل في النصوص الشرعية المحذرة من الظلم وكذلك التي نزهت الله ﷻ عنه يجد أن اعتبار الظلم وما يترتب عليه من آثار ليس هامشياً أو شيئا يستنبط فيُقاس عليه ثم يستدل به، بقدر ما جاء اعتباره صراحة وبكل وضوح وتكرار، ومن جملة هذه النصوص الشرعية:

ـ آيات تنزيه الله ﷻ عن الظلم، كقوله ﷻ في محكم التنزيل: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٨]، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك والمقررة لهذا التنزيه الكريم.

ومن ذلك ما جاء في الحديث القدسي: «قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا..»[(١)]

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

فمن عظمته تبارك وتعالى أنه حرم الظلم على نفسه، «**فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله، والله غني عن كل شيء، عليم بكل شيء، وهو غني بنفسه، وكل ما سواه فقير إليه، وهذا كمال العظمة**»(١).

ـ **الآيات التي أوردت حال الظالمين ومآل شأنهم للعبرة والعظة، قال تعالى**: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هُود: ١٠١ ـ ١٠٢]، وقوله تعالى بحق الظالمين: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سَبَإ: ٤٢]، وفي عاقبة الظالمين وجزائهم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ عن الظالم وحاله: «**إن الله ليُملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾»(٢) [هُود: ١٠٢].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «**فعلى الإنسان الظالم أن لا يغتر بنفسه ولا بإملاء الله له، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته؛ لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عادلا، فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم، لكن إذا أملي له واكتسب آثاما أو ازداد ظلما، ازدادت عقوبته والعياذ بالله فيؤخذ على غرة، حتى إذا أخذه الله لم يفلته، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاعتبار بآياته وأن يعيذنا وإياكم من ظلم أنفسنا ومن ظلم غيرنا، إنه جواد كريم**»(٣).

ـ **براءة الله عز وجل من فعل الظالمين ولعنتهم**، قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحَجّ: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٢٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦).

(٣) شرح رياض الصالحين، تأليف: محمد بن صالح العثيمين (١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ، (٢/ ٤٩٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هُود: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المَائدة: ٥١].

ـ **التحذير الشرعي المباشر عن الظلم**، ومن ذلك قوله ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**..»[1]، وقوله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة**»[2].

بل نهى النبي ﷺ عن وقوع الظلم بحق المعاهد الذمي، وأن المسلم لا يجوز له أن ينتقص من حقه شيء، قال ﷺ «**ألا من ظلم معاهدا، أو انتقصه من حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**»[3].

٢ ـ الاعتبار الشرعي في إقامة حق القصاص للمظلوم من ظالمه، وهذا وجه من وجوه اعتبار الشريعة الإسلامية لحال المظلوم، فحين أدركت الشريعة الإسلامية مدى تأثير الظلم على من ظُلم أقرت العدل بين الخلائق في رد المظالم إلى أصحابها وكون ذلك حق من حقوق المظلوم على الظالم، فالكفالة الشرعية في تشريع هذا الاقتصاص ورد المظلمة جزء لا يتجزأ من الاعتبار الشرعي لمراعاة ما يكون من أثر إذا لم يُحمل ذلك محمل التغليظ بين الخلائق. **قال تعالى**: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المَائدة: ٤٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود في صحيحه (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٨٣٥٠٦).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهذا أيضا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمدا وعنادا، ويقيدون النضري من القرظي، ولا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعنادا وعمدا، وقال هاهنا فأولئك هم الظالمون لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضا**»[1].

ولذلك جاء النهي الشرعي عن كل ما يؤجج نار الظلم بين العباد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحُجرَات: ١١].

وفي وجوب رد المظالم إلى أهلها قال ﷺ: «**لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها حتي يُقتص للشاة الجَّماء من القرناء**»[2].

٣ ـ الاعتبار الشرعي لردة فعل المظلوم ونفسيته تجاه الظالم، فالمتأمل للنصوص الشرعية يجد أنها أرعت الاعتبار لشأن المظلوم وما يمر به من الحنق على ظالمه، وما يهم به من الاقتصاص منه وجميع المشاعر النفسية التي يمر بها في هذه الحالة.

ومن أعظم الأدلة الشرعية التي جعلت من هذه الحالة للمظلوم شيئاً استثنائياً ومختلفاً عن الأحوال الأخرى التي يمر بها المسلم، قال رسول الله ﷺ: «**واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢).

فجاء هذا الاعتبار الشرعي لما يمتلئ به قلب المظلوم من الشعور المكنون الذي قد يفعل الأعاجيب لإطفاء جذوته، فقد جاءت الشريعة الإسلامية معتبرةً هذا الأمر من مراعاة حال المظلوم.

وهناك جملة من النصوص الشرعية جاءت تعزيةً وسلواناً للمظلوم، تهون عليه لهيب صدره وما يشعر به من الغبن وحرارة الظلم عليه، فقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣].

ومن التعزية الشرعية المعتبرة أن أتاحت الشريعة بعض الطرق التي ترشد المظلوم في ردة فعل وتخفف من لهيب حرارة الظلم في قلبه، ومنها ما جاء في الحديث: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره فقال اذهب فاصبر فأتاه مرتين أو ثلاثا فقال اذهب فاطرح متاعك في الطريق فطرح متاعه في الطريق فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره فجعل الناس يلعنونه فعل الله به وفعل وفعل فجاء إليه جاره فقال له ارجع لا ترى مني شيئا تكرهه**»[١].

وفي ذلك بوب ابن القيم في إعلام الموقعين بقوله: «**تحيل المظلوم على مسبة الناس للظالم**» وقال فيه: «**لا بأس للمظلوم أن يتحيل على مسبة الناس لظالمه، والدعاء عليه والأخذ من عرضه، وإن لم يفعل ذلك بنفسه؛ إذ لعل ذلك يردعه، ويمنعه من الإقامة على ظلمه**»[٢].

هذا الاعتبار الشرعي لمشاعر المظلوم وحاله وما يمر به هو ما دفع معاوية بن سفيان أن يقول: «**إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله**»[٣].

ومن الجوانب التي تعبر عن اعتبار الشريعة الإسلامية هو ما جاء من تقرير نصرة المظلوم والوقوف معه، ففي الحديث: «**انصر أخاك ظالما أو**

---

(١) أخرجه أبوداود (٥١٥٣)، وقال الألباني حسن صحيح في صحيح الترغيب (٦٣١٣٦).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٣).

(٣) العقد الفريد (١/ ٣٠).

مظلوما» قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: «تأخذ فوق يديه»، وفيما روي عنه ﷺ: **«أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع فذكر: عيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورد السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإبرار المقسم»**[1]، فالوقوف مع المظلوم ونصرته وتأييده هو جزء لا يتجزأ من الأخلاق الإسلامية.

٤ ـ التقرير الشرعي للهجرة من الظلم الواقع على المسلم حفاظاً على أفكاره ودينه، فجاءت الشريعة الإسلامية بالثناء على من قدّم دينه وعقيدته على مسايرة الظالم، فالتأكيد على الفرار بالدين من الظلم والجور هو تأكيد على الصلة الوثيقة بين وقوع الظلم وأثره على المظلوم وأفكاره وما يعتقده ويحمله من آراء.

قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ [النحل: ٤١]، ومن تأمل حال المسلمين في مكة قبل الهجرة علم أن الظلم مؤثرٌ على الأفكار والتصورات، فإن ظلم قريش لصحابة رسول الله ﷺ هو الذي أنتج فكرة الهجرة فلولا الظلم لما كانت الهجرة.

روي عن تلك الحال والأسباب المحركة للهجرة: **«لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه. فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا»، فخرجنا إليه أرسالا، حتى اجتمعنا، فنزلنا بخير دار إلى خير جار أمنا على ديننا»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن هشام (١/ ٣٣٤)، أبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٥)، وفي سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٨)، والهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: إسناده جيد (٣١٩٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريجه لأعلام النبلاء قال: سنده صحيح (١/ ٢٠٨).

٥ ـ التعليل الشرعي لعدم البغي على المخالف بسبب اعتبار الفكرة الناتجة عن ذلك، ومن أحد الدلالات الشرعية والتي يعرف الفاحص لها أن الظلم قد يكون محركا للفكرة، هو ما نُهي عنه من الظلم لعدم استثارة أفكارٍ ظالمة أخرى، واعتبار مآل التصرف والتصريح بالرأي في الشريعة الإسلامية له حضور وشواهد متعددة، فهذا الاعتبار هو تقرير بأن بعض الآراء سببها ومنشؤها هو وقوع الظلم عليها بمفهوم المظلوم ونظرته وليس بالضرورة أن يكون ظلماً قائماً بذاته.

وإذا كان الرأي ـ وإن كان حقاً ـ نُهي عن التصريح به لما ينتج عنه من الفكرة الظالمة فكيف يكون الابتداء بالبغي أو مقابلة الظلم بمثله والفساد بمثله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «**كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله بغير علم فانزل الله**: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. . ، **وذلك أنه في اللجاجة أن يسب الجاهل من يعظمه مراغمة لعدوه إذا كان يعظمه..، وكما يقول بعض الجهال: مقابلة الفاسد بمثله وكما قد تحمل بعض جهال المسلمين الحمية على أن يسب عيسى إذا جاهره المحاربون بسب رسول الله ﷺ وهذا من الموجبات للقتل**»[١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «**ولهذا كان السلف والأئمة يذمون أهل الكلام الذين يتكلمون بمثل هذا الكلام المشتمل على نوع من الباطل ويمنعون أن ترد بدعة ببدعة ويقابل الباطل بالباطل ويرد الفاسد بالفاسد، ولكن مع كون هذا يذم ويعاب فلا ينكر كونه خيرا من كلام أولئك كما أنا وإن كنا نذم ما يوجد في بعض المسلمين من ظلم وجهل فنحن نعلم أن ما في الكفار من ذلك أعظم**»[٢].

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٤٩٦.

(٢) الصفدية لابن تيمية (١/ ١٦٣).

المحرك الثاني عشر
التغيرات السياسية

«والسّبب الشّائع في تبدّل الأحوال والعوائد أنّ عوائد كلّ جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكميّة النّاس على دين الملك»

العلامة ابن خلدون

المقصود من محرك التغيرات السياسية

هو أن يكون أساس الفكرة من ناحية نشوئها أو انتشارها بسبب التغير السياسي الحاصل في الحكم العام والفضاء الفكري الذي يعيشه هذا الحكم، فيكون محرك نشوء الفكرة أو انتشارها هو الحكم السياسي المؤيد لهذه الفكرة أياً كانت في حال انتشارها ونشوئها، أو الحكم السياسي المعارض لها في حال دثورها وذبولها.

فالحاصل أن جملة من الأفكار في الفضاء الفكري والثقافي قد تتغير بتغير الحكم السياسي وقناعات هذا الحكم تجاه هذه الأفكار وبناءً على هذه القناعات تتوالد الأفكار تجاهها رفضاً أو قبولاً واضمحلالاً أو تكاثراً، فبهذه الحالة يكون تغير الحكم السياسي وما يدين به الحكام على هذه الأمة ـ أي أمة من أمم التاريخ ـ هو المؤثر حتى إنه يصل إلى مرحلة أن يدفع بالأفكار أن تخرج إلى الفضاء الفكري العام، فيسجلها التاريخ ويوثقها وقد تروج في الأمصار وبين الأمم.

تأثير محرك التغيرات السياسية في الفكر والأفكار والفضاء الثقافي:

لأبين مدى ارتباط المحرك بالأفكار وقوة تأثيره على الآراء والمعتقدات

في تشكلها ونشأتها من جهة، وفي قبولها ورفضها ومعارضتها من جهة أخرى، ويمكن فيما يلي أن أبين أبرز الجوانب التي من خلالها أصل إلى أن من دوافع الأفكار والآراء تغير الحكم السياسي وما يدين به الحكام في أي أمة من الأمم له:

١ ـ الطبيعة الإنسانية في التأثر بالسلطة الحاكمة عليه، فالإنسان بطبيعة خلقته وحاله يتأثر بمن حوله من الأحوال والأمور التي تشكل تصوراته للأشياء من حوله، فيصعب على الإنسان أن يتجاهل القوانين أو الأوامر السلطانية أو الأحكام التشريعية التي يعيش في كنفها وتحت إلزامه بها، فمن طبيعة الإنسان أنه إذا تقيد بتلك المقيدات تشكل عليها واعتاد أمرها وتشكلت تصوراته وأفكاره في حدودها.

بل إن العلامة ابن خلدون ﷺ يبين أن من الواجبات الإنسانية أن يتشكل الملك والسلطة بين البشر وحاجيتهم إلى الحكم؛ إذ ذلك نتيجة مدنيتهم الإنسانية، وكون أن الإنسان مدني بطبعه يذعن ويُسلم ويحتكم، يقول ﷺ: **«لمّا كان الإنسان متميّزا عن سائر الحيوانات بخواصّ اختصّ بها فمنها العلوم والصّنائع الّتي هي نتيجة الفكر الّذي تميّز به عن الحيوانات وشرّف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسّلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلّها إلّا ما يقال عن النّحل والجراد وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهاميّ لا بفكر ورويّة»**(١).

وفي وجوب هذه الحالة الطبيعة لاجتماع بني البشر، يقول شيخ الإسلام ـ ﷺ: **«يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها. فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»... فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع**

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/٥٣).

الاجتماع. ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم. وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة»[1].

٢ ـ أن من طبيعة الحكم والملك التأثير على أحوال الرعية واختياراتهم، فإن للسلطان قوة وللحكم السياسي تأثيراً يبلغ أبعد من فكر المرء فيبلغ جسده وروحه وغيرها من العظائم والتي هي أبعد تأثراً من الأفكار والآراء والمعتقدات.

ولذلك كان بطبيعة الحال أن الحكم والملك له تأثيرٌ في أفكار المحكوم وحاله وأمره، أما ترى الراعي يوجب على الرعية ما لم يستوجب عليهم الحاكم فيما قبل فيذعنوا له وتتغير أحوالهم وأمورهم جراء هذا الحكم الموجب لهم، فكذلك الأفكار تتأثر بظروف الحكم السياسي وما يصدر من أحكام وواجبات يتم الالتزام بها والإذعان إليها. **يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «اعلموا أنه لا يزال الناس مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم»**[2].

ولذلك شبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قوة التأثير بين الحاكم والوالي وبين رعيته بما يُنفق بالسوق فيؤثر ذلك بالجلب، قال رحمه الله: **«ينبغي أن يعرف أن أولي الأمر كالسوق، ما نفق فيه جلب إليه، هكذا قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة، جلب إليه ذلك، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة، جلب إليه ذلك. والذي على ولي الأمر، أن يأخذ المال من حله، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه»**[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩٠).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، تأليف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. الناشر: دار ابن الجوزي ـ السعودية. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. (١/ ٦٤١).

(٣) السياسة الشرعية، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن =

٣ - الوقائع التاريخية الدالة على العلاقة الوطيدة بين الحكم وطبيعته وحاله وبين أفكار وآراء الأفراد ممن كان منهم تحت هذا الحكم. ولعل أبرز من رصد هذه الظاهرة المتلازمة بين الأجيال وأفكارهم بدين ملوكهم وحاكميهم، هو العلامة ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول عن هذه الظاهرة:

«قد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسّريانيّون والنّبط والتّبابعة وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصّة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثمّ جاء من بعدهم الفرس الثّانية والرّوم والعرب فتبدّلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يجانسها أو يشابهها وإلى ما يباينها أو يباعدها ثمّ جاء الإسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال أجمع انقلابة أخرى وصارت إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السّلف ثمّ درست دولة العرب وأيّامهم وذهبت الأسلاف الذين شيّدوا عزّهم ومهّدوا ملكهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل التّرك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشّمال فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها **والسّبب الشّائع في تبدّل الأحوال والعوائد أنّ عوائد كلّ جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكميّة النّاس على دين الملك وأهل الملك والسّلطان إذا استولوا على الدّولة والأمر فلا بدّ من أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدّولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأوّل فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشّيء وكانت للأولى أشدّ مخالفة ثمّ لا يزال التّدريج في المخالفة حتّى ينتهي إلى المباينة بالجملة فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسّلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة**»[(١)].

= أبي القاسم ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ. ص٢٧.

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٣٨).

ومن ذلك ما ساقه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من واقع المزامنة بين الولاة والحكام العباسيين المعظمين للإسلام وبين أهل السنة والجماعة بين خبوت واعتلاء في ذلك، فيقول رحمه الله: «**تجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوي كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك مثل: دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان** ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين. كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر وأهل البدع أذل وأقل. فإن المهدي قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصي عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحج.

وذلك أنه لما انتشرت الدولة العباسية وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف..، ظهر حينئذ كثير من البدع وعربت أيضا إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم ـ من المجوس الفرس والصابئين الروم والمشركين الهند ـ

وكان المهدي من خيار خلفاء بني العباس وأحسنهم إيمانا وعدلا وجودا فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك..،

وفي دولة» أبي العباس المأمون ظهر الخرمية ونحوهم من المنافقين وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة. فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين وقوي ما قوي من حال المشركين وأهل الكتاب؛ كان من أثر ذلك: ما ظهر من استيلاء الجهمية؛ والرافضة؛ وغيرهم من أهل الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة. . .،

وكان في أيام «المتوكل» قد عز الإسلام حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية؛ وألزموا الصغار فعزت السنة والجماعة وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم. . .،

وكذلك السلطان «نور الدين محمود» الذي كان بالشام؛ عز أهل الإسلام والسنة في زمنه وذل الكفار وأهل البدع ممن كان بالشام ومصر وغيرهما من الرافضة والجهمية ونحوهم.

وكذلك ما كان في زمنه من خلافة بني العباس ووزارة ابن هبيرة لهم فإنه كان من أمثل وزراء الإسلام. ولهذا كان له من العناية بالإسلام والحديث ما ليس لغيره»[1].

من شواهد تأثير محرك التغيرات السياسية على الأفكار والمعتقدات:

أبرز شواهد حضور ذلك في فضاء الأفكار على صعيد التاريخ الإنساني والإسلامي، هو نموذج فكرة (القول بخلق القرآن) في التاريخ الإسلامي والتي لم يعرف عن الفكرة انتشارها وذيوعها إلا بعد التغير في الحكم السياسي في تلك الفترة والحقبة الزمنية والتي انقلبت من كونها فكرة إلى محنة سياسية امتحن فيها العلماء وطلبة العلم في تلك الفترة.

ويمكن فيما يلي أن أبين بعض التقريرات التراثية والتاريخية التي بينت أن التغير السياسي في الحكم هو من دفع إلى حضور واعتلاء هذه فكرة والرأي القائل بـ (خلق القرآن)[2]:

ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن المعطلة أنهم: «**لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه. ثم لما ولي الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم في آخر عمره وكتب إلى بغداد وهو بالثغر بطرسوس التي ببلد سيس إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتابا يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا: القرآن مخلوق فلم يجبه أحد ثم كتب كتابا ثانيا يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه فأجاب أكثرهم ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد وبقي اثنان لم يجيبا: الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح؛ فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه ثم أوصى إلى أخيه أبي إسحاق وكان هذا سنة ثماني عشرة ومائتين وبقي أحمد بن حنبل في**

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٠ ـ ٢٤).

(٢) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل، جمع: أبي عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد نغش، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

الحبس إلى سنة عشرين فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه»[1].

ـ يقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: «**فلما قتل ـ أي الأمين ـ واستخلف المأمون على رأس المائتين نجم التشيع وأبدى صفحته وبزغ فجر الكلام وعربت حكمة الأوائل ومنطق اليونان وعمل رصد الكواكب ونشأ للناس علم جديد مرد مهلك لا يلائم علم النبوة ولا يوافق توحيد المؤمنين قد كانت الأمة منه في عافية وقويت شوكة الرافضة والمعتزلة وحمل المأمون المسلمين على القول بخلق القرآن ودعاهم إليه فامتحن العلماء فلا حول ولا قوة إلا بالله إن من النبلاء أن تعرف ما كنت تنكر وتنكر ما كنت تعرف وتقدم عقول الفلاسفة ويعزل منقول أتباع الرسل ويماري في القرآن ويتبرم بالسنن والآثار**»[2].

ـ يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عن أمر الخليفة المأمون في ذلك: «**كتب المأمون إلى نائبه ببغداد..، يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن، وأن يرسل إليه جماعة منهم إلى الرقة ونسخة كتاب المأمون إلى نائبه مطولة**»[3].

ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «**والمحنة مشهورة معروفة كانت في إمارة المأمون والمعتصم والواثق؛ ثم رفعها المتوكل؛ فثبت الله الإمام أحمد فلم يوافقهم على تعطيل صفات الله تعالى وناظرهم في العلم فقطعهم وعذبوه فصبر على عذابهم فجعله الله من الأئمة الذين يهدون بأمره**»[4].

فمن هذه التقريرات التراثية يتضح مدى التأثير المباشر والمحرك الحقيقي وراء انتشار الفكرة القائلة بخلق بالقرآن ووقوع الفتنة على أهل السنة والجماعة وأن المحرك بذلك التغير السياسي من الرشيد إلى المأمون وأن الحالة العلمية

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٨٣).

(٢) تذكرة الحفاظ، تأليف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايمار الذهبي (٧٤٨)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م. (١/ ٢٤٠).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٢٠٧)..

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٤).

أو الفكرية استقر حالها على هذا القول والفكرة بعد تولي المتوكل الخلافة وأمر المسلمين «**ففي عهد المتوكل بعد الواثق ـ وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم، وكانت ولايته في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ـ خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، وطعن عليهم فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، ونهى عن الجدال والمناظرة في الآراء وعاقب عليهما، وأمر بإظهار الرواية للحديث فأظهر الله به السنة، وأمات به البدعة، وكشف عن الخلق تلك الغمة، وأنار به تلك الظلمة، وأطلق من كان قد اعتقل بسبب القول بخلق القرآن، ورفع المحنة عن الناس فاستبشر الناس بولايته**»[1].

(١) التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: محمد نغش، الناشر: الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة. طبعة سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م. ص٣٨٥.

المتأمل في النصوص الشرعية والهدي النبوي المبارك يدرك ما للحكم السياسي من تأثير على الأفكار والآراء والمعتقدات، جاء ذلك من عدة جوانب واعتبارات، ويمكن من خلال ما يلي أن أبين أبرز هذه الاعتبارات الشرعية في مدى تأثير الحكم السياسي على الأفكار والمعتقدات والآراء:

١ ـ التقرير الشرعي في أهمية الحكم الإسلامي بتطبيق الأحكام الشرعية، فقد جاءت الشريعة الإسلامية في التأكيد على أهمية تحكيم الشريعة وضرورة إقرار الحكم الشرعي وهيمنته على الأمم وأحوال الناس، تأكيداً على أثره في تشكيل الأفكار والأحوال والمعتقدات والآراء لمن هو تحت هذا الحكم الشرعي، فكم كان إرساء الأحكام الشرعية على شعب من الشعوب أو دولة من الدول محركا إلى هداية من كان على النصرانية أو غيرها من الملل.

ولذلك جاءت أحكامٌ كالمسائل المتعلقة بأهل الذمة، أن الاعتبار في التحكيم والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية أشد من هداية الأفراد مع وصول الداعي إليهم، **وفيما يلي أورد النصوص الشرعية التي أكدت على أهمية الحكم الشرعي:**

ـ حكم الله ﷻ بالكفر والظلم والفسق لمن لم يحكم بما أنزل من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المَائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المَائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المَائدة: ٤٧].

«هذه الآيات من سياق التي قبلها والتي بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها؛ لما عرض لهم من الفساد، وبيان مثل ذلك في الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتي من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك، ومنه يعلم أن العبرة بالاهتداء

بالدين، وأنه لا ينفع أهل الانتماء إليه إذا لم يقيموه؛ إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هداية دينهم هو الذي أعماهم عن نور القرآن، والاهتداء به»(١).

ـ الأمر الرباني المباشر للتحكيم الشرعي وإبطاله للحكم الجاهلي، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المَائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم**»(٢).

ـ مدح الله تعالى عباده المستجيبين لحكمه وحكم رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النُور: ٥١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزَاب: ٣٦]» أي: لا ينبغي ولا يليق، ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما»(٣).

٢ ـ التقرير الشرعي في تأثير الحكم والسلطان المباشر على الأفكار والآراء، فقد جاءت الشريعة الإسلامية في تقرير أن للحكم والسلطان سلطة

---

(١) تفسير المنار (٦/٣٢٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/١١٩).
(٣) تفسير السعدي ص٦٦٥.

وقوة يستطيع من خلالها إرساء الأحكام الشرعية وإقرارها في عقول ونفوس أفراد الرعية، وقد روي عن عثمان بن عفان ﷺ قوله: **(إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن)**[1].

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله معلقاً على ذلك: «**وهذا صحيح، كثير من الناس لو جئته بكل آية، لم يمتثل، لكن إذا جاءه وازع السلطان بالضرب والسجن ونحو ذلك أذعن، وترك باطله.. لماذا؟! لأن قلبه مريض، ولأنه ضعيف الإيمان أو معدوم الإيمان.. فلهذا لا يتأثر بالآيات والأحاديث.. لكن إذا خاف من السلطان ارتدع ووقف عند حده، ووازع السلطان له شأن عظيم.**

ولهذا شرع الله لعباده القصاص والحدود والتعزيرات لأنها تردع عن الباطل، وأنواع الظلم، ولأن الله يقيم بها الحق، فوجب على ولاة الأمور أن يقيموها، وأن يعينوا من يقيمها، وأن يلاحظوا الناس، ويلزموهم بالحق، ويوقفوهم عند حدهم حتى لا يهلكوا، وينقادوا مع تيار الباطل، ويكونوا عونا للشيطان وجنده علينا»[2].

يقول الماوردي رحمه الله بعد ذكره مقولات عن تأثير السلطان وحكمه: «**فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها. ثم لما في السلطان من حراسة الدين والدنيا والذب عنهما ودفع الأهواء منه، وحراسة التبديل فيه، وزجر من شذ عنه بارتداد، أو بغى فيه بعناد، أو سعى فيه بفساد.**

وهذه أمور إن لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء، وتحريف ذوي الآراء، فليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه، وطمست أعلامه. وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر فيه وهاية أثر.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٣٥.

(٢) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للعلامة عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز (١٤٢٠هـ)، أشرف على طباعته: محمد بن سعد الشويعر. الناشر: دار القاسم للنشر ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ. (٥/ ٦٧).

كما أن السلطان إن لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا، والتناصر عليه حتما، لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو، وكان سلطان قهر، ومفسدة دهر.

ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه، والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه»[1].

٣ ـ **التعهد الشرعي للراعي والحاكم على رعيته،** فقد جاءت الشريعة الإسلامية في التأكيد مراراً على أن الراعي والحكام هو من يتحمل وزر أفكار واعتقادات الرعية.

فكم جاءت النصوص الشرعية في تحميل الراعي أمانة الرعية، وما ذاك إلا لاعتبار الشرع قيمة الراعي على الرعية ومدى قوة تأثيره على الأفكار والآراء وأنه هو من يكون مسؤولاً عليهم، وفيما يلي أبين جملة من هذه النصوص:

ـ **مدح النبي ﷺ للإمام العادل وما له من الأثر، قال ﷺ «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل،** وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه..»[2].

وفي الحديث: «أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»[3].

ومن نماذج أثر عدل الوالي والإمام على رعيته، نموذج الإمام العادل عمر بن عبد العزيز فقد خطب لرعيته يوماً: «**ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا**

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٣٥.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

المخالف سرها علانيتها»[1].

- **تحميل الوالي والإمام مسؤولية الرعية**، قال ﷺ: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها**»[2].

ومن ذلك قوله ﷺ: «**ما من وال يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة**»[3].

٤ - تعليق بعض الأحكام الشرعية بالحكام الشرعي من إقرارها أو عدمها، فقد جعلت الشريعة الإسلامية مساحة من الأحكام والتشريعات في الحكم الإسلامي تعود إلى الحاكم والوالي والسلطان.

وهذا يدل على أن تأثير الحاكم وحكمه حاضراً في وقوع الأحكام الشرعية من عدمه، وفي سياق ذلك لابد أن يتضح مدى تأثير الحاكم والسلطان ورأيه وما يدين به رعيته، وهذه المساحة تسمى بأكثر من مسمى في العلوم الشرعية، فتأتي حيناً باسم (**الأحكام السلطانية**)، وأحايين باسم (**السياسة الشرعية**)، وشاهدُ تقريرها أنها أداةُ تأثيرٍ على أفكار أفراد الرعية وآحاد الأمة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢).

محركات الأفكار والخطابات الحداثية المعاصرة

إن كل أداة علمية لها معيار في ضبطها وتحديد صحة استعمالها من عدمه، وما نحن بصدده في هذه الآثار العقدية هي نتيجة من الاستعمال الخاطئ لقراء الأفكار والمسائل والآراء والمعتقدات، فكما يبحث من استعمل الدوافع في الأفكار لابد له أن يكشف حال من استخدم ذلك بالطريقة الخاطئة.

والفاحص للفضاء الفكري المعاصر يجد في مساحته جملة من القراءات للأفكار والتصورات التراثية، ومن أبرز الآثار العقدية لهذه القراءات **هو استعمال الخطاب الحداثي العربي المعاصر للدوافع السياسية في المسائل العقدية، ورفع لافتة التفسير السياسي لجملة من الآراء والتصورات العقدية في التراث الإسلامي**[1].

ويكمن هذا التجاور الأدائي الحداثي في قراءة الأفكار التراثية، أنها جعلت من الأفكار والآراء العقدية التي قررها العلماء في التراث الإسلامي أفكاراً سياسيةً عبّر عنها العلماء بلغة دينية، وكذلك الحال في ظاهرة الفرق والعقائد المختلفة كون أنها في حقيقتها دوافع سياسية متحققة في فرق وطوائف جعلت من المسائل العقدية أرضاً خصبة للعراك وتصفية الحسابات.

---

(١) راجع: التفسير السياسي للقضايا العقدية في الفكر العربي المعاصر، تأليف: د. سلطان بن عبد الرحمن العميري، الناشر: مركز تأصيل للدراسات والبحوث ـ جدة، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م. وكتاب المحدثون والسياسة (قراءة في أثر الواقع السياسي على منهج المحدثين)، تأليف: د. إبراهيم بن صالح العجلان، الناشر: مركز دراسات البيان للنشر والتوزيع ـ الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ.

يقول محمد عابد الجابري عن دور المحرك السياسي في الخريطة العلمية الإسلامية: «**الواقع أن أي تحليل لتاريخ الفكر العربي والثقافة العربية، سواء كان من منظور تاريخي أو منظور بنيوي، سيظل ناقصاً وستكون نتائجه مضللة إذا لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر وتحديد مساره ومنعرجاته.**

ذلك لأن الإسلام، الإسلام التاريخي الواقعي، كان في آن واحد ديناً ودولة، وبما أن الفكر الذي كان حاضراً في الصراع الأيديولوجي داخل الإسلام/ الدولة كان فكراً دينياً، أو على الأقل في علاقة مباشرة مع الدين، فإنه كان أيضاً، ولهذا السبب في علاقة مباشرة مع السياسة.

ليس هذا وحسب، بل إن العلاقة بين الفكر والسياسة داخل الإسلام/ الدولة لم تكن تتحدد بسياسة الحاضر وحده كما هو الشأن في المجتمعات المعاصرة، بل كانت تتحدد أيضاً بسياسة الماضي. ذلك لأن سياسة الحاضر، سواء بالنسبة للدولة أو للمعارضة إنما كانت تجد تبريرها في سياسة الماضي، ومن هنا ظل الماضي السياسي يعتبر على الدوام أصلاً للتشريع. إنه المضمون الحقيقي للإجماع (إجماع السلف)، الأصل الثالث من أصول التشريع في الإسلام»[1].

فصّل الجابري قراءته للأصول التي قام عليها التشريع الإسلامي وعلوم الفقه وأصوله والعقيدة وأصولها، والعجيب أنه انتزع من سياق هذا الاستعمال الأدائي للدوافع علومَ الفلسفة والطب وعلق في أعناق أصحابها براءة وسلامة دوافعهم السياسية وتنزيه علومهم مما خاض به السلف في تقرير علومهم ومسائلهم!!

يقول في سياق ذلك: «**ما نريد إبرازه من خلال هذه الملاحظات السريعة هو أن الدور المحرك للحياة الثقافية في التاريخ العربي الإسلامي كان**

---

(١) إشكاليات الفكر العربي المعاصر، تأليف: الدكتور محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. الطبعة الثانية: ١٩٩٠م. ص٦٠ ـ ٦١.

للسياسة..، إن الصراع كان يجري بين الإسلام/ الدولة والإسلام/ المعارضة، فكان صراعاً يكتسي صورة ممارية السياسة في الدين والدين في السياسة.

أما العلم، علم الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم فكان يقع خارج حلبة الصراع، ولذلك لم يكن له أي دور يذكر في المعارك الفكرية والأيديولوجية وبالتالي فهو لم يساهم في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه وفحص قبلياته ومسبقاته، فبقي الزمان الثقافي العربي هو هو، بقي ممتداً على بساط واحد من نهاية عصر التدوين إلى بداية عصر ما بعد ابن خلدون إلى قيام النهضة العربية الحديثة.. إلى أيامنا هذه»[1].

ومن المسائل العقدية التي طالها التأويل الحداثي باستعمال المحرك السياسي عليها هي أقوال وتقريرات أئمة السلف في أبواب العقيدة عموماً وفي باب الأسماء والصفات خصوصاً، فقد تكررت الاتهامات بأنهم إنما قالوا كثيراً من أقوالهم في الصفات لأجل أغراض سياسية.

يقول حسن حنفي[2]: **أما الصفات التي تجعل الله يسمع ويرى ويبصر كل شيء، فقد تمت صياغتها من أجل استخدام سياسي خاص للسلطة»[3]،** ويقول للعلماء في المقدمات التي يبدؤون بها كتاباتهم وخطبهم بتوحيد الله في أسمائه وصفاته وإفراده بالحمد إنما كان محركها سياسياً للسطوة والسلطة، يقول في الغاية التراثية من إقرار وتكرار هذه المقدمات بطريقة تسلسلية تعسفية بقوله:

«تبدأ المقدمات التقليدية بتنزيه الله تنزيهاً مطلقاً، والإعلان عن أوصاف

---

(١) إشكاليات الفكر العربي المعاصر ص٦٠ ـ ٦١.

(٢) حسن حنفي، مفكر مصري ولد في القاهرة ١٩٣٥م، تخرج من جامعة القاهرة علم ١٩٦٥م، انشغل بالتيار الاشتراكي الذي تبنته الثورة المصرية، ثم سافر إلى فرنسا، وهناك أعجب بدين العقل والطبيعة عند فلاسفة الغرب، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة السربون، ويعتبر من أوائل من طبقوا على النص الديني آليات النص البشري الذي سبقه إليه طه حسين. راجع: السيرة الذاتية التي كتبها حسن حنفي في كتابه: الدين والدولة في مصر.

(٣) من العقيدة إلى الثروة (المقدمات النظرية)، تأليف: حسن حنفي، الناشر: مؤسسة هنداوي ـ المملكة المتحدة، الطبعة الأولى: ١٩٨٨م. (١/٩).

ذاته الكاملة، وصفتها المطلقة..، فإن المقدمات الإيمانية تُعلن عن هذا الوجود المطلق الأوحد باعتباره قدرةً شاملة، وإرادة مسيطرة، فهو الذي يُبدئ ويُعيد، وهو الذي يبدأ ويقرر، وهو الذي يحيي ويميت، ويظل العالم الأصولي القديم يتغزل في هذه القوة المسيطرة لدرجة الفناء فيها، وكلما شعر بعجزه قوي مدحه، وكلما شعر بأن الكون لا يسير وفقاً لام يحب تصور وكأن الآخر قد قام بدلاً عنه بالسيطرة على هذا الكون المفقود، وبالتالي ينشأ السلطان؛ الديني أولاً ثم السياسي ثانياً، ويصبح للعالم مركز سيطرة واحد لا يتزحزح، ويكون السلطان متفرداً بسلطانه، لا ينازعه أحد، ولا يشاركه شريك، ولا يعارضه معارض، ولا يقف بجواره ند. يملك كل شيء، ويقدر على كل شيء، لا معقب على قراراته وأوامره؛ ومن ثم كان من السهل الانتقال من السلطان الديني إلى السلطان السياسي، ومن الحمد لله إلى الحمد للسلطان، ومن الثناء على الله إلى الثناء على السلطان، ومن طلب العون والمغفرة من الله إلى طلبهما من السلطان؛ لأن التكوين النفسي للطالب واحد، وأحد البدائل يؤدي نفس الوظيفة التي يؤديها الآخر»[1]!!

وفي مشهد التسلسل الفظيع ولَيِّ عنقِ الرأي إلى المحرك السياسي يصل حنفي إلى نتيجة غريبة انطلق بها من المقدمة الإيمانية حتى أوصلها إلى التزلف إلى السلطان في المشهد السياسي!!، يقول:

«في هذه المقدمات الإيمانية تتحدد علاقة الإنسان بالله؛ ليس فقط على مستوى المعرفة والنظر، بل أيضاً على مستوى السلوك والعمل؛ فالإنسان يحمد الله على نعمه، ويشكره على فضله، مما يجعل العلاقة أحادية الطرف، من واهب إلى موهوب، ومن معطٍ إلى مُعطى، وتجعل الإنسان مجرد وعاء للنعم، ومستقبل للعطايا، ومنتظر للجود والإحسان، قد يرفض الإنسان بطبيعته الكرم والفضل، وقد ينفر من الهبات والعطايا؛ لأنه يأبى أن تكون يده هي السفلى، ويد غيره هي العليا.

(١) من العقيدة إلى الثروة (المقدمات النظرية) (١/ ١٠ ـ ١٢).

وإن كثيراً من مآسي عصرنا لهو انتظار الكرم والجود، والتشوق إلى الهدايا والعطايا، والتزلف من أجل هبات السلطان حتى أصبح العصر كله عصر تعايش وارتزاق..»[1].

وفي مسألة من مسائل العقيدة وهي حكم مرتكب الكبيرة في الإسلام ينظر إليها حنفي بمنظوره وبقراءته الحداثية وبلغة تعميمية عارية يقول:

«لا يوجد حكم واحد لمرتكب الكبيرة، بل تعدد الأحكام طبقاً للمواقف السياسية وللموقع من السلطة.. وإن الحجج النقلية والعقلية والحجج المضادة كلها قراءات للنص وإسقاط من الموقع عليه، سواء الموقع من السلطة أو الموقع من المعارضة»[2].

يقول الجابري في ذلك: **«قضية الإيمان في العصر الأموي كانت ذات مضامين سياسية، وكان الخوارج كما ذكرنا هم الذين جعلوها كذلك، بينما كان أنصار الأمويين يجعلون الإيمان فقط الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله...إلخ، وهذه وجهة نظر كان الهدف منها الإبقاء على الخلفاء الأمويين المتهمين بالظلم»**[3].

الخلل في الاستعمال الحداثي لمحركات الأفكار والدوافع:

إن من يتفحص القراءة الحداثية للتراث يجد أنها وقعت بالحيف في استعمال أداة الدوافع السياسية للآراء العقدية من جوانب متعددة أبرزها ما يلي:

ـ القفز من مربع السبب إلى مربع المنطلق الدائم والأصل المطرد، فالقراءة الحداثية جعلت من المحرك السياسي أصلاً وأساساً في القراءة التراثية حيث إنها جعلت الأفكار تنطلق من المحرك السياسي حتى يثبت ضد ذلك ما

---

(١) من العقيدة إلى الثروة (المقدمات النظرية) (١/١٣ وما بعدها).

(٢) المرجع السابق (٥/١٢٢).

(٣) العقل السياسي العربي (محدداته وتجلياته)، تأليف: د. محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، الطبعة الرابعة: ٢٠٠٠م. ص٣١٤.

يُبرئ صاحب الفكرة في خلوها من المنطلق السياسي، بخلاف من يقرر أن التاريخ الإسلامي لا يخلو من حضور المحرك السياسي غير أنه يتعلق بظرف من الظروف الزمنية أو مسألة من المسائل العلمية، فيكون في دائرته المعتبرة وحيزه الأدائي كونه محركا قد يعتري بعض الأفكار، لا أن يُجعل منطلقاً تراثياً يُتكأ عليه في كل قراءة تفسيرية للتاريخ.

ـ **تحويل الأداة القرائية إلى أداة فكرية حداثية**، حيث إن قراءة الأفكار والبحث في جذورها والتنقيب في أحوال نشوئها توجب كونها أداة قائمة بذاتها أي أنها تشمل الدوافع المتعددة التي تتجاوز الدوافع السياسية إلى غيرها من الدوافع، غير أن القراءة الحداثية جعلت من هذه الأداة المعرفية في قراءة الأفكار والآراء أيقونة أيديولوجية للخطاب الحداثي يُباهي برفع لافتتها أمام الخطابات الأخرى والمسائل العلمية والآراء التراثية.

ومن يقرأ في النصوص الحداثية التأويلية يجد نفس الملكية الفكرية لهذه الأداة، وذلك من خلال الإشادة بالنقص في القراءة التراثية الخالية من هذه القراءة التأويلية، وكذلك من الاستهلاك المنهجي لدوافع الأفكار.

اعتبار المحركات في القراءة الفكرية

للمناهج العلمية مواطنها الموضوعية تصل إليها عبر الأدوات والوسائل والطرق، وكان ولابد أن للبحث في محركات الأفكار والتنقيب عن جذورها والمؤثرات بها بطبيعة الحال تأثيراته على هذه الأدوات والطرق والوسائل.

وكما هو معلوم أن لكل مدرسة أو مذهب أو طائفة منهجٌ يُسار به، وطريقة يُستدل من خلالها، وأصولٌ وأبجديات، **وهذا ما أعنيه أي: الحيز الاعتباري لمحركات الأفكار في مساحات المنهج وأصوله وطرائقه ووسائله،** فمن ينقب عن موقع ومنزلة البحث في محركات الأفكار وبواعثها في هرم الأولويات المنهجية في المدارس التراثية والمعاصرة المختلفة، يجد أن الأثر المنهجي الذي أنتجته تلك المحركات والبحث فيها ليس بالأمر اليسير الذي يمكن للباحث في محركات الأفكار أن يتفاداه في الطرح والبحث.

فإذا كان التفاوت والتباين أحدَ دوافع الأفكار لأن هذا التفاوت حاصل وواقع ـ بطبيعة الحال وكما سبق بيانه ـ؛ فإنه كذلك بالنسبة إلى النظر للدوافع ومحركات الكوامن وفي منزلة اعتبارها واستعمالها، ودرجة هذا الاعتبار المنهجي لتلك الدوافع والبواعث والمحركات.

وهذا الاعتبار المنهجي لمحركات الأفكار، هو أحد التجليات المنهجية والآثار الأيديولوجية في بلورة التصورات عن الآراء والأفكار والتفسيرات المقابلة من جهة، **ومن جهة أخرى تابعة لهذا الاعتبار هي الآثار المنهجية**

المتعلقة في التعامل المتبع مع الفكرة التي تم اكتشاف محركها وسببها، ومدى تعاطي السلوك المنهجي الحاصل تجاه هذه الفكرة وهذا الرأي.

ولذلك فمواطن البحث في المحركات بالأطر المنهجية ليست في زاوية مظلمة أو أنها ترف معرفي في تناول المنهجيات للعلوم والأفكار، وفي اقتباس ونموذج للمنهجية العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي جعلت من المحركات للأفكار منزلتها الصحيحة المعتبرة، ومن ثم جعلت الأثر المنهجي الآخر حاضراً في الأخذ بنتيجة هذا البحث في محرك الفكرة إلى الحكم المترتب على ذلك والسلوك المطلوب والتعامل المثالي مع هذه الفكرة.

فالنموذج التيمي في تناول محركات الأفكار والآراء فيما يتعلق بالشبهة حيناً وبالشهوة أحايين وبالمزيج بين الشهوة والشبهة أحايين أخرى بيّن شيخ الإسلام المراتب في كل محرك من كل واحد منهم، ثم وضح ما يترتب من الحكم والثمرة، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وسبب الفرق بين أهل العلم وأهل الأهواء ـ مع وجود الاختلاف في قول كل منهما: ـ أن العالم قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد وهو مأمور في الظاهر باعتقاد ما قام عنده دليله وإن لم يكن مطابقا...، فالاعتقاد المطلوب هو الذي يغلب على الظن مما يؤمر به العباد وإن كان قد يكون غير مطابق وإن لم يكونوا مأمورين في الباطن باعتقاد غير مطابق قط.

فإذا اعتقد العالم اعتقادين متناقضين في قضية أو قضيتين مع قصده للحق واتباعه لما أمر باتباعه من الكتاب والحكمة: عذر بما لم يعلمه وهو الخطأ المرفوع عنا؛ بخلاف أصحاب الأهواء. فإنهم.. يجزمون بما يقولونه بالظن والهوى جزما لا يقبل النقيض مع عدم العلم بجزمه، فيعتقدون ما لم يؤمروا باعتقاده لا باطنا ولا ظاهرا. ويقصدون ما لم يؤمروا بقصده ويجتهدون اجتهادا لم يؤمروا به، فلم يصدر عنهم من الاجتهاد والقصد ما يقتضي مغفرة ما لم يعلموه فكانوا ظالمين شبيها بالمغضوب عليهم أو جاهلين شبيها بالضالين.

فالمجتهد الاجتهاد العلمي المحض ليس له غرض سوى الحق. وقد سلك طريقه. وأما متبع الهوى المحض: فهو من يعلم الحق ويعاند عنه...

وثم قسم آخر ـ وهو غالب الناس ـ وهو أن يكون له هوى فيه شبهة فتجتمع الشهوة والشبهة...،

فالمجتهد المحض مغفور له ومأجور. وصاحب الهوى المحض مستوجب للعذاب. وأما المجتهد الاجتهاد المركب من شبهة وهوى: فهو مسيء.

وهم في ذلك على درجات حسب ما يغلب وبحسب الحسنات الماحية. وأكثر المتأخرين ـ من المنتسبين إلى فقه أو تصوف ـ مبتلون بذلك»[١].

الخطابات المعاصرة واعتبار المحركات في القراءة الفكرية:

هناك من رفع المنزلة في محركات الأفكار حتى أعطاها فوق منزلتها ومكانتها، ومنهم من أهملها ولم يعتبر مؤثرات هذه الدوافع على الأفكار والتصورات والآراء في الفضاء الفكري.

ويمكن أن أبين الموقف المنهجي للمدارس التراثية والاتجاهات الفكرية المعاصرة تجاه دوافع الأفكار من خلال ذكر هذه المراتب في النظر والاعتبار والمنزلة:

الاتجاه الأول: الغلو المنهجي في اعتبار دوافع الأفكار:

وهو الاتجاه **الذي أنزل محركات الأفكار منزلة فوق المنزلة الاعتبارية لها، وجعلها أولوية منهجية في هرم قراءة أي فكر ورأي**، وذلك من حيثيات ووجهات متعددة:

أولها: أن يجعل أهل الغلو من المحركات أحادية في قراءة وتناول الأفكار والآراء، فلا يكون المحرك مؤثراً على الفكرة باعتبارهم له، ولا أن يكون هو أحد الدوافع التي أفرزت هذه الفكرة، بل يفردون الهدف من طرح هذه الفكرة للمحرك الوحيد المُستنبط أو المُكتَشف.

وثانيها: أن يجعل أهل الغلو من المحركات أولوية محورية في التأويل والتفسير العلمي للمسائل والأفكار، فحين يبدأ أصحاب الغلو في تفسير أحد

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٤٥).

الظواهر العلمية أو طرح مسألة من المسائل أول ما يتبادر إليه ليس المسألة ذاتها بقدر ما هو المحرك الكامن والأكيد تواجده خلفها، ثم تظهر على إثر هذا الوقع المنهجي القراءة التعسفية للأفكار وليِّ أعناقها إلى المحركات والدوافع المنصوبة خلفها بقصد أيديولوجي لقارئ الفكرة، فلا تكون الأداة في قراءة الأفكار من دوافعها خطوة ضرورة المرور بقدر ما تكون ضرورة الوقوع والحدوث.

وثالثها: أن يجعل أهل الغلو من المحركات أداة تباهي منهجي ولافتة إبطال للأفكار المضادة والمخالفة، ويكمن ذلك في طبيعة الحصرية المنهجية من جهتين: الأولى الجانب الاستعمالي لأداة قراءة الأفكار والآراء من خلال اكتشاف دوافعها، والأخرى هي الحصرية في التوزيع المعرفي والاستمداد لمنهج المستشرقين لأصل هذه الأداة في قراءة الأفكار والآراء من خلال البحث عن دوافعها وبواعثها.

ولعلي فيما يلي أحقق كل ما ذكر من ملامح وحيثيات، في أبرز نموذج للغلو المنهجي في المحركات والدوافع وهي **(القراءة الحداثية لأفكار التراث الإسلامي)**:

- ففي النعت الحداثي لتناول العلماء لتاريخ العلوم في الإسلام، والتباهي بالأداة القرائية وحيث إنها غابت عنهم، وكذلك في الاستمداد الحداثي المنهجي من المستشرقين، **يقول عبد المجيد الصغير**[1]:

«كان ذلك حرياً أن ينبه مؤرخي الإسلام إلى تلك الجدلية الممكن ملاحظتها بين نشأة العلم والإطار الاجتماعي والسياسي على وجه التحديد؛ خصوصاً بعدما أبدى هؤلاء القدماء اهتماماً زائداً بالسير وتاريخ الطبقات وأدب المناقب؛ بل منهم من اهتم برصد المحن السياسية المسلطة خاصةً على رجل العلم في الإسلام.

---

(١) هو الدكتور عبد المجيد الصغير، أستاذ الفلسفة وتاريخ الفكر الإسلامي بكلية الآداب في جامعة محمد الخامس في الرباط ـ المغرب، ولد فيها، من كتبه وإصداراته المنشورة: (إشكالية إصلاح الفكر الصوفي المغربي، تجليات الفكر المغربي، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية) وغيرها.

ولقد كان بإمكان هذه المادة التاريخية والسياسية الغزيرة أن تخترق حجاب الظاهر، وتنفذ إلى الحياة الشخصية والفكرية لصاحب المناقب، وتنبه الواقف عليها إلى العلاقة الممكن رصدها بين الظرف السياسي وبين مناسبة تصدر رجل العلم لبث علمه أو انكبابه على التأليف وتشكيل نظرياته، غير أنه على الرغم من هذه الإمكانية المتاحة لتأطير العلم الإسلامي، اجتماعياً وسياسياً، فإن اهتمام القدماء برصد ذلك وإبرازه يكاد يكون منعدماً.

وإذا كانت هذه المشكلة لم تعد اليوم مجهولة بالنسبة لتاريخ العلم في الإسلام، منذ أن فتح المستشرقون.. البحث في هذا المجال»[1].

ـ وفي البيان الحداثي عن مدى أولوية ومحورية الدوافع في قراءة العلوم الإسلامية ونشأتها، يبين الصغير ذلك في محورية المحرك السياسي في تلك العلوم، بل إنه لا يمكن أن تقوم إلا من خلالها، فيقول:

«كيف يمكن إنجاز تقويم للعلم في الإسلام، سواء من حيث النشأة أو الأهداف والمقاصد أو التطور، دون أن نضع في الاعتبار أهمية دور السلطة السياسية ومؤسساتها المختلفة، كإطار اجتماعي ومعطى واقعي، حيث لا تكف تلك السلطة عن ترك بصماتها على كل من يمر في طريقها، ويساكنها، ويقاسمها الأرض والهواء؟!»[2].

ـ وفي قراءة حداثية أخرى فعلى سبيل المثال قراءة الجابري لأصل من أصول الأحكام الشرعية وهو **(الإجماع)**، فحين بدأ الجابري في قراءته للإجماع تمحورت أداته على جانب الدوافع وانطلق منها واستدل على صحة انطلاقه من خلال ابتدائه منها لا من خلال تقصيها، وكون هذه الدوافع أساساً منهجياً في قراءة الأفكار والمعتقدات لا يمكن التخلي عنه أو إبطاله، بل إن

---

(١) الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام (قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة)، تأليف: عبد المجيد الصغير. الناشر: دار المنتخب العربي ـ بيروت، توزيع: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م. ص٧٩ ـ ٨٠.

(٢) المرجع السابق ص٧٩.

كل جانب من جوانب المسألة تتمحور حول المحرك وصلتها به، فيقول الجابري عند تناوله وقراءته للإجماع:

«نحن هنا أمامنا ثلاثة أفكار رئيسية:

١) أن الإجماع ولو أنه ذو أصل أصيل في الدين فإن أمره يرجع تاريخياً إلى حادثة سياسية، وهي اجتماع الصحابة لاختيار خليفة للنبي بعد وفاته.

٢) أن العصر الأول، عصر الصحابة، عصر بناء الدولة الإسلامية، قد امتاز بالتشاور في كل ما لا نص فيه، وأنه من خلال عملية التشاور هذه كان أهل الحل والعقد يشتركون في وضع أسس تاريخية واجتماعية لمصدر الإجماع الشرعي بمعنى أن الإجماع كأصل من أصول التشريع إنما يجد مصدره في التاريخ والمجتمع، لا في أي شيء آخر، وأنه إنما يعني من الناحية العلمية، التشاور في كل ما لا نص فيه.

٣) أن تحول الحكم في الإسلام بعد العصر الأول إلى الحكم المطلق الوراثي قد أدى إلى تقييد النظر والقضاء على التشاور وبالتالي على المضمون الحقيقي لفكرة الإجماع»[١].

لم تقف القراءة الحداثية الجابرية إلى هذا الحد من محاولة تأكيد انطلاقه من المحرك السياسي أنه حقيقة الأصل الشرعي (الإجماع)، بل إن الأمر تطور في طغيان القراءة الدوافعية إلى أبعد من ذلك وهي الوصول إلى النتيجة من هذه القراءة والانطلاقة المنهجية والتي جعلت من الأصل الشرعي (الإجماع) بصورته التراثية، هي الديموقراطية في صورتها المعاصرة! فيقول بعد ذلك:

«وبذلك يصبح الإجماع يعني في العصر الحديث ممارسة الديمقراطية، نحن لا نظن أن هناك من يعارض هذا التأويل، أعني الرغبة في ربط الإجماع بالشورى والديمقراطية، ولكن مع ذلك، فإن هذا لا يمنع من استخلاص نتيجة أخرى، سلبية هذه المرة، وهي أن تمسك الفقهاء والأصوليين بالإجماع كمبدأ

---

(١) بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية)، تأليف: الدكتور: محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت. الطبعة التاسعة: ٢٠٠٩م، ص١٣٤.

وأصل منحهم إياه كل تلك السلطة، التي أبرزناها، ثم اختلافهم بشأنه كل ذلك الاختلاف الذي رأيناه..»[1].

ـ وفي تأكيد المنهجية الحداثية وأن أداة الدوافع جزء لا يتجزأ منها وعن منزلتها العليا في الهرم المفاهيمي للمنهج الحداثي، **يبين الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي) هذه المنزلة العالية في المنهجية الحداثية من خلال تعميم دخول هذه الدوافع على كل فكرة ثقافية أو أي ثقافة عامة أياً كانت، فضرورة حضور المحرك واقعية حتمية لا احتمالية متوقفة على الاكتشاف أو أن تكون نهاية بحث واستقصاء، فيقول في مقدمته للكتاب:**

«إن البحث في تكوين العقل العربي موضوع هذا الجزء من الكتاب، يتطلب كما قلنا استئناف النظر في تاريخ الثقافة العربية، في أصولها وفصولها، في أسسها ودروبها.

وإذا كانت الثقافة، أية ثقافة، هي في جوهرها عملية سياسية، فإن الثقافة العربية بالذات لم تكن في يوم من الأيام مستقلة ولا متعالية عن الصراعات السياسية والاجتماعية، بل كانت باستمرار الساحة الرئيسية التي تجري فيها هذه الصراعات.

إن الهيمنة الثقافية كانت النقطة الأولى، وأحياناً الوحيدة، المسجلة على جدول أعمال كل حركة سياسية أو دينية بل كل قوة اجتماعية تطمح إلى السيطرة السياسية أو تريد الحفاظ عليها.

ومن هنا تلك العلاقة العضوية بين الصراع الإيديولوجي والصدام الإيبيستيمولوجي في الثقافة العربية، وهي علاقة ما كان يمكن لنا قط إهمالها أو التقليل من أهميتها ومفعولها، وإلا فقد التحليل بعده التكويني، أعني ما يمنح موضوعه تاريخيته»[2].

---

(١) بنية العقل العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية) ص١٣٥.

(٢) تكوين العقل العربي، تأليف: الدكتور: محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت. الطبعة العاشرة: ٢٠٠٩م. ص٦ وما بعدها.

ويقوم الجابري في ثنايا هذا الكتاب بالتخطئة والوصم بالتضليل والنقص للمناهج التي لا تعطي للدوافع منزلتها التي أنزلتها بها المنهجية الحداثية في قراءتها، فيقول:

«والواقع أن أي تحليل للفكر العربي الإسلامي، سواء كان من منظور بنيوي أو من منظور تاريخاني، سيظل ناقصاً وستكون نتائجه مضللة إذا لم يأخذ في حسابه دور السياسة في توجيه هذا الفكر وتحديد مساره ومنعرجاته.

وإذا كان مؤرخو الفكر بمختلف نزعاتهم المذهبية وميولاتهم المنهجية يسلمون صراحة أو ضمناً، بنوع من الاستقلال للفكر عن الواقع، وهو استقلال نسبي في جميع الأحوال، فإن نسبية هذا الاستقلال عن الواقع السياسي الاجتماعي الاقتصادي خاصة، يجب أن تحدد ليس فقط بناءً على موقع هذا الفكر في سلم التجريد بل أيضاً على ضوء طبيعة علاقة الدولة بالأيديولوجيا المهيمنة على المجتمع. . .، **ذلك لأن الإسلام، الإسلام التاريخي الواقعي كان في آن واحد، ديناً ودولة. وبما أن الفكر الذي كان حاضراً في الصراع الأيديولوجي العام مان فكراً دينياً أو على الأقل في علاقة مباشرة مع الدين، فإنه كان أيضاً ولهذا السبب في علاقة مباشرة مع السياسة»**[1].

الاتجاه الثاني: الإهمال المنهجي في اعتبار محركات الأفكار:

وهو الاتجاه **الذي أنزل محركات الأفكار منزلة أقل من منزلتها الاعتبارية الصحيحة، وجعلها هامشية في هرم منهجيته لأي قراءة فكر أو رأي، ولا حكم نتيجة لهذه الآراء والأفكار**، وذلك من حيثيات ووجهات متعددة وملامح محددة منها:

الأول: التقليل من أهمية البحث في محركات الأفكار وعدم اعتبارها في عملية فحص الأفكار ومعرض مناقشتها وتناولها والرد عليها، ويظهر ذلك جلياً في أي عملية تناول لأي فكرة؛ حيث إن منهجية اتجاه الإهمال لا تحمل في قاموسها المفاهيمي مفردة المحرك والمؤثر والمسبب للفكرة والرأي، ثم ينتج

---

(١) تكوين العقل العربي ص٣٤٦.

عن هذا الغياب المفاهيمي الخطأ ليس فقط في السياقات للأطروحات الفكرية فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى الخطأ في الحكم النهائي على الأفكار والمعتقدات.

الثاني: التهكم المنهجي في البحث عن المسببات والمؤثرات على الأفكار والآراء، فهذا الاتجاه الفكري لا يكتفي بتقليله من أهمية البحث في دوافع الأفكار فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى رمي من بحث فيها وجعلها من أدواته المنهجية أو اعتباراته في الأحكام على الأفكار والمعتقدات بأنه ليس على الطريقة الصحيحة المعتبرة والمعتمدة في المنهجية التراثية.

ولعلي فيما يلي أحقق ما ذكرت من ملامح وحيثيات في أبرز نموذج للإهمال المنهجي في بحث الدوافع وهي **(قراءة الغلاة في الدين للأفكار والمعتقدات)**، والمسائل التي أبان فيها أهل الغلو في الدين إهمالهم للمحركات والدوافع وعدم إعمالهم واعتبارهم لها في الأحكام على الأفكار والمعتقدات متعددة منها: عدم اعتبارهم لحال المعين وتكفيره، وكذلك الأخذ بظاهر الأفكار والأقوال والاكتفاء عما سواها من المحامل والسياقات، وغيرها من المسائل التي تمحورت حول (رأي وكم الخوارج) في التراث الإسلامي، وقبل ذلك أورد قول شيخ الإسلام رحمه الله في تلك المسائل:

ـ فيقول رحمه الله عن أحوال وسياقات الأقوال والأفكار:

«وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق وقد تكون عنده ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان سواء كان في المسائل النظرية أو العملية هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ. وجماهير أئمة الإسلام»[1].

ـ ويقول رحمه الله في احتماليات وقوع السياقات المؤثرة في حكم تكفير المعين:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٦).

«ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة، والتكفير هو من الوعيد. فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة. ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة. وقد يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئا»[1].

ولعلي فيما يلي أورد بعض تقريرات أهل العلم على ما رصدوه في هذه الظاهرة المنهجية لأحكام الخوارج على آراء وأفكار الطوائف في الأمة:

- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وإذا عرف أصل البدع فأصل قول الخوارج أنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبا ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب - وإن كانت متواترة - ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي»**[2].

- يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفا ودلالة على ما في نفوسهم، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئا عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول، ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علما، بل تجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به، وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه، فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم»**[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣١).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٥٥).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٨٢).

ـ يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فلا بد من شرح الصدر بالكفر وطمأنينة القلب به وسكون النفس إليه فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر لا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه**»[1].

ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أن المسلم إذا عني معني صحيحاً في حق الله أو الرسول ولم يكن خبيراً بدلالة الألفاظ؛ فأطلق لفظاً يظنه دالاً على ذلك المعنى وكان دالاً على غيره، أنه لا يكفر، ومن كفر مثل هذا كان أحق بالكفر؛ فإنه مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين**»[2].

الاتجاه الثالث: الاعتدال المنهجي في اعتبار محركات الأفكار:

وهو الاتجاه **الذي أنزل دوافع الأفكار منزلتها الاعتبارية الصحيحة، وجعلها في المكان المناسب في هرم منهجيته لأي قراءة فكر أو رأي، والحكم نتيجة لهذه الآراء والأفكار**، وذلك من حيثيات ووجهات متعددة وملامح محددة منها:

الأول: اعتبار البحث في محركات الأفكار وعدم اهمالها في عملية فحص الأفكار ومعرض مناقشتها وتناولها والرد عليها، ويظهر ذلك في تقريرات أهل هذا الاتجاه وفي أدوات فحصهم للأفكار والآراء، ويتبين هذا الاعتبار في جعل البحث في الدوافع أحد الخطوات التي بها يتحقق مراد وقصد صاحب الفكرة من فكرته وقوله ورأيه، وكذلك في حال تقرير المحرك واستنتاجه يتحدد مدى تأثيره على الفكرة فلا يكون أحادي السبب والمحرك في الفكرة بذاته عن غيره من المؤثرات الأخرى والدوافع المغايرة عنه.

---

(١) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تأليف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ص٩٧٨.

(٢) الاستغاثة في الرد على البكري، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ. ص٣٧٣.

الثاني: الأصل الموضوعي والعلمي في قراءة الأفكار ما لم يظهر محرك يقلل من الجانب الموضوعي للفكرة، فهذا الاتجاه الفكري يقرر بمنهجيته أن الأصل في الأفكار واقعها العلمي والموضوعي، وذلك لا يقتضي بطلان أو تجاوز البحث في دوافع الأفكار بقدر ما يؤكد قابلية طرح الفكرة أو نشأتها بخلوها من الدوافع الخارجة عن الأطر الموضوعية في السياق العلمي، وإنما تكون الفكرة قائمة بذاتها ولا يشترط الغلو في التنقيب للتعسف في إيجاد وإقرار الصلة بين المحرك والفكرة.

الثالث: الاستمداد المنهجي القائم على الكتاب والسنة لهذا الاتجاه، فيكون الانطلاق للدوافع من خلال الاعتماد على القرآن الكريم والسنة المطهرة وأصول الأحكام المعتبرة عند أهل السنة والجماعة.

وهذا الاستمداد المنهجي هو الذي يحدد الحد الأدائي للبحث في الدوافع حتى لا يقع الحيف في القصد والغايات، وكذلك يحدد النوع الموضوعي لحقيقة المحرك المؤثر في الفكرة، وغير ذلك من الجوانب المثمرة لعملية الاستمداد المنهجي.

ولعلي فيما يلي أحقق ما ذكرت من ملامح وحيثيات، في أبرز نموذج للاعتدال المنهجي في بحث الدوافع وهي (القراءة التيمية للأفكار والمعتقدات)، والمتمثلة في قراءة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ للأفكار والآراء المختلفة المخالفة والموافقة منها.

ويمكن فيما يلي أن أورد بعض أقواله رَحِمَهُ اللَّهُ توضح الاعتدال في التناول والاستعمال والاستمداد وغيرها من الملامح المتعلقة في بحث الدوافع:

- يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق تحليله للظاهرة الإنسانية في السياق الفكري وتطبيق ذلك على دوافع المكذبين للرسل:

«إن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم

العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق. ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم»[١].

ـ ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق الخلاف العقدي والمذهبي في المسائل الشرعية وأنه يعتريه من دوافع النفس، وأن الهوى يصيب أحدهم حتى يخرج بأفكار ومعتقدات أبعد ما تكون نتائجها لولا توغل تأثير محرك الهوى في العقول والأفئدة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهكذا يصيب أصحاب المقالات المختلفة، إذ كان كل منهم يعتقد أن الحق معه وأنه على السنة، فإن أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوى أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نسب إليهم، لا يقصدون أن تكون كلمة الله في العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيء القصد، ليس له علم ولا حسن قصد فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمد الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير مولاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله»[٢].

ـ ويقول شيخ الإسلام كذلك في سياق ذكره لأسباب الاختلاف المذموم:

«ويكون سببه تارة جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق: في الحكم أو في الدليل، وإن كان عالماً بما مع نفسه من الحق حكماً ودليلاً، والجهل والظلم: هما أصل كل شر، كمال قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩١).

(٢) منهاج السنة (١/ ٢٥٥).

﴿ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢][١].

- ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سرد متتابع عن الدوافع التي قد تحضر في حال الساب فتدفعه لسب رسول الله ﷺ ثم يطبق ذلك على نتيجة الحكم والأثر المترتب، فيقول أنه:

«قد يكون إليه باعث طبيعي غير الخلل في الاعتقاد من الكبر الموجب للاستخفاف ببعض أحواله وأفعاله والغضب الداعي إلى الوقيعة فيه إذا خالف الغرض بعض أحكامه والشهوة الحاملة على ذم ما يخالف الغرض من أموره وغير ذلك فهذه الأمور قد تدعو الإنسان إلى نوع من السب له وضرب من الأذى والانتقاص وإن لم يصدر إلا مع ضعف الإيمان به كما أن تلك المعاصي لا تصدر أيضا إلا مع ضعف الإيمان وإذا كان كذلك فقبول التوبة ممن هذه حاله يوجب اجتراء أمثاله على أمثال كلماته فلا يزال العرض منهوكا والحرمة محفورة بخلاف قبول التوبة ممن يريد انتقالا عن الدين إما إلى دين آخر أو إلى تعطيل فإنه إذا علم أنه يستتاب على ذلك فإن تاب وإلا قتل لم ينتقل بخلاف ما إذا صدر السب عن كافر به ثم آمن به فإن علمه بأنه إذا أظهر السب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف يردعه عن هذا السب إلا أن يكون مريدا للإسلام ومتى أراد الإسلام فالإسلام يجب ما كان قبله فليس في سقوط القتل بإسلام الكافر من الطريق إلى الوقيعة في عرضه ما في سقوطه بتجديد إسلام من يظهر الإسلام»[٢].

والحقيقة أن البحث والنظر في الأسباب قبل الأفكار والأفعال وإن كان فيه من الإنصاف في التصور والإمكان في العلاج والتناول، إلا أنه يصعب على الناظر والباحث فيه أن يخرج بنتيجة متحققة إلا بعد القراءة الدقيقة في صاحب الفكرة وحاملها، ولابد للناظر أن يحمل من الأدوات ما تخوله أن يخوض هذا الغمار.

وختاماً... أسأل الله سبحانه أن قدمت ما يفيد ويسهم في موضوع مهم التصور والتناول والاعتبار، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/١٤٨).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٣٦٥.